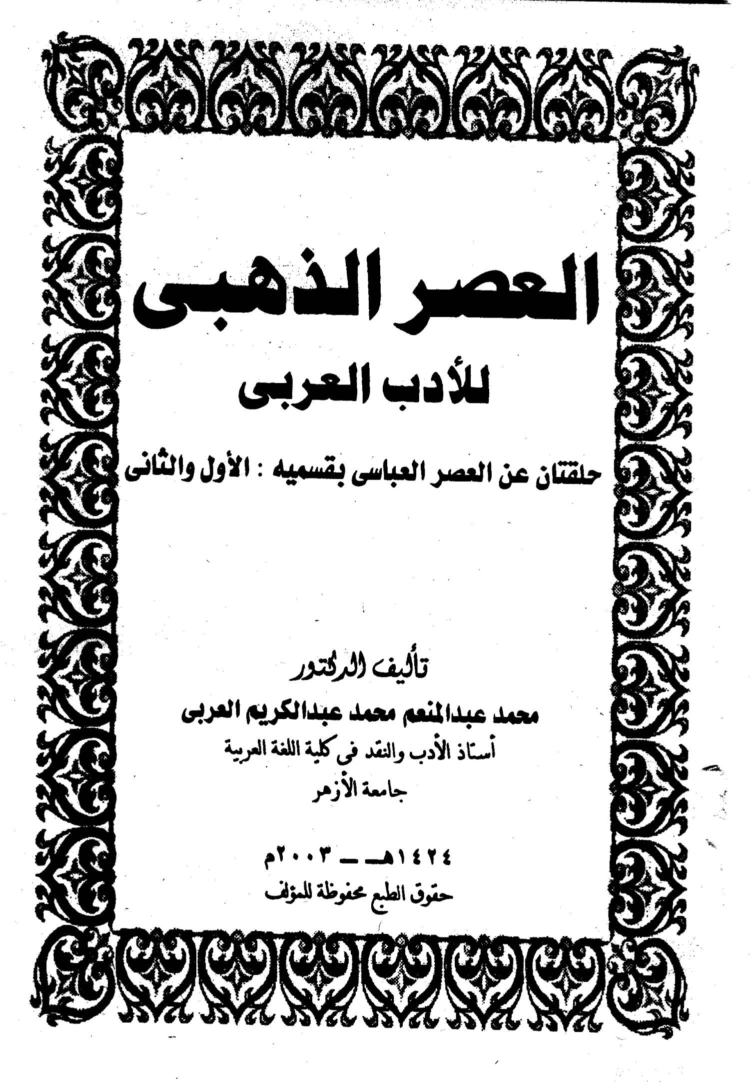


العصر الذهبى

للأدب العربى

حلقتان عن العصر العباسى بقسميه : الأول والثانى

تأليف الدكتور

محمد عبدالمنعم محمد عبدالكريم العربى

أستاذ الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة

(فى أهمية العصر ومكانة أدبه)

أحمد الله تعالى حق حمده ، وأصلى وأسلم على محمد نبيه وعبده وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وسار على نهجه ودربه (وبعد)

فالعصر العباسى – بحق – درة متألقة فى تاريخ الأمة الاسلامية بما كان له (أولا) من حضارة زاهرة ، مادية ومعنوية ، علمية وعملية فنية وأدبية ، حضارة شملت كل جوانب الحياة الإنسانية ، وعرات عملها العظيم فى رقى وتقدم البشرية ، فى تلك (العصور الأولى) من تاريخ الاسلام ، التى هى (العصور الوسطى) بالنسبة للأوربيين والتى كانت تموج عندهم بالجهالات والتأخر والانحطاط الفكرى والاجتماعى فلما توهجت شعلة الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى ، أخذ الأوربيون يقتبسون من نورها رويدا ويغترفون من بحرها شيئا فشيئا وكان هذا بداية نهوضهم وأساس رقيهم ، وليس من باب الادعاء أن تقدم الغرب اليوم – وان يكن ماديا فحسب – يرجع الفضل فيه الى ما أخذه الغربيون وتعلموه من الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية فى العصر العباسى المجيد .

وبما تهيأ لهـــذا العصر (ثانيا) من امتداد السنين وتعاقب القرون ، إذ بلغت مدته خمسة قرون وربع القرن ، من أوائل القرن الثانى للهجرة الى منتصف القرن السابع الهجرى ، وبما تهيأ لهذا العصر (ثالثا) من احتوائه

العديد من الأجناس والثقافات التى امتزجت فى ظله ، وانصهرت فى بوتقته، وتميزت بطابعه ، فمن الأجناس إلى جانب العرب : الفرس والروم والترك والزنج ، ومن الثقافات إلى جانب الثقافة العربية : الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية .

و (الأدب العربى) فى ذلك العصر معلم بارز من أروع معالمه ، ومظهر فاخر من أبدع مظاهره ، ومجال فسيح كان وما يزال من أخصب المجالات وأمتعها للدراسات الأدبية والنقدية ، لما حقق من نهضة سامقة فى ميدانى الشعر والنثر ، وما حلق فيه من آفاق جديدة ، لم يعرفها الأدب العربى من قبل ، فى أغراضه وأساليبه ، ومعانيه وأخيلته ومناحيه وفنونه .

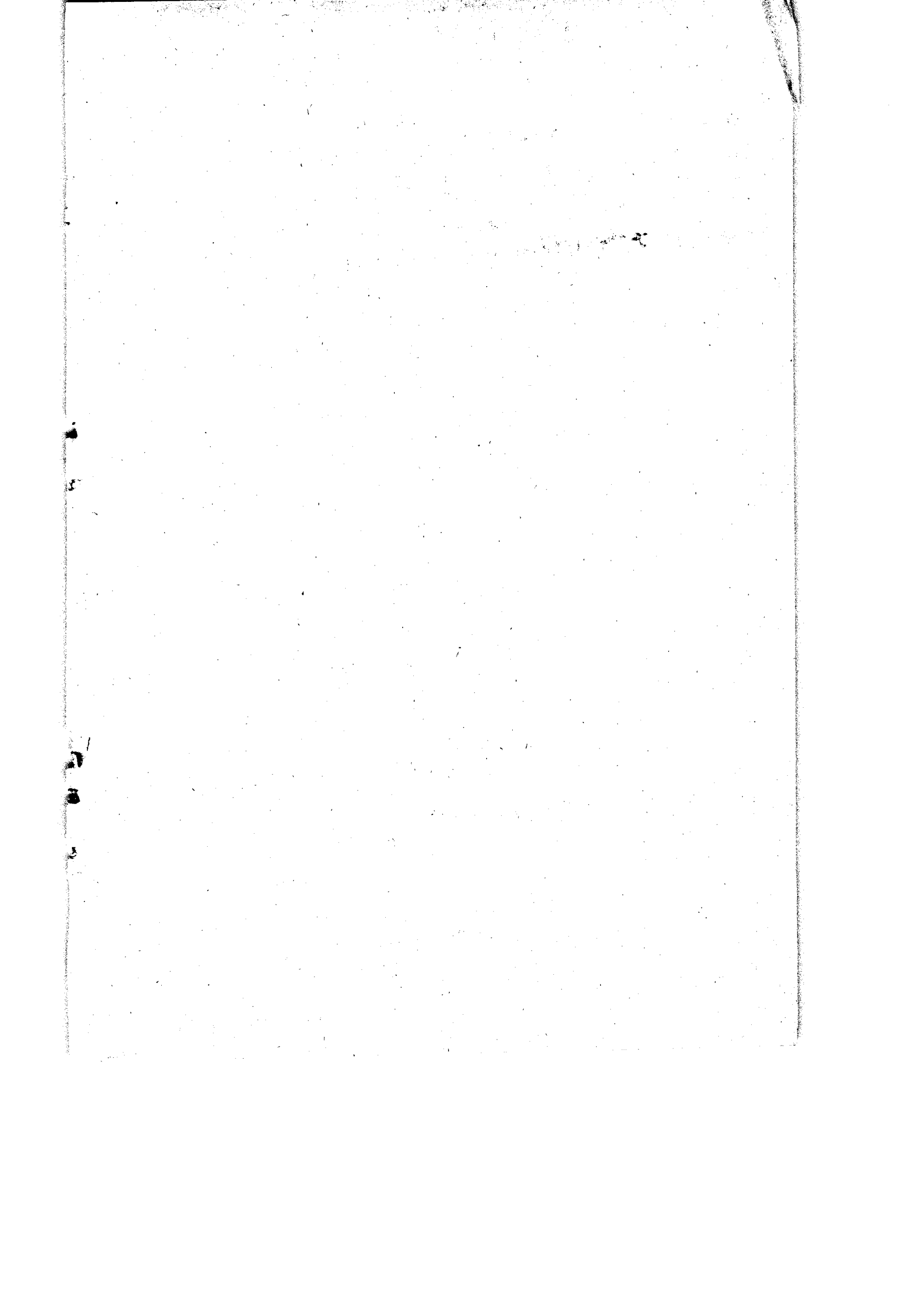
نعم إن العصر السابق له وهو عصر (صدر الإسلام وبنى أمية) كان عصر نهضة أدبية هيأ لها ما كان فى أوله من ثورة إصلاحية عظمى بظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم وما كان فى وسطه من حروب مظفرة خاضها المسلمون مع دولتى الفرس والروم ومن فتوح كبرى تمت على أيديهم ، وما شجر بين طوائف المسلمين بعد ذلك من خلافات سياسية وعصبيات قبلية ، وكل ذلك أثر فى الأدب أعظم تأثير ، فنهض به وحول مجراه مرة بعد مرة ، ووسع من مجالاته وفنونه .

ولكن لاجدال فى أن الأدب فى العصر العباسى كان أعظم نهضة وأقوى ازدهارا وأكثر نتاجا وأوفر رجالا بحيث لانجد مبالغة فى وصفه (بالعصر الذهبى) للأدب العربى ، لعوامل كثيرة سيأتى تفصيلها فى هذه الدراسة ، من أهمها أنه العصر الذى قامت فيه تلك الحضارة الباهرة التى أشرنا إليها ، والتى آتت أكلها شهيا فى كل الميادين ، والتى صورها الأدب وعبر عنها بكل ما فيها

من جد وهزل ، وعلم وفن ، وغنى وفقر وسلم وحرب ، وأنه العصر الذى بلغت فيه الدولة الإسلامية أوج مجدها السياسى والثقافى ، وكتبت فيه الكثير الناصع من صفحات عزها ، وآيات عظمتها وفخرها ، فظهر فيه أعظم شعراء العربية وأبرع كتابها ، ولمع فيه أنبغ علماء الإسلام فى جميع فروع المعرفة من شرعية ولغوية وفلسفية وكونية .

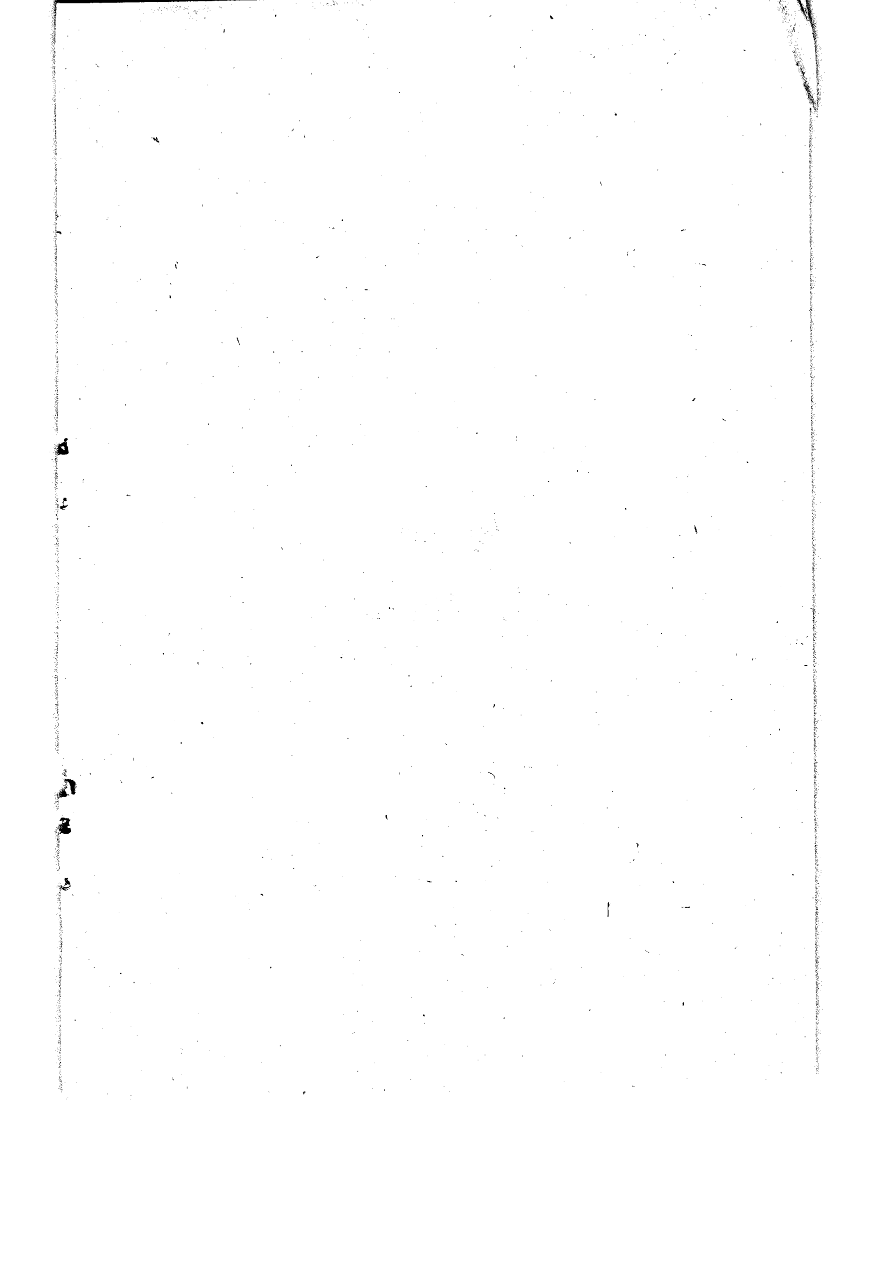
وهذه دراسة عن الشطر الأول من هـــذا العصر أتلوها بدراسة عن عن شطره الثانى بمشيئة الله ، راجيا أن يكون فى الدراستين من الغناء بقدر ما بذل فيهما من الجهد والعناء وأن يكون لهما من الأثر الطيب كفاء ما دفع إليهما من نية صادقة ورغبة مخلصة فى خدمة الأدب وبالله عز وجل التوفيق ، وهو سبحانه المستعان .

(المؤلف)



الباب الأول

أضواء على العصر العباسي



قيام الدولة العباسية وتحديد العصر العباسى

١٣٢ - ٦٥٦ هـ ٧٥٠ — ١٢٥٨ م

بدأ العصر العباسى حين نجح الهاشميون من أحفاد (العباس بن عبد المطلب) عم رسول الله ﷺ بفضل أنصار أهل البيت النبوى من الخراسانيين ومن أنضم إليهم فى القضاء على الدولة الأموية ، وإعلان قيام الدولة العباسية فى نهاية الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى ، وقد تمت البيعة لأول الخلفاء العباسيين أبى العباس المقلب بالسفاح وهو (عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس) بمسجد الكوفة فى ربيـــع الأول من عام ١٣٢ هـ الموافق ٧٥٠ م ، وتم له الأمر فى العام نفسه بالانتصار الحاسم للجيش العباسى على الجيش الأموى الذى كان يقوده (مروان بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية فى موقعة (الزاب)[١] المشهورة وقتل هـذا الخليفة الأموى مطاردا بعد قليل من هذه الهزيمة الساحقة[٢] .

وقد اتخذ العباسيون (الكوفة) عاصمة لهم فى أول الأمر باعتبارها مركزا مهما من مراكز الدعوة لآل البيت ، ثم أنتقلوا منها إلى (الحيرة) مؤقتا لما رأوا هوى أهل الكوفة مع أبناء على بن أبى طالب ، ثم اختاروا (الأنبار) لتكون عاصمة لدولتهم ، وانتقل إليها (السفاح) وسماها (الهاشمية) وبها توفى ودفن[٣] ، وأقام فيها الخليفة الثـــانى (أبو جعفر المنصور) تسع سنين .

---

(١) نهر الزاب الأكبر أحد روافد نهر دجلة قرب مدينة (الموصل) بالعراق .

(٢) كان مقتله فى بلدة (بوصير) من صعيد مصر .

(٣) صفوة تاريخ الخلفاء العباسيين لمحمد طه محمود .

(بناء بغداد) ثم فكر بعد أن استقرت أمور الدولة فى بناء عاصمة جديدة لها تكون عنوانا لعظمتها فاختار موقعا ممتازا - بعد استشارة أهل الرأى والخبرة - يتوسط المملكة الإسلامية وهو على الجانب الشرقى من نهر (دجلة) مما يلى بلاد فارس بين بلاد العرب العجم ، وهناك بنيت (بغداد) على نظام هندسى محكم ، وانتقل إليها الخليفة بجنده وخزائنه ودواوينه عام ١٤٦ هـ فكانت عاصمة الخلافة إلى انتهاء دولتهم ولم تلبث بغداد بعد بنائها إلا قليلا حتى أستبحر عمرانها وحتى صارت عاصمة الدنيا وعروس العالم فى سعتها وجمالها وحضارتها وأزدهارها .

ولقد تعاقب الخلائف من بنى العباس فى حكم الدولة الإسلامية المترامية الأطراف - ما عدا بلاد الأندلس - التى أنفصلت عنهم حين أسس فيها (عبد الرحمن الداخل الأموى) دولة أموية مستقلة عام ١٣٨ هـ ولم يتمكن العباسيون من إستعادتها لبعد الشقة بينها وبينهم ، فأقر (المنصور) بالأمر الواقع ولقب (عبد الرحمن) (بصقر قريش) إعجابا منه بهمته وشجاعته وإعترافا بحسن تدبيره وقوة شكيمته ، وشدة منحته .

وكان نظام الخلافة فى عهد العباسيين (وراثيا) كما كان الحال كذلك فى عهد دولة الأمويين مع مخالفة هؤلاء وأولئك (نظام الحكم الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ، القائم على الشورى وانتخاب أصلح المسلمين لولاية الأمر ، والبعيد تماما عن النظام الوراثى الذى كان سائدا فى دولتى الفرس والروم .

وساعد على انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أمور من أهمها .

١ — بغض الرأى العام الإسلامى للدولة الأموية منذ قيامها ، فقد استولوا على الحكم دون أحقية من وجوه كثيرة منذ نازع .

(معاوية بن أبى سفيان) الأمر (على بن أبى طالب) رابع الخلفاء الراشدين ظلما وباطلا وبعد مقتل (على) فرض الأمويون أنفسهم على الأمة بقوة السيف وبالحيلة والغدر وابتدعوا نظام الوراثة فى الخلافة فتحولت إلى ملك عضوض ثم ساسوا الأمة بالشدة والعنف ، وتصدوا لكل رأى معارض لسياستهم بالكبت والقهر .

٢ — مواقف الأمويين الجائرة الشرسة من (آل البيت النبوى) خاصة ، فقد بطشوا بهم فى غير رحمة ، قتلوا من قتلوا وعلى رأس القتلى حفيد رسول الله شهيد كربلاء (الحسين بن على) وأهل بيته وشردوا من شردوا حتى ألجئوهم إلى أطراف الدولة فارين من الاضطهاد ، ومستخفين من الظلم والتنكيل وقد نال (أهل البيت) جزاء ما اضطهدوا وما قدموا من شهداء وما بذلوا من تضحيات ، بالإضافة إلى ما كانوا يتحلون به من العلم الغزير والخلق الكريم والتقوى والصلاح : نالوا عطف الأمة عليهم ، وميل الرأى العام إليهم ، فقامت الدعوة سرا لنصرتهم والأخذ بثأرهم ، ورد الخلافة إليهم لاسيما فى العراق وبلاد فارس .

٣ — وكان الفرس — بوجه خاص — إلى جانب حبهم الشديد لآل البيت وتشيعهم لهم — ناقمين أشد النقمة على الدولة الأموية سياستها القائمة على احتقار الموالى (غير العرب من المسلمين) من أبناء البلاد المفتوحة ، وإقصائهم عن المناصب ، وعدم مساواتهم بإخوانهم فى الدين من العرب فى الحقوق والواجبات والمعاملة مما يجافى روح وتعاليم الإسلام .

هذه العوامل كلها عجلت بنهاية الدولة الأموية ، وآذنت بزوالها ، وتطلع المسلمون إلى دولة جديدة شعارها العدل والمساواة ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل وإلى يوم ينتصف فيه أهل البيت النبوى من ظالميهم ويتبوءون المكان اللائق بهم فى قيادة وتوجيه الدولة الإسلامية.

وكان العلويون (أبناء على بن أبى طالب) والعباسيون (أبناء العباس ابن عبد المطلب) وهما فرعا (البيت الهاشمى) كانا متعاونين فى عهد بنى أمية على الدعوة لآل محمد عليه السلام من بنى هاشم مع رجحان كفة الأولين لامتيازهم على بنى عمهم العباسيين بأن أبناء على بن أبى طالب هم أحفاد النبى من ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها من جهة ، ولأن القسط الأعظم من اضطهاد الأمويين كان موجها إليهم ، والضحايا كانوا فى الأعم الأغلب منهم والدعوة فى أول الأمر باسمهم ولهم . ولكن الظروف العجيبة[1] ساعدت الفرع العباسى فى نهاية المطاف ، وحين آذنت الدعوة لآل البيت بالنجاح ، فانتهت الخلافة إلى الفرع العباسى ثم أستأثروا بها دون أبناء عمومتهم العلويين وعضوا عليها بالنواجذ .

وقد حكم العباسيون الدولة الإسلامية العظمى خليفة بعد خليفة على مدى زاد على خمسة قرون أشتملت على أزهى عصور الإسلام ، فى العلم والحضارة ، حتى زالت دولتهم بدخول (التتار) بغداد غزاة مخربين ،

---

(١) تفصيل ذلك فى كتب التاريخ وراجع (فى قصور الخلفاء العباسيين) للدكتور أحمد شلبى .

وقتلهم آخر خليفة عباسي وهو الخليفة (المستعصم بالله) عام ٦٥١ هـ ١٢٥٨ م[١].

وقد بلغ خلفاء بني العباس ستة وثلاثين[٢] خليفة أولهم أبو العباس السفاح وآخرهم المستعصم بالله - كان أقواهم العشرة الأول[٣]، ولمع من بينهم خلفاء عظماء (كالمنصور) و (المهدي) و (الرشيد) و (المأمون) و (المعتصم) و (المعتضد).

هذا هو العصر كـكل بداية ونهاية (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ) ونظرا لطوله الكبير، وكثرة أحداثه وتنوعها رأى مؤرخو الأدب تقسيمه في الدراسة إلى أقسام، فكان تقسيم بعضهم إياه إلى أربعة عصور:

١ - عصر قوة الخلفاء (١٣٢ - ٢٩٢) هـ.

٢ - عصر نفوذ الأتراك (٢٩٢ - ٣٣٠) هـ.

---

(١) في عام ٦٥٩ هـ، ١٢٦١ م بعد سقوط بغداد بثلاث سنوات جدد (الظاهر بيبرس) الخلافة العباسية في مصر، ولكنها كانت خلافة صورية يستمد منها سلاطين المماليك قوة معنوية لحكمهم واستمرت هذه الخلافة حتى دخول العثمانيين مصر حيث أرغم آخر خلفائهم على التنازل عن الخلافة للسلطان سليم العثماني عام ٩٢٣ هـ - ١٥٠٧ م.

(٢) إذا استثنينا الخليفة التاسع عشر (عبد الله بن المعتز) الشاعر لمقتله بعد يوم واحد من إنتخابه خليفة عام ٢٩٥ هـ وكان من الأكفاء المرجين لإعادة عظمة الخلافة العباسية. رحمه الله.

(٣) أولهم (السفاح) وآخرهم (الواثق) المتوفى عام ٢٣٢ هـ.

٣ - العصر البويهى ه (٣٣٤ - ٤٤٧) ه .

٤ - العصر السلجوقى (٤٤٧ - ٦٥٦) ه .

وقد مال إلى هذا التقسيم (جرجى زيدان) صاحب كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) و (السباعى بيومى) فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) والدكتور شوقى ضيف الذى أصدر حتى الآن دراستين كبيرتين وصلت ثانيتهما إلى عام ٣٣٤ ه

وكان تقسيم الأكثرين إياه إلى عصرين كبيرين كالأساتذة (أحمد الاسكندرى) و (أحمد أمين) و (على الجارم) و (عبد العزيز البشرى) فى تآليفهم عن تاريخ الأدب العباسى ومنها (المفصل) و (المنتخب) .

١ - فالعصر العباسى الأول مدته قرنان من الزمان (١٣٢ - ٣٣٤) ه ويبدأ بقيام الدولة العباسية وينتهى بحادث تغلب (البويهيين) من الفرس الديالمة على بغداد فى عهد الخليفة (المستكفى بالله) .

٢ - والعصر العباسى الثانى مدته ثلاثة قرون تقريبا (٣٣٤ - ٦٥٦ ه) ويبدأ بدخول (البويهيين) بغداد متحكمين فى خلفائها ، وينتهى بنهاية الدولة العباسية وسقوط بغداد فى أيدى التتار فى عهد الخليفة (المستعصم) آخر الخلفاء العباسيين . وعلى هذا التقسيم الأخير عولت فى هذه الدراسة والله المستعان .

موجز

عن حالة الأدب والشعر قبل العصر العباسي

بلغ الأدب في (العصر الأموي) وبخاصة الشعر مبلغا عظيما من الحركة والازدهار لعدة عوامل منها :

١ - تشجيع الخلفاء الأمويين للشعراء ، وإغــــداقهم عليهم الأموال الطائلة ، إرضاء لنزعة العروبة التي تحن إلى الشعر وتطرب له ، ولشدة حاجتهم إلى الشعراء في تأييد دولتهم ومنازلة خصومهم .

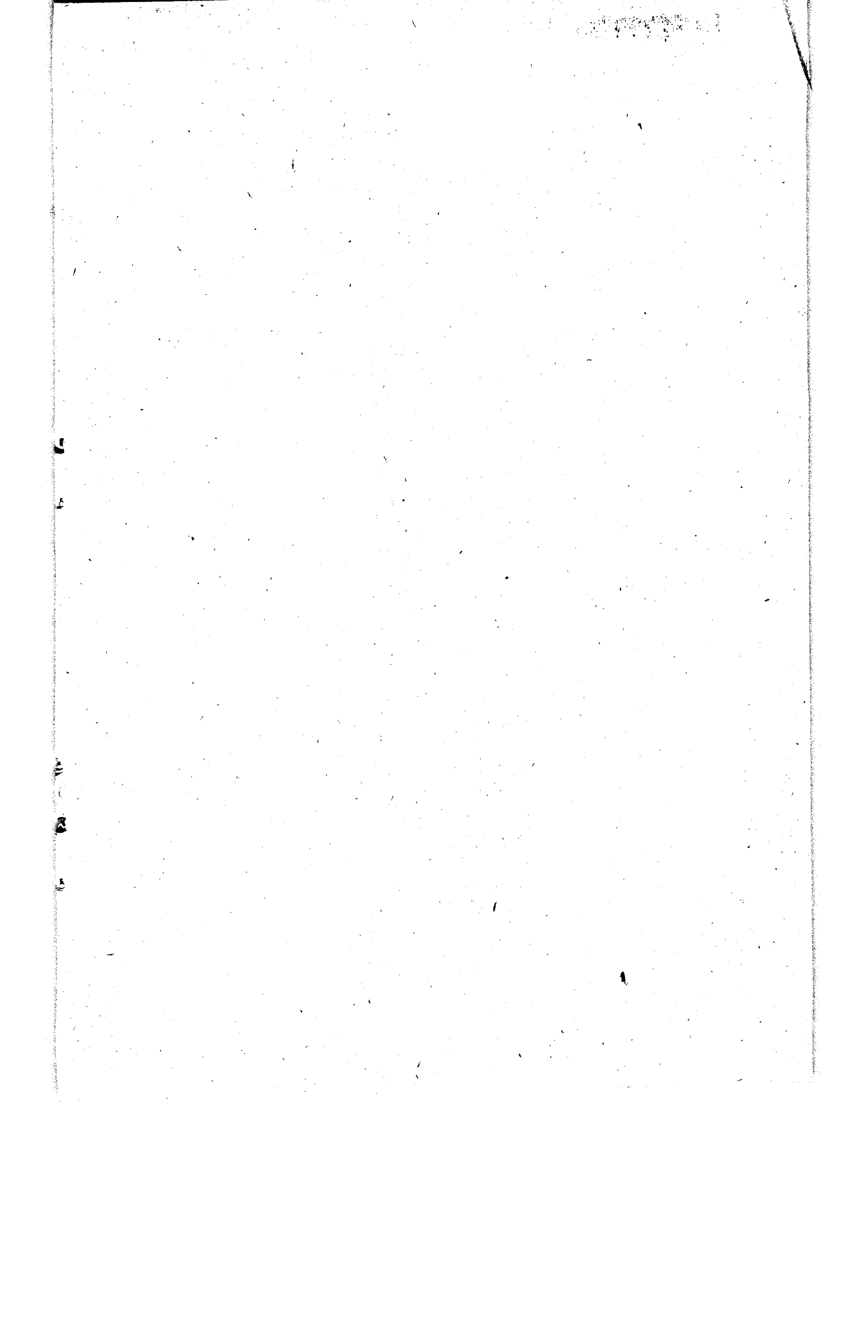
٢ - إحياء هؤلاء الخلفاء النزعات القبلية بين أحياء العرب الكبيرة فجعلوا من كبار الشعراء (كجرير) و (الفرزدق) و (الأخطل) أصوات تهييج وإثارة لهذه النزعات والعصبيات بالمفاخرة والمهاجاة ، ليشغلوا الناس بها عن أمر الخلافة وعن استبداد بني أمية بها دون أحقية ، ومن هنا أزدهر (الشعر السياسي) و (شعر العصبية) في عهدهم

٣ - كما ازدهر (الشعر الغزلي) بقسميه الصريح والعفيف في حواضر الحجاز وبواديه ، فكان في الحواضر (كمكة) و (المدينة) تعبيرا عن حياة وادعة ناعمة عاشها فريق من وجهائها : أغـــدق عليهم الأمويون الأعطيات والأموال ليشتروا سكوتهم فعاشوا في ظل الترف بعيدا عن ميدان السياسة الشائك ، ينعمون بطيب العيش فارغين لقرض الشعر والاستماع إلى الغناء الذي راجت سوقه بينهم ، إشباعا لعواطفهم وحبهم للجمال ، وإزجاء لفراغهم كما نرى في شعر (عمر بن أبي ربيعة) وأضرابه ، وكان

الشعر فى البادية تصويرا للعواطف المشبوبة التى كانت تنشأ بين الفتيان والفتيات فى جو الحياة البدوية الخالية من شواغل الحياة، فلا يستطيعون إخفاءها مع صرامة التقاليد البدوية التى كانت تحول بين المحبين الذين صرحوا بأسماء من يحبون وبين الزواج بهؤلاء المحبوبات، فظهر الغزل العذرى العفيف والحزين على نحو ما نرى فى شعر (جميل بن معمر) و (قيس ابن ذريح) و (قيس بن الملوح) وغيرهم.

ويمتاز الشعر الأموى من جهة الأسلوب بالفحولة والجزالة لاسيما فى الأغراض الجدية كالفخر والمدح والهجاء، وبالرقة والسهولة فى الغزل سواء فيه ما كان عذريا عفيفا كشعر أهل البادية. وما كان منه صريحا وقصصيا كشعر أهل الحضر، ويمتاز من جهة المعانى بالوضوح وقرب المأخذ، والبعد عن الغموض، ولم يخرج الشعر الأموى فى صورته العامة عن الشعر الجاهلى وشعر صدر الإسلام من حيث نظام القصيدة وطريقة بنائها ووزنها وقافيتها، لكن عناية خاصة وجهت إلى (الأراجيز) وهى نوع من الشعر يلتزم وزن (الرجز) كما يلتزم القافية فى كل من مصراعى البيت غالبا وقد نهض على يد (أبى النجم العجلى) و (العجاج) وابنه (رؤبة) وحفل باللفظ الغريب والعارضة البدوية الأعرابية ومن كل ذلك نرى الشعر الأموى محافظا تماما على الروح العربية الأصيلة، متأثرا إلى أقصى حد بالأقدمين، فالشعراء كلهم عرب والمخاطبون به كذلك وأبناء البلاد المفتوحة لم يستعربوا تماما حتى يتناولوه ويبلغوه فيه ولم يجدوا من الدولة الأموية تشجيعا على الاندماج فى العرب، بل على العكس، وجدوا إعراضا ونفورا فسلمت لغة الشعر من الخطأ واللحن، أما النثر : فقد نهضت (الخطابة) بكثرة دواعيها من

وجود الأحزاب والفرق وقيام الثورات والفتن ، وتعدد الحروب والفتوح ، كما نهضت (الكتابة) بتعريب الدواوين ، واتساع الدولة وحاجتها إلى اصطناع الكتاب والاستكثار منهم ، فلما عظم شأنهم جعلوا من الكتابة صناعة يتسابقون إلى إجادتها حتى وصلت فى آخر دولة الأمويين إلى مستوى رفيع على يد الكاتب النابغة (عبد الحميد بن يحي الكاتب) رئيس الكتاب وعميدهم وواسطة عقدهم فى الإجادة والبراعة .

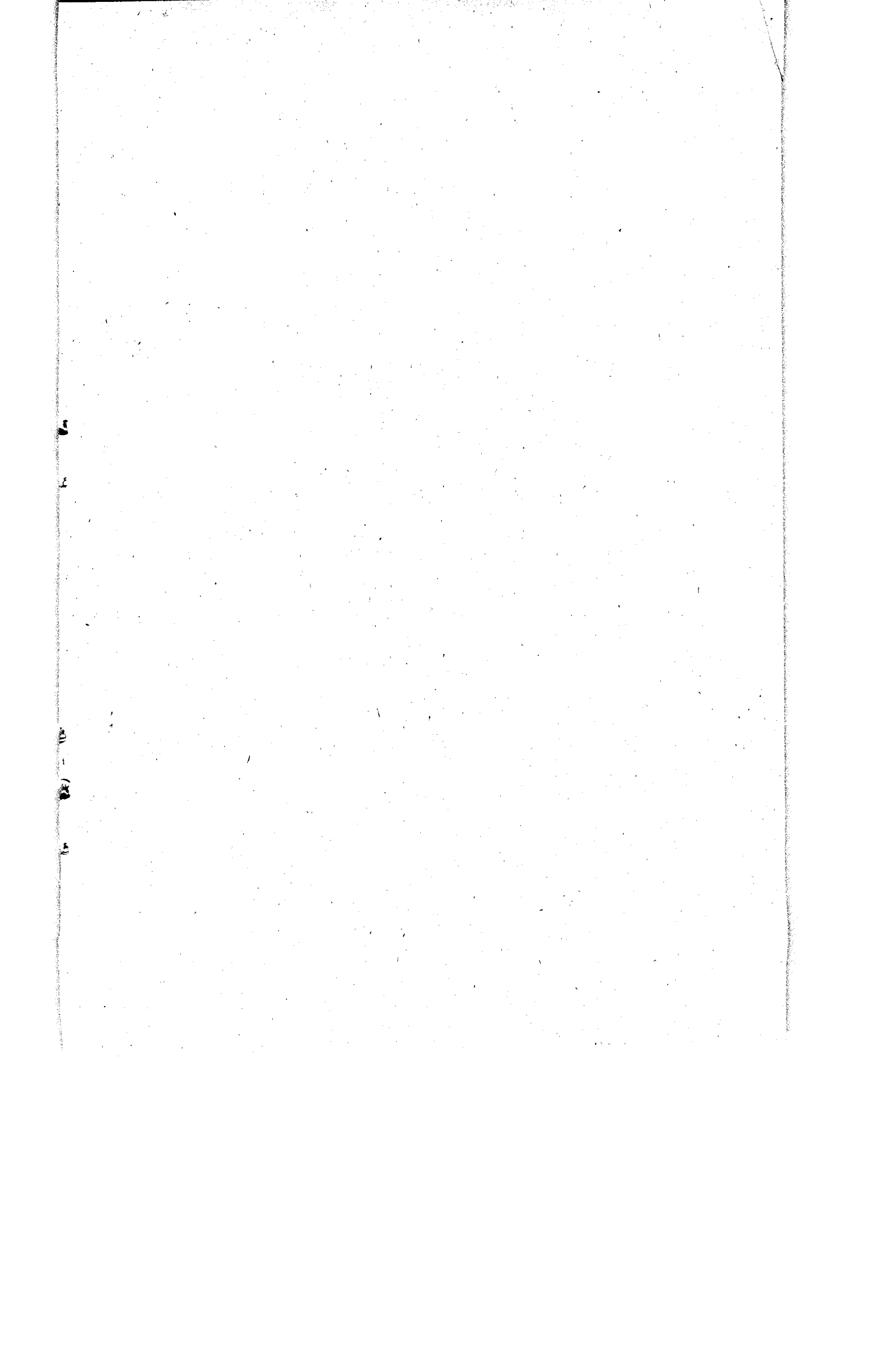


الباب الثانى

الأدب فى العصر العباسى الأول

(١٣٢ هـ — ٣٣٤ هـ)

عوامل التأثير فيه شعراً ونثراً



أولا : الأحوال السياسية

١ - (نجاح الدعوة وقيام الدولة) :

نجحت الدعوة العباسية التى قامت على نصرة الهاشميين وآل بيت النبى عليه الصلاة والسلام فى أحقيتهم بالخلافة وفى الثورة على بنى أمية لاغتصابهم الخلافه ، وسفكهم الدماء بغير حق ، واستئثارهم بأموال الأمة ، وظلمهم الرعية .

نجحت هذه الدعوة بفضل مهارة وإخلاص الدعاة الذين أعدهم العباسيون لهذه المهمة ، وبعثوا بهم من مركز دعوتهم فى (الحميمة)[1] إلى شتى البلاد والأمطار ولاسيما بلاد فارس ، وقامت الجيوش باسم هذه الدعوة فى (خراسان) فطردت ولاة بنى أمية ، ثم تقدمت تكتسح جيوشهم زاحفة إليها و عقر دارها ، وتمكنت من هزيمتها ، وإزالة الدولة الأموية تماماً وإحلال الدولة العباسية محلها ، بفضل حنكة قادة الجيوش العباسيين وشجاعتهم وتفانيهم فى نصرة بنى هاشم من أمثال (أبى مسلم الخراسانى) ، وأقبل الشعراء على الدولة الجديدة يهنئون خلفاءها وقادتها بالنصر ، ويعلنون تأييدهم لها ويشدون أزرها ، ويحرضونها على استئصال شأفة الأمويين وإبادة بقاياهم واستجاب (السفاح) أول خلفاء بنى العباس لهذا التحريض ، كما استجاب قواده ، فأعملوا السيف فى بنى أمية وغدروا بمن أمنوه منهم وتتبعوا من اختفى ومن فر من بنى أمية وأخذوهم أخذاً وبيلا ، فلم ينج منهم إلا أفراد قلائل ساعدتهم

---

(١) بلدة فى جنوب الشام .

الظروف فى الهرب إلى أقاصى البلاد والأطراف البعيدة كبلاد المغرب والأندلس .

٢ — (سياسة سفك الدماء لتثبيت الملك) :

وقد سن (السفاح) سنة سيئة فى الغدر ببعض أعوان بنى العباس من كبار الرجال الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة لآل البيت النبوى وبذلوا فيها أموالهم وأرواحهم ، والذين كان نجاحها بفضل مساعيهم ، وكان قيام الدولة الجديدة بحسن تدبيرهم وقوة سواعدهم فبطش (السفاح) بـ (أبى سلمة الخلال) الذى كان قطب الرحى فى الدعوة وحلقة الاتصال فى (الكوفه) بين العباسيين فى (الحميمة) وأنصارهم فى (خراسان) وسائر البقاع وكان مرجع الأمور كلها إليه ولذلك كان يدعى (وزير آل محمد) وهو أول من لقب بلقب الوزير فى الإسلام . وبطش (المنصور) خليفة السفاح بـ (بأبى مسلم الخرسانى) القائد الجسور الذى قاد الجيوش الخراسانية المظفرة فى خدمة العباسيين وشتت شمل الجيوش الأموية وأزال ملك الأمويين بقوة بأسه ومحكم تدبيراته[1] ، وفتك (الرشيد) بوزراء دولته من (البرامكة) بعد أن نهضوا بالأمور فى عهده وأدوا للخلافة أعظم الخدمات .

وكانت ذريعة هؤلاء الخلفاء فى البطش بهم ، والغدر بذمتهم ، أنه بدرت

---

(١) كذلك لم يتورع المنصور عن الغدر بعمه (عبد الله بن على) الذى تطلع إلى الخلافة بعد وفاة السفاح فدبر له قتلة شنيعة بعد أن أمنه ، كما لم يتورع عن الأمر بقتل الكاتب الأديب (عبد الله بن المقفع) لأنه كتب عهد الأمان لعبد الله المذكور فاحتاط له ووكده توكيداً شديداً . مما أثار حنق المنصور فأوعز إلى والى البصرة الذى قتله قتلة بشعة .

منهم بوادر ميل عن العباسيين مما دعاهم إلى الشك فى إخلاصهم ، والخوف من تدبير يقومون به لقلب دولتهم ونقلها إلى أبناء عمومتهم من العلويين ، وكان هذا الشك مبالغاً فيه دون ريب وغير مستوجب للغدر وسفك الدماء البريئة . وقد دفع هؤلاء الضحايا من كان يحبهم ويقدرهم من الأدباء والشعراء على خوف وتوجس من الخلفاء الباطشين وشمت فيهم بعض أعدائهم من الشعراء وبعض المنافقين من شعراء الخلافة وسجل تاريخ الأدب شعر هؤلاء واولئك .

٣ — (نظام ولاية العهد) :

ولم تختلف الدولة العباسية عن الدولة الأموية من جهة نظام الحكم كما أشرنا ، فقد حولوا الخلافة كسابقيهم إلى ملك وراثى - استبدادى غالباً - يشبه النظام الكسروى عند الفرس والقيصرى عند الروم ، كذلك وقعوا من جهة (نظام ولاية العهد) فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الأمويون من قبلهم ، وهو أن كثيراً من خلفائهم - وخاصة فى العصر الأول - كان يعهد بالأمر من بعده لأكثر من شخص (إثنين أو ثلاثة) على التوالى . مما سبب التناحر والشقاق فى داخل البيت العباسى نفسه ، وجر المآسى والنكبات عليهم ، وجلب الحروب الطاحنة فيما بينهم ، مما أضعف من شوكتهم وغض من مهابتهم وذلك لمحاولة ولى العهد الأول - بعد أن تئول إليه الخلافة - عزل أخيه ، وتولية ابنه مكانه ، أثرة منه وحباً فى بقاء الملك فى عقبه دون غيره ، بتشجيع المنافقين من رجال الحاشية فقد عهد (السفاح) إلى أخيه (المنصور) ثم إلى ابن أخيه (عيسى بن موسى) فلما ولى (المنصور) أكره (عيسى) على تقديم (المهدى بن المنصور) على نفسه فى ولاية العهد ، وحين ولى (المهدى) أرغم (عيسى) - مرة أخرى - على التنازل نهائياً عن ولاية العهد ، ليوليها المهدى ولديه (موسى الهادى وهارون الرشيد) على التوالى ،

ولما آلت الخلافة إلى (الهادى) حاول جاهداً نقل ولاية العهد إلى ابنه (جعفر) بدلا من (الرشيد) ولكن وفاة (الهادى) العاجلة حالت دون ذلك، وقد مات الهادى مقتولا، وربما كان هذا الأمر أحد أسباب اغتياله، وعهد (الرشيد) لأبنائه الثلاثة (الأمين، فالمأمون، فالمؤتمن) على التعاقب، وتحارب الأمين والمأمون بعد وفاة الرشيد بقليل بعد أن صمم الأمين على نقل ولاية العهد لابنه (موسى) وخلع المأمون منها وانتهت الحرب بين الأخوين بمأساة مصرع الأمين المروعة، ولم يعتبر الخليفة المتوكل بهذا الدرس القاسى فعهد بالخلافة من بعده لأبنائه الثلاثة (المنتصر) (فالمعتز) (فالمؤيد) وقد تآمر أولهم مع الأتراك على أبيه حين علم أنه عازم على نقل ولاية العهد منه إلى أخيه الأوسط وبعد مقتل المتوكل وتولى (المنتصر) عمل بمشورة الأتراك فعزل أخويه وجعل ولاية العهد لابنه، كذلك لم يف (المعتز) حين تولى الخلافة لأخيه (المؤيد) بل حبسه وقتله[1].

كذلك كان نظام ولاية العهد العباسى مدعاة لتولى بعض صبيانهم الخلافة (كالمقتدر)، الذى ولى وعمره ثلاثة عشر عاماً - وكان ذلك فرصة لاستبداد الأوصياء بالأمور وتدخل النساء فى شئون الحكم وما جره ذلك من فساد وفوضى وضياع لهيبة الخلافة لذلك لا تعجب إذا أعلن (عبد الرحمن الناصر) الأموى نفسه خليفة فى بلاد الأندلس بعد ما سمع عن المهازل التى تجرى فى بغداد عاصمة العباسيين.

وهكذا كان هذا النظام لعنة على البيت العباسى ومجلبة لسلسلة من المصائب

---

(١) راجع صفوة تاريخ الخلفاء العباسيين لمحمد طه محمود، و (فى قصور الخلفاء العباسيين للدكتور أحمد شلبى.

وكان لكل مرشح للخلافة مؤيدون من الشعراء ومعارضون وكانت هذه الأحداث موضوعاً لجانب كبير من الشعر العباسى السياسى.

٤ — (إضطهاد آل على بن أبى طالب) :

وقع العباسيون فى خطأ فادح وظلم صارخ حين قلبوا ظهر المجن لأبناء عمومتهم العلويين، حين رأوا منهم استشرافاً للخلافة، وقولا بأنهم أحق بها واستشعروا قبولا لهذا الرأى من جانب كبير من الأمة، فاضطهدوهم وناصبوهم العداء وتتبعوهم ـ فى أغلب الأحيان ـ قتلا وحبساً ومطاردة، ثم انبروا يحاولون إبطال نظريتهم فى الخلافة بالحجاج والمنطق، فكان لهم شعراء يعبرون عن وجهة نظرهم رغبة ورهبة (كمروان بن أبى حفصة) و(على ابن الجهم) وغيرهم، كما كان للعلويين شعراء ينافحون عنهم محبة وإعزازاً ويندوون بقسوة العباسيين فى معاملة العلويين وظلمهم إياهم مثل (دعبل الخزاعى) وغيره كما تبودلت بين الفريقين رسائل بليغة، حاول فيها كل فريق تأييد وجهة نظره، ودحض نظرية خصمه بالحجة والمنطق، كالرسائل التى تبودلت بين محمد (النفس الزكية) و (المنصور) وتعد تلك الرسائل وثائق أدبية وسياسية مهمة لهذا العصر.

٥ - (التصدى للخوارج على الدولة) :

ولم يقتصر الأمر على خروج بعض هؤلاء العلويين على بنى العباس، مثل (إبراهيم بن عبد الله) أحد أحفاد الحسن بن على رضى الله عنهما الذى خرج على المنصور وحاربه انتقاماً لقتله أخاه (محمد بن عبد الله) المعروف (بالنفس الزكية) بل كثر الخارجون على الدولة، كخروج (أبى حاتم الخارجى) فى شمال أفريقية فى عهد (المنصور) وخروج (عبد السلام اليشكرى)

بالجزيرة ، و (يس التميمى) بالموصل فى عهد (الهادى) وخروج (الوليد ابن طريف التغلبى) فى الجزيرة و (رافع بن الليث) فى خراسان فى عهد (الرشيد) وثورة (الزط)[1] بالبصرة وثورة (نصر بن شبث) بالشام فى عهد (المأمون) وثورة (بابك الخرمى) فى عهد (المعتصم) وثورة بنى سليم بالحجاز ، والقيسية بدمشق فى عهد (الواثق) وثورة اليعفريين باليمن ، وأهل أرمينية فى عهد (المتوكل) وغير أولئك من الثورات والفتن الدامية ، وقد أرسلت اليهم الدولة الجيوش الجرارة ، ولمع كثير من القادة فى إخماد هذه الثورات مثل (يزيد بن مزيد الشيبانى) قائد الرشيد ، وكان ضمن هؤلاء الخوارج شعراء يعبرون عن وجهة نظرهم فى الحكم والسياسة العباسية ، كما كان شعراء الخلافة يهنئون الخلفاء وقادتهم بالنصر على هؤلاء الخوارج ويندون بحركاتهم العاصية وكان كتاب الدولة يكتبون عن الخلفاء كتباً لهؤلاء الخارجين يدعونهم إلى الطاعة قبل محاربتهم إياهم ، كما كانوا يصوغون كتب الأمان لمن يستجيب منهم ويقلع عن عصيانه وخروجه .

٦ (العلاقات الخارجية والحروب مع الروم) :

كانت الدولة البيزنطية (الرومانية الشرقية)[2] هى أقوى الدول المعاصرة للدولة العباسية ، وكانت تضمر العداوة للمسلمين وتتربص بهم الدوائر[3]

---

(١) هم جماعة من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فسادا فى نواحيها .

(٢) ومقرها فى شرق أوربا وجزء من آسيا الصغرى .

(٣) لأن المسلمين هزموا جيوش هذه الدولة هزائم ساحقة وأزالوا سلطانها عن أجمل الأقاليم التى كانت تحتلها فى آسيا وأفريقية كالشام ومصر والمغرب فى عهد الخلفاء الراشدين .

فكانت تحين الفرص لاشتغال الخلفاء العباسيين بإخماد الفتن الداخلية والاشتباك مع الخوارج لتشن هى الغارة على أطراف الدولة الإسلامية وثغورها فى مناطق الحدود المشتركة بين الدولتين ، فتقتل وتأسر ، وتدمر وتخرب ، ثم تنسحب أو تبقى لبعض الوقت مترقبة رد الفعل . وأمام تلك الهجمات الغادرة رتب خلفاء بنى العباس (الصوائف والشواتى) وهى حملات تأديبية للروم توجه إليهم مرتين كل عام فى الصيف مره وفى الشتاء أخرى وذلك للقصاص منهم وردعهم وإذلالهم ، وكثـــيرآما كان الخلفاء يقودون هذه الحملات بأنفسهم أو يولون قيادتها أبناءهم وكان النصر حليف المسلمين دائماً مما أكد تفوقهم الحربى على الروم ، وقد بدأت المناوشات فى عهد (المنصور) من جانب الروم ، وتجددت فى عهد ابنه (المهدى) الذى أرسل إليهم ابنه (الرشيد) الذى توغل فى بلادهم منتصراً حتى وصل إلى مشارف (القسطنطينية) عاصمتهم وهددها عام ١٦٥ هـ وألقى الرعب فى قلوب حكامها فطلبوا الصلح ودفعوا الجزية للخليفة العباسى وهم صاغرون وفى عهد خلافة الرشيد ، نقض امبراطورهم الجديد (نقفور) العهد وأعلن المسلمين بالعداء فسار إليه (الرشيد) بنفسه وهزمه هزيمة منكرة وفتح مدينة (هرقلة) من كبريات مدنهم ولم يرجع حتى دفع (نقفور) الجزية القديمة وجزية جديدة عن نفسه وآل بيته .

ثم عاود الروم غدرهم الدفين بالمسلمين فأغاروا على الحدود الإسلامية وعاثوا فيها فساداً وخربوا مدينة (زبطرة) الإسلامية وساقوا منها الأسرى فى عهد الخليفة (المعتصم بن الرشيد) فسار إليهم المعتصم من فوره ففتح (أنقرة) ثم قصد أمنع معاقلهم وهى مدينة (عمورية) ففتحها بعد أن أباد جيش الروم المتحصن بها وكانت عـدته تسعين ألف مقاتل ثم جعل المدينة

طعمة للنيران وفر امبراطور الروم (تيوفيل) من المعركة مدحوراً بعد هزيمته النكراء وقد خلد الأدب هذه الوقائع التاريخية والفتوحات الباهرة وفرد الشعراء وغنوا لهذه الانتصارات الإسلامية الرائعة على دولة الروم الباغية الحاقدة .

أما ما عدا الدولة البيزنطية ، فقد هاب ملوك هذا العصر خليفة المسلمين (المهدى) لشدة بأسه وسعة سلطانه وتغلبه على دولة الروم القوية فدخلوا فى طاعته ومنهم ملك الهند وملك الترك وملك الصين ، كما أرسلت ملوك الفرنجة فى أوربا الغربية إلى (الرشيد) سيد ملوك العالم فى عصره غير منازع تخطب مودته وتسعى لعلاقات طيبة معه ،أرسل (شرلمان) ملك فرنسا سفارة إليه بهذا المعنى ، ورد (الرشيد) بسفارة وهدايا منها ساعة مائية دقاقة من اختراع المسلمين ، ذعر منها رجال حاشية شرلمان حين رأوها وظنوا أن بها عفريتاً من الجن يحركها !! وهذا دليل واضح على مدى تفوق المسلمين آنذاك فى العلم والصناعة ، ومدى جهل الأوربيين وتخلفهم .

٧ - (تغلب العناصر التركية على الجيش وسيطرتها على الدولة) :

على الرغم من وجود (نفوذ فارسى) فى الدولة العباسية منذ قيامها فى شئون الوزارة والجيش فإن عروبة الخلفاء ويقظتهم وقوة شخصياتهم حالت دون طغيان هذا النفوذ وأن يتجاوز حده ، وكان للخليفة العباسى هيبته الكبرى ، ومكانته العظمى فى الداخل والخارج واستمر الحال على ذلك مدة الخلفاء العشرة الأول ، إلا أن الخليفة الثامن (المعتصم) وقع فى غلطة شنعاء إذ استكثر من (العنصر التركى) فى الجيش لدرجة الاعتماد الكامل عليه وإسناد القيادة إليه ، مع الاستغناء عن العناصر الأخرى ولا سيما العنصر

العربى ، فعظم شأن الأتراك ، وأمسكوا بزمام الأمور شيئاً فشيئاً ونظراً لمـا فطروا عليه من البداوة والشراسة ، طغوا وبغوا ، واستشرى شرهم ، وصاروا بلاء على الأمة أولا ، ثم نقمة على الخلفاء أنفسهم بعد ذلك وكان أول جرائمهم مصرع الخليفة العاشر (المتوكل) على أيديهم فى عام ٢٤٧ هـ وهى الجريمة التى لم ينالوا عليها عقاباً ولا قصاصاً فتجرءوا على الخلفاء من بعده يتحكمون فيهم بالتولية والعزل والحبس والتعذيب والقتل فضعف شأن الخلافة ، وهان الخلفاء ، وساءت أحوال الدولة بتحكم هـذا العنصر التركى البغيض فى الأمور ، إذ كثرت المؤامرات وعدم الأمان وعم الخوف ، وساد البطش ، وانتشرت الفوضى فى كل مرافق البلاد و شئونها الداخلية والخارجية وكثرت الفتن والأحداث الدامية[1] ولم يعد للخليفة وزن ولا سيطرة وبدأت الحركات الاستقلالية فى داخل الدولة العباسية إذ طمع حكام الأقاليم فيما تحت أيديهم واستقلوا بولاياتهم ، فتمزقت الدولة وانقسمت إلى دويلات متعددة لا يربطها بالخليفة فى بغداد إلا رابط ضعيف يتمثل فى الدعاء له على المنابر يوم الجمعة وسك النقود باسمه ، وإرسال شىء من المعونة المالية الرمزية كل عام إلى بغداد واستمر الحال على ذلك قرابة قرن من الزمان حتى زحف (البويهيون) على بغداد فسيطروا عليها وقضوا على نفوذ الأتراك عام ٣٣٤ هـ

---

(١) من أهم هذه الأحداث والفتن حركة (الزط) فى شرق العراق فى عهد (المأمون) عام ٢١٩ هـ ، وثورة (الزنج) فى البصرة فى عهد (المهتدى) ٢٥٥ هـ ، وحركة (القرامطة) فى أيام (المعتمد ٢٦٦ هـ) و (المعتضد) ٢٧٩ هـ و (المكتفى) عام ٢٨٩ هـ .

ثانيا : الأحوال الاجتماعية

١ – (العناصر الأعجمية ووضعها فى المجتمع العباسى) :

كان من أهم الأسس التى قامت عليها الدولة العباسية المساواة بين عناصر الأمة الإسلامية فى الحقوق والواجبات ، وعدم تفضيل العرب على العجم وقد حقق العباسيون هذه المساواة وقضوا على الغبن الذى أصاب الموالى أيام بنى أمية فقرت أعين الأعاجم ولا سيما الفرس ورفعوا رءوسهم فى عزة واعتداد فى ظل سماحة الدولة الجديدة ، وعدم تعصبها ونعموا بحريات واسعة لم يكونوا يتمتعون بها من قبل ، ولعبوا فى حياة المجتمع العباسي دوراً خطيراً ، كان له أثره الكبير فى أدب ذلك العصر شعره ونثره .

٢ – (غلبة التأثير الفارسى) :

ولما كان قيام الدولة العباسية إنما تم على أكتاف الفرس إذ كانوا جنودها وأنصار دعوتها ، والمضحين فى سبيل تأسيسها بأموالهم وأرواحهم - فقد عرف العباسيون للفرس هذه الخدمات ، والتضحيات الجسيمة ، فاحتضنوهم وكافئوهم بأرفع مناصب الدولة فكان منهم الوزراء والقادة والحجاب والكتاب والولاة والموظفون فى شتى المرافق ، واقتبسوا نظمهم فى الحكم والإدارة ، فعظم نفوذهم ، وقوى شأنهم وأصبح لهم فى المجتمع العباسى وزن كبير وتأثير عظيم .

٣ – (اختلاط العرب بالعجم) :

وفى ظل المساواة الجديدة وأخذ العجم حقوقهم كاملة وازدياد النفوذ الفارسى اختلط العرب بغيرهم من العناصر الأعجمية ، وكانت غالبية هذه

لعناصر من الفرس وهم أصحاب حضارة كبيرة ومدنية سابقة ، وكانوا بعد الفتح الإسلامى لبلاد فارس قد دخل معظمهم فى دين الله أفواجاً ، إلا أنهم احتفظوا بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم وأسلوب معيشتهم فلما أزالت الدولة العباسية الحواجز ، بين عناصر الأمة الإسلامية ، اختلط العرب بالعجم اختلاطاً شديدا ، لا سيما فى المدن الكبرى (كبغداد) و (البصرة) و (الكوفة) وازداد احتكاك بعضهم ببعض بسبب التجاور فى المسكن والتعامل فى الأسواق والاجتماع فى مجالس العلم ، والاشتراك فى سائر الأنشطة الدنيوية الرسمية والشعبية ، وا تزوجوا فوق ذلك كله بالتزاوج وبالتسرى[1] ولما كان للفرس فى هذا المجتمع وزن كبير - لما قدمنا ولأن الدولة حفية بهم ، مقبلة عليهم مجاملة لهم - أقبل العرب حكاماً ومحكومين على تقليدهم فى عاداتهم وأساليب عيشهم ، قلدوهم فى المأكل والمشرب وفى الملبس والزينة ، وفى بناء الدور المزخرفة والقصور العالية واتخاذ الأثاث والرياش الفاخر ، واقتناء التحف والطرف الغالية ، والميل إلى الترف والنعيم وزيادة الاهتمام بالموسيقى والغناء . وبلغ من احتفال العرب بتقليد العجم أن ، احتفلوا بأعياد الفرس القومية كعيدى (النيروز)[2] و (المهرجان)[3].

٤ - (آثار امتزاج العناصر العربية بالأعجمية) :

وكان لهذا الاختلاط والامتزاج مزايا وعيوب : فمن الآثار الحسنة :

١ - شعور عناصر الأمة الإسلامية بالعدالة التامة والمساواة

---

(١) اتخاذ الإماء المملوكات من روميات وفارسيات وتركيات وزنجيات وقد شاع ذلك وكثر حتى فى الخلفاء فكان معظم أمهات الخلفاء منهن فأم الرشيد رومية وأم المأمون فارسية وأم المعتصم تركية .

(٢) النيروز عيد استقبال الربيع (٣) المهرجان عيد وداع الخريف

الحقة وزوال الأحقاد إلا من شذ — وهم قلة — :

٢ — نشأة جيل جديد فيه خصائص الفريقين الجسيمة والعقلية والنفسية ويمتاز بالتفتح وسعة الأفق ، وغزارة الإنتاج .

٣ — بلوغ الحضارة الإسلامية غاية الإبداع والازدهار بتضافر المواهب العربية والأعجمية على بنائها ، فحلقت بجناحين بدلا من جناح واحد .

ومن الآثار السيئة : انتقال بعض الأمراض الاجتماعية التي كانت للعجم إلى المجتمع العباسي ومن ذلك :

١ — الإغراق في اللذات والانغماس في حياة الترف والنعيم وأعانهم على ذلك الرخاء الاقتصادي ، والاستقرار النسبي في عهد خلفاء العصر الأول .

٢ — انتشار اللهو والفجور نتيجة لما سبق ولضعف الوازع الديني عند بعض الناس فكثر شرب الخمر ، وشاع التهتك بالقيان (الجوارى المغنيات) والتغزل بالغلمان ، وقد جاهر بهذا الفساد والمجون كثير من شعراء هذا العصر (كوالبة بن الحباب) و (أبي نواس) و (الحسين بن الضحاك) وقد ظهر رد فعل لموجة التحلل الخلقي هذه في صورة تيار مضاد مصدره أهل الورع في المجتمع وهم كثيرون يدعو إلى الزهد في متع الحياة الدنيا والإقبال على طاعة الله والعمل للآخرة وكان زعيم المعبرين عن هـــذا الاتجاه الشاعر (أبا العتاهية) .

٣ — ظهور نزعة (الشعوبية) عند بعض سلائل العجم ، وهي نزعة تنادي بأفضلية الشعوب الأعجمية على العرب ، وقد أخذ دعاتها يطعنون في العرب كجنس ويحقرونهم كأمة ويلتمسون العيوب والمثالب فيها وينكرون كل فضل لها وكان لهم في ذلك وسائل ومؤلفات وشعر ومن كتابهم (سهل

ابن هارون) و (ابن غريبة) ومن شعرائهم (بشار بن برد) و (أبو نواس) وقد تصدى لهم المخلصون الغيورون من الأدباء وعلى رأسهم (الجاحظ) فرد على شبهاتهم وفند حججهم وألحق بهم هزيمة ساحقة .

٤ ظهور (الزندقة) : وهى حركة لا دينية تنتهى لعقائد بعض قدماء الفرس مثل (مانى) الذى كان يقول بإلهين للنور والظلمة ، و (مزدك) الذى دعا إلى شيوعية فى الأموال والأعراض ، وقد اعتنق هذه الأفكار الضالة بعض ضعفاء الإيمان فى العصر العباسى وأخذوا يروجون لها فى المجتمع وقد عرفوا (بالثنوية) وأول ظهورهم كان فى عهد الخليفة (المهدى) فأبدى لهم فى حزم ، وأمر بتأليف كتب الجدل للرد عليهم ، ثم تتبعهم وأمر بالقبض عليهم واستتابهم ومن لم يتب منهم أمر بقتله ، ولما حضرته الوفاة كان من أهم وصاياه لخليفته (الهادى) أن يستأصل شأفة الزنادقة ويقضى على فتنتهم ، وقد كان لهذه الحركة صداها فى أدب ذلك العصر ورموا بالزندقة من الشعراء (بشار بن برد) و (صالح بن عبد القدوس) و (حماد عجرد) ومن شعر (بشار) يتبرأ من الزندقة ظاهراً فى هجائه لحماد :

أدع غيرى إلى عبادة الاثنين م فإنى بواحد مشغول

يا ابن نهى برئت منك إلى الله م جهاراً وذاك منى قليل

وهذا الشعر يدل على أنه كانت هناك دعوة سرية للزندقة يقوم بها دعاة فى الخفا وأنها كانت تقوم على أساس عقيدة المجوس فى القول بإلهين اثنين فى هذا العالم على أنه كان المجتمع العباسى وجه آخر جاد ملتزم بآداب الدين وفضائل الأخلاق يتمثل فى العلماء والفقهاء وأتباعهم من العامة ، وهم الجم الكثير والعدد الغالب كما يتمثل فى خلفاء بنى العباس ورجال دولتهم ،

فقد كانوا حريصين على إقامة الحدود ومحاربة الفساد ، وكانوا ، يجلدون شارب الخمر ويحبسونه ولو كان من شعرائهم المقربين وما أثر عن بعضهم من الشراب فهو (النبيذ) الذى ترخص فيه أصحاب أبى حنيفة ولم يعدوه من الخمر ، وكانوا يحافظون على فرائض الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد فى سبيل الله ، فهذا (الرشيد) كان يصلى من النوافل فى اليوم مائة ركعة ، وكان يغزو سنة ويحج سنة ، وكانوا يبنون المساجد والمرافق النافعة للأمة ويحصنون الثغور ويتفقدون أحوال الرعية لإنصاف المظلوم ومعونة المحتاج ممن يخفى أمره ، كما كانوا يقدرون العلماء والصلحاء ويقربونهم ويتأثرون بمواعظهم ويعملون بنصائحهم ، وكم بكى (الرشيد) من خشية الله على أثر موعظة وجهت إليه من بعضهم وقد مرت الإشارة إلى تصديهم لأعداء الذين من الزنادقة وأشباههم صيانة لعقيدة الأمة وأخلاقها ، كما كان من محاسنهم تقديرهم لحرمة التقاضى وقدسية القضاء فكثيراً ما كان الخلفاء أو أبناؤهم يمثلون أمام القاضى مع أى خصم من الرعية على قدم المساواة[1] ويخضعون لما يصدره القضاء من أحكام عليهم وكان هذا الالتزام مجالا خصيباً لمدائح الشعراء فيهم وتكريم الأدب لشخصياتهم .

---

(١) حدث هذا مع الرشيد ومع (المأمون) وهما من أعظم خلفائهم

ثالثا : الحياة العلمية والفكرية

ضمت الدولة الإسلامية الواسعة الأرجاء رعايا من كل أجناس البشرية السامية والآريه والحامية ، واختلط العرب فى ظلها - كما قدمنا - بمن سواهم من الشعوب الأعجمية من فرس وروم وترك وسريان ونبط ، ونشأ من امتزاج هذه الشعوب المتعددة - كما أشرنا - جيل جديد يحمل الكثير من الخصائص العقلية والنفسية لهذه الشعوب إلى جانب الخصائص العربية ، وكانت معظم هذه الشعوب قد دخلت فى الإسلام بعد أن فتح العرب المسلمون بلادها ومن أجل ذلك أحبوا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب بهذين السببين المتينين الدين واللغة ، كما كان قد هاجر كثير من العرب إلى هذه البلاد بعد استقرار الفتوح فتأثروا بثقافاتها القديمة ، وحضاراتها السالفة وفى ظل الدولة العباسية نشأت حركة علمية ضخمة وحياة فكرية خصبة استمدت وجودها من نبعين عظيمين هما : (نبع الثقافة العربية الأصيلة) المتمثلة فى علوم الدين الإسلامى ، وعلوم اللسان العربى وما اتصل بهما .

(ونبع الثقافة الأجنبية الدخيلة) المتمثلة فيما ترجم إلى اللغة العربية من علوم اليونان والفرس والهنود وثقافاتها وبعض آدابها ، وقد قامت هذه الحركة العلمية والفكرية الرائعة بتأييد من الخلفاء العباسيين ووزرائهم ونالت الحظ الكبير من عنايتهم وتشجيعهم ورعايتهم ، فأينعت وأثمرت وآتت أكلها ضعفين وكان تأثيرها فى الأدب عظيما وإليكم بعض التفاصيل عنها :

حركة العلوم الأصلية :

١ - أما العلوم العربية الأصيلة :

(أ) ففي الشعبة الشرعية نهضت (علوم القرآن الكريم وتفسيره)، وحسبنا أن ينبغ في هذا العصر إمام المفسرين[1] (محمد بن جرير الطبرى) المتوفى عام ٣١٠ هـ صاحب كتاب (جامع البيان) كما نهض التأليف في (علوم الحديث النبوى الشريف) ويكفى هذا العصر فخراً أن يخرج أصحاب الكتب الصحاح الستة وعلى رأسهم الشيخان (محمد بن إسماعيل البخارى) م ٢٥٦ هـ و (مسلم بن الحجاج) م ٢٦١ هـ أما الأربعة التالون فهم (محمد ابن عيسى الترمذى) ٢٠٩ هـ و (أبو داود السجستانى ٢٧٥ هـ) و (أحمد ابن شعيب النسائى ٣٠٣ هـ) و (محمد بن يزيد ابن ماجه ٣١٣ هـ) - وفى علوم (الفقه والشريعة) ازدهر هذا العصر بالأئمة الأربعة الذين كانوا زينة الدنيا : الإمام (أبو حنيفة النعمان ١٥٠ هـ) ، والامام (مالك بن أنس) ١٧٩ هـ ، والإمام (محمد بن إدريس الشافعى) ٢٠٤ هـ والإمام (أحمد ابن حنبل الشيبانى) ٢٤١ هـ كما ازدهى بالعشرات والمئات من تلاميذهم - وفى هذا العصر ازدهر (علم الكلام) الذى يبحث فى إثبات العقيدة الدينية بالأدلة العقلية والنقلية ، وقد دعت الحاجة إلى ظهور هذا العلم حين أثار بعض المنافقين والزنادقة وأهل الديانات الأخرى شبهات وأباطيل ضد الإسلام متسلحين بالمنطق والفلسفة ، فقام بعض علماء المسلمين للرد عليهم ومجادلتهم وتسلحوا بنفس أسلحتهم ، وكان فرسان هذا المجال المجلون هم (المعتزلة) من أمثال : (عمرو بن عبيد) م ١٤٤ هـ و (أبى الهذيل العلاف) ٢٢٦ هـ و (إبراهيم ابن سيار النظام) ٢٩١ هـ وقد عرف المعتزلة بالفصاحة وعلو مكانتهم الأدبية ومن كبار أدبائهم (الجاحظ) و (أحمد

ابن أبي دؤاد) ومن أشهر علماء الكلام من غير المعتزلة (أبو الحسن الأشعري) م ٣٣٠ هـ . و (أبو منصور الماتريدى ٣٣٢ هـ) .

(ب) وفى الشعبة اللغوية وما يتصل بها نهضت العلوم اللسانية نهضة عظيمة ، فازدهر (النحو) على أيدى علماء مدرستى (البصرة) و (الكوفة) اللتين كانتا معقلين للدراسات اللغوية ثم لحقت بهما مدرسة (بغداد) النحوية ومن أشهر أعلامه فى هـــذا العصر (أبو عمرو بن العلاء) م ١٥٤ هـ (الخليل ابن أحمد) م ١٧٥ وهو مخترع علمى العروض والقافية ومن علماء اللغة والنحو أيضاً فى هذا العصر تلميذا الخليل العظيمان (الأصمعى « ٢١٦ هـ » وسيبويه « ١٧٧ هـ . ثم « الكسائى » ١٨٩ هـ

« والفراء » ٢٠٧ هـ وبدأ التأليف فى « مفردات اللغة ومعانيها » على يد « الخليل » وهو من أفذاذ علماء الأمة فابتكر طريقة المعجم وأحصى ألفاظ اللغة ورتبها على حسب مخارج الحروف ووضع فى ذلك كتاب « العين » وهو أول معجم فى اللغة العربية ، واقتفى أثره « أبو بكر بن دريد » م ٣٢١ هـ . فألف معجمه الذى سماه « الجمهرة » ثم نسج على منوالهما أصحاب المعاجم الكبرى بعد ذلك .

وفى علوم البلاغة ألف « أبو عبيده معمر بن المثنى » م ٢٠٩ هـ كتابه « مجاز » القرآن وهو أول كتابين فى هذا الباب ثم جاء « الجاحظ » م ٢٥٥ هـ فألم ببعض المذاهب البلاغية فى كتابهما : « إعجاز القرآن » و البيان والتبيين » ثم جاء « عبد الله بن المعتز » م ٢٩٦ هـ . فألف هو و « قدامة بن جعفر » كل منهما كتاباً فى أنواع البديع فكان هؤلاء العلماء رواداً لمن جاء بعدهم من علماء البلاغة « وفى فنون الأدب » ، وضع « عبد الله ابن المقفع » كتاب « الدرة اليتيمة » فى طاعة السلطان للخليفة المنصور ، وألف أيضاً كتابى « الأدب الصغير » « والأدب الكبير » وقد نحا فيهما منحى فلسفياً ، وألف

« أبو عبيدة معمر بن المثنى » كتاب « نقائض جرير والفرزدق » و « الشعر والشعراء » وألف الأصمعى كتابة « الأصمعيات » فى الأراجيز ، ومن أشهر كتب الأدب الجامعة « البيان والتبيين » « والحيوان » للجاحظ ، و « المنظوم والمنثور » لأحمد بن طيفور م ٢٨٠ ه فى أربعة عشر مجلداً ، وكتاب « الكامل » لأبى العباس المبرد م ٢٨٥ ه .

و « المفضليات » للمفضل بن محمد الضبى ، وهو مختارات من جيد شعر العرب جمعها بأمر الخليفة « المنصور » ليؤدب بها ولده « المهدى » .

ومن العلوم الإسلامية التى نشأت فى هذا العصر « علم التاريخ » فألف « أبو بكر محمد بن إسحاق » م ١٥١ ه كتابا جامعاً فيه بأمر الخليفة المنصور — ليكون تذكرة لابنه المهدى — وجعل أوله بدء الخليفة وآخره أيام المنصور متضمناً فى أثنائه السيرة النبوية الشريفة بعناية وتفصيل دقيق ، ثم اختصر « ابن إسحاق كتابه هذا لطوله الشديد ، وهذا الكتاب أصل كتاب » سيرة ابن هشام « المشهور وألف محمد بن عمر الواقدى ٢٠٧ ه : « كتابه » فتوح البلدان » وألف « ابن سعد الزهرى » ٢٣٠ ه فى طبقات الرجال وتراجمهم و « أبو نصر الكلبى » ٢٠٦ ه فى الأنساب ، ثم جاء عمدة المؤرخين « محمد ابن جرير الطبرى فألف سفره الكبير فى التاريخ وسماه « تاريخ الأمم والملوك » فى ثلاثة عشر مجلداً الذى نهج على نهجه معظم المؤرخين من بعده . كذلك اهتموا « بعلم الجغرافية » وخاصة ما تعلق منها بوصف البلاد والأقطار ورسم الخرائط لها ، وهى الجغرافية الوصفية وكانوا يسمونها « علم تقويم البلدان » وهو أمر طبعى بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية وترامت أطرافها من الصين والهند شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلسى غرباً ، ثم نبغوا فى الجغرافية الفلكية بعد أن ترجموا بعض كتبها عن الهند واليونان فى عصرى المنصور والمأمون فصححوا أخطاء الأقدمين وحققوا منذ زمن المأمون

كروية الأرض ومحيطها ودرجاتها وعلاقتها بغيرها من الكواكب ومن أشهر من ألف في الجغرافية أواخر العصر الأول «عبد الله بن خرداذبه» صاحب كتاب «المسالك والممالك».

ومن الجدير بالملاحظة أن رجال هذه النهضة في العلوم العربية الأصيلة هم مزيج من العرب ومن العجم والمستعربين الذين أخلصوا للإسلام وللغة القرآن الكريم، وأن هذا المزيج الطيب من العلماء الأعلام، قادوا هذه الحركة المباركة، ونهضوا ببعثها في تعاون وتآلف كاملين وتجرد وإخلاص نادرين.

العلوم الأجنبية ونهضة الترجمة :

٢ — «وأما العلوم الأجنبية الدخيلة» التي ترجمت في هذا العصر إلى اللغة العربية فهي كثيرة وسنوجز الحديث عنها، وقد عني خلفاء بني العباس بالترجمة فشجعوها وأثابوا عليها ووظفوا لها رجالا من أولى العلم والنبوغ والمعرفة باللغات الأخرى من المسلمين وغير المسلمين وكان منهم عرب ومنهم عناصر فارسية الأصل وأخرى رومية وهندية وسريانية، وأول من نهض بالترجمة من خلفاء بني العباس «المنصور» ثم «الرشيد» وبلغت عصرها الذهبي في عصر «المأمون» وكان أغلب الترجمة في عهد المنصور عن اللغة الفارسية ويشمل ذلك ثقافتها الفارسيه الأصيلة ومعارف يونانية وهندية كانت قد ترجمت إليها، فترجم «عبد الله بن المقفع عنها كثيراً من كتب السياسة وتدبير الملك وسير الملوك ومن ذلك كتاب «كليلة ودمنة» المشهور وكان الفرس قد ترجموه عن الهندية وهو من أنفس الكتب وأجلها فائدة للعالم والجاهل، والحاكم والرعية وترجم ابن المقفع كتباً أخرى يونانية

كانت قــد نقلت إلى الفارسية وترجم المنصور «جرجس بن بختيشوع» الطبيب السريانى كتب «أبقراط» اليونانى فى الطب وترجم له «يحيى بن سرجون الدمشقى» كتاب «الترياق لجالينوس» الطبيب وكتاب «الماجسطى» فى الفلك وترجم فى عهده «محمد بن إبراهيم الفزارى» كتاب «السندهند» أى «الدهر الداهر» فى الفلك عن اللغة الهندية، وفترت الترجمة بعد المنصور لكنها لم تلبث أن نشطت فى عصر الرشيد بتشجيع منه ومن وزرائه «البرامكة» ولكنها نفرت نفرتها الكبرى فى عصر ولده «المأمون» وكان معظمها عن اليونانية وإنه لم يكتف بالجهود الفردية بل أرسل البعوث إلى «القسطنطينية» عاصمة الدولة البيزنطية وارثة علوم اليونان للاطلاع على ذخائر الفكر اليونانى هناك ونقل ما يرونه نافعاً منها إلى اللغة العربية فقامت هذه البعوث بمهمتها خير قيام وترجموا الجم الواقر من كتب اليونان فى الرضايات والفلك والفلسفة والموسيقى والطب وجعلوها فى متناول الباحثين والمتعلمين، ومن حسنات المأمون الخالدة أنه أنشأ «بيت الحكمة» الحكمة» وهى دار كتب عامة لنشر الثقافة بين الناس فى غاية الضخامة والتنظيم أنفق عليها الأموال الطائلة وعين لها المشرفين من جلة العلماء، وجعل فيها قسماً خاصاً للترجمة والمترجمين وجعل لهم مؤتمراً أسبوعياً يعرضون فيه ما أنجزوا على علماء اللغة حتى يأتى ما ترجم صحيح العبارة سليما من الأخطاء كما كان يعقد لهم مجالس خاصة للمناظرة والبحث فى شتى النظريات والمسائل يشترك فيها بنفسه وكان من نتائج هذه الحركة النشطة أن نشأت طائفة من العلماء المسلمين حذقوا هذه العلوم وطوروها وأضافوا إليها الجديد من مبتكراتهم بعد أن صححوا ما فيها من أخطاء ومن أشهرهم :

الأخوة الثلاثة محمد وأحمد والحسن بنو (موسى بن شاكر) الذين نبغوا في الرياضيات وكانوا أول المخترعين في الهندسة والكيمياء والميكانيكا والإمام (محمد بن موسى الخوارزمي) واضع علم (الجبر) أو مذيع الحساب الهندي وأرقامه وفيلسوف العرب والإسلام (أبو يوسف يعقوب الكندي) الذي بلغت آثاره أكثر من مائتي كتاب ما بين مؤلف ومترجم ، والطبيب الكيميائي الأكبر (أبو بكر الرازي) ٣١٠ هـ . صاحب كتاب (الحاوي) في الطب وعشرات الكتب الأخرى و (أبو نصر محمد الفارابي) من أكبر فلاسفة الإسلام والملقب لعظم منزلته في الفلسفة (بالمعلم الثاني)[1] م ٣٣٩ هـ وكان بارعاً ومبتكراً في علم (الموسيقا) وغير هؤلاء كثير .

ومما هو جدير بالتنبيه إليه أن حركة الترجمة الإسلامية هذه كانت بمثابة إحياء وإنقاذ للثقافات الإنسانية القديمة ، حفظتها من الضياع والاندثار ، فضلا عن تحقيقها وشرحها والإضافة إليها ، وكانت سبباً في وصولها بعد ذلك بقرون كثيرة - في صورتها الجديدة المكتملة - إلى أوربا ، حيث لم يعرفها الأوربيون إلا عن طريق ترجماتها العربية ، وانتفعوا بها في بناء حضارتهم الحديثة إلى جانب ما استفادوه من نتاج قرائح علماء المسلمين .

وفي ختام حديثنا عن الحياة العلمية والفكرية ينبغي أن نضم إلى ما سبق في أسباب ازدهار هذه الحياة وخصبها وقوتها عاملين هامين :

(أولهما : تشجيع الخلفاء العباسيين على طلب العلم وتحصيله ويكفينا مثال واحد فقد روى المؤرخين عن (الرشيد) أنه أمر بدفع الرواتب السخية

(١) المعلم الأول في عرف الفلاسفة هو (أرسطو) .

لمن ينتظمون فى دراسة العلم منذ الصغر فكان الصبى فى عهده يحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمانى سنوات ويحصل (علم الفقه) وهو ابن أحد عشر عاماً .

(وثانيهما) : ماقامت به (المكتبات العامة) من دور عظيم فى نشر الثقافة العامة والمتخصصة وتيسير العلم والمعرفة لجميع طبقات الأمة فقد كان فى « مكتبة بغداد العامة »[1] ملايين المجلدات فى شتى العلوم والفنون فى وقت لم تكن فيه « مطبعة » بل كان الاعتماد على النسخ باليد ، هذا عدا ما كان فى قصور الخلفاء والوزرا والعلماء والكبراء من مكتبات عظيمة زاخرة بالآلاف المؤلفة من نفائس الكتب وبدائع المؤلفات .

ومن الجدير بالذكر أن الحركة العلمية بوجه عام كان مقرها المساجد الكبيرة فى « بغداد » وغيرها من المدن والحواضر فكانت تموج - فى غير أوقات الصلاة - بالدارسين وحلقات العلماء الجهابذة فى كل علم وفن ، حيث تلقى الدروس ، وتدور المساجلات والمناقشات فى جو علمى يتميز بحب الحقيقة وحرية البحث وأدب المناظرة واحترام الرأى والاحتكام إلى العقل وإلى الحجة والدليل وكل حلقة منها فى النحو أو الفقه أو التفسير أو علم الكلام اشبه بخلية النحل فى نشاط دائم ، وحركة دائبة هذا إلى جانب المجالس

---

(١) ومن أسف أن المسلمين - بل العالمين - فجعوا فيها ضمن فجيعتهم الكبرى حين دخل « هولاكو » طاغية التتار بغداد عام ٦٥٦ هـ . حيث أمر بالقاء كتبها فى نهر « دجلة » فسدت عرض النهر ، وعبرت عليها الجنود التترية من شاطىء إلى شاطىء (غير ما أحرقوه وهـذا كاف فى بيان ضخامتها الهائلة .

الخاصة التى كان يعقدها الخلفاء فى قصورهم للمناظرة فى شتى العلوم ويدعون إليها كبار العلماء ، ويحضرونها بأنفسهم ويشاركون فى المناقشة بآرائهم - فكثير منهم كان على قدم فى العلم والأدب والفلسفة كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون - وكانوا يغدقون العطايا والجوائز - على المجيدين تشجيعا وتقديراً ، فكان ذلك مدعاة المنافسة ، وحافزاً على الإتقان والتفوق .

« الباب الثــانى »

الشعر فى هذا العصر : ملامحه . أسباب نهضته . أعلامـــه . تطوره

تميز الشعر فى هذا العصر بازدهار كبير ، ورواج عظيم وتسلم العراق لواء الشعر فأعزه وأغلاه ، وحمل تاجه وصولجانه عن جدارة ، وأصبحت « بغداد » قبلة الشعراء ، وكعبة أرباب القريض ، وصار الشعر يجرى على ألسنة الخاصة والعامة فرضاً أو استشهاداً فهو جزء من حياة الناس لا يستغنون عنه ، ولا يطيب عيشهم إلا به .

(أهم ملامح شعر هذا العصر) :

«١» جمعه بين المتانة التقليدية والرقة الحضارية فى أسلوبه ونسجه .

«٢» تعبيره عن واقع الحياة الجديدة ، وتصويره لكل مظاهرها .

«٣» اتساع آفاقه وتشعب أغراضه وبخاصة إذا قيس بشعر الأقدمين .

«٤» نزوعه إلى التجديد والابتكار فى معانية وأخيلته وموسيقاه .

«٥» إنتقال زعامتـــه إلى شعراء المدن « كبغداد » و « البصرة » و « الكوفة » الذين تفوا وتفوقوا على شعراء البادية « فبشار بن برد » و « أبو نواس » بصريان ، و « أبو العتاهية » و « مسلم بن الوليد » و « دعبل الخزاعى » كوفيون ، و « عبد الله بن المعتز » و « ابن الرومى » و « على بن جبلة » بغداديون وغير هؤلاء كثير .

« أسباب نهضة الشعر » :

١ - تقدير الخلفاء العباسيين للشعر ، وحبهم الاستماع إليه واهتزازهم

لروائعه . فقد كانوا عرباً يتذوقون الشعر ويروونه فى شتى المناسبات تمثلا أو مذاكرة ولهم بصر يجيده ورديئه ، لما أوتوا من سلامة الفطرة ، وكمال التأدب فى الصغر وحسن التخرج على أئمة اللغة والأدب فى عصرهم[1] ، وقد كان هؤلاء الخلفاء يعقدون للشعراء مجالس خاصة فى أوقات معينة ، لعرض نتاجهم ، وإنشاد قصائدهم فكانت هذه المجالس أشبه بالمباريات الأدبية يجتهد كل شاعر ليفوز فيها ، ويظهر موهبته الشعرية ، وتفوقه على نظرائه .

٢ — تكريم الخلفاء العباسيين — ورجال دولتهم — للشعراء المجيدين وقد اتخذ هذا التكريم صوراً شتى منها :

(ا) الجوائز المالية السنية التى بلغت فى أحيان كثيرة حدا خيالياً ، فقد أورد (أبو الفرج الأصبهانى) فى كتابه (الأغانى) أن الشاعر (مروان ابن أبى حفصة) مدح الخليفة المهدى بقصيدة من عيون الشعر وهى التى يقول فى مطلعها :

طرقتك زائرة ، فحى خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها

ويقول فيها : أحيا أمير المؤمنين محمد سنن النبى حرامها وحلالها

ملك تفرع نبعه من هاشم مد الإله على الأنام ظلالها

جبل لأمته تلوذ بركنه وادى جبال عدوها فأزالها ..

.. وهى طويلة فطرب المهدى إعجاباً بها وسأله كم هى ؟ قال : مائة بيت فأمر له بكل بيت ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر

---

(1) وكان كثير منهم يقرض الشعر على قلة ومنهم شاعر عظيم هو (عبد الله بن المعتز)

فى أيام بنى العباس ، ثم يقول (الأصفهانى) وهكذا فعل معه (الرشيد) لما أنشده قصدته التى يقول فيها :

لعمرك ما أنسى غداة (المحصب) إشارة « سلمى » بالبنان المخضب
وقد صــــدر الحجاج إلا أقلهم مصادر شتى موكباً بعد موكب

«ب» منح الشاعر المجيد فوق ذلك شرف منادمة الخليفة حضور مجالس أنسه وسروره « ومرتبة الصداقة فتكون منزلته مع الوزراء وكبار رجال الدولة ، فكذلك كان حال الشاعر « البحترى » مع الخليفة المتوكل على سبيل المثال .

«ج» إسناد بعض مناصب الدولة إلى الشاعر المبدع ، فقد ولى الخليفة « المعتصم » ولاية بريد « الموصل » الشاعر « أبا تمام الطائى » ، وولى « الفضل ابن سهل » وزير المأمون الشاعر « مسلم بن الوليد » بريد « جرجان » .

٣ - إهتمام علماء اللغة والأدب بنقد الشعر والشعراء ، والإشادة بالجيد الرائع من نتاجهم والإزراء بالساقط الردىء فكان اللغويون وعلماء الأدب من أمثال «الأصمعى» و « أبى عبيدة » قضاة الشعر وصيارفته وكانوا يوازنون بين الشعر العباسى وشعر الأقدميين ، وكان الشعراء يحتكمون إليهم عند المنافسة ، ويقبلون أحكامهم وتوجيهاتهم ، ويسعون إلى إرضائهم بتنقيح أشعارهم قبل إعلانها على الناس .

وقد جمع فريق من علماء اللغة والأدب مختارات من الشعر القديم ليجعلوا منها زاداً للشعراء المحدثين وأمثلة تحتـــذى « كالمفضليات » و « الأصمعيات » التى سبقت الإشارة إليها ، بل فعل ذلك أيضاً بعض كبار الشعراء « كأبى تمام » ، و « البحترى » فى « حماسيتهما » « ديوان الحماسة من جمع أبى تمام » و « ديوان الحماسة من جمع البحترى » .

٤ إغتراف الشعراء من ثقافة عصرهم الواسعة ، وعلومه الجمة ما بين أصيلة ووافدة ، وقد بلغ بعضهم مرتبة التبريز والنبوغ فى علوم كثيرة ، وهذا رفع من مستوياتهم ، ورقى بمعانيهم وأفكارهم ،

٥ – نهضة فن الغناء فى هذا العصر نهضة كبرى ، وبلوغه ذروة الارتقاء وكانت مادته من شعر الأقدمين فى أول الأمر . ثم اتخذها الملحنون والمغنون من شعر المحدثين ، فكان هذا تشجيعاً للشعراء على نظم المقطوعات الغزلية الرقيقة المناسبة لهذا الفن وحافزاً على الإبداع لأن الشاعر كان يسعده أن يغنى بشعره ، ويجد ذلك وسيلة من وسائل الشهرة ، وهكذا وجد ميدان جديد للمنافسة بين الشعراء .

(أعلام الشعر فى العصر العباسى الأول وطبقاتهم) .

أنجب هذا العصر نخبة ممتازة من شعراء العربية لا يكادون يحصون لكثرتهم وقد صنفهم مؤرخو الأدب على طبقات نذكرها ونجتزى من كل طبقة بأبرز رجالها :

١ طبقة « بشار » من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية وأشهر شعرائها :

« بشار بن برد » وحماد عجرد ، وصالح بن عبد القدوس ومروان بن أبى حفصة والسيد الحميرى وأبو دلامة .

٢ – طبقة « أبى نواس » التى نشأت فى صدر الدولة العباسية وأشهر شعرائها :

الحسن بن هانىء ، « أبو نواس » ومسلم بن الوليد وسلم الخاسر والحسين ابن الضحاك وأبو العتاهية ، والعباس بن الأحنف وأشجع السلمى ، وأبان اللاحقى .

٣ - طبقة (أبى تمام) التى نشأت فى أواسط العصر الأول وأشهر شعرائها .

أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، و (دعبل) الخزاعى وديك الجن الحمصى وعلى بن الجهم ،

٤ - طبقة (البحترى) التى نشأت أواخرالعصر الأول وأشهر شعرائها :

أبو عبادة البحترى وابن الرومى وابن المعتز والبسامى (أما عن الشاعرات) فى العصر العباسى الأول فهن كثيرات وأغلبهن من الجوارى المغنيات فى قصور الخلفاء والوصيفات اللاتى كن على مستوى رفيع من الأدب والذكاء والحذق لكثير من الفنون ومن أشهر من عرف منهن بقرض الشعر (فضل) و (محبوبة) جاريتا الخليفة (المتوكل) ومن غير الجوارى (علية) بنت الخليفة (المهدى) وأخت (هارون الرشيد) و (الحجناء) ابنة الشاعر (نصيب) مولى المهدى .

« تطور الشعر فى هذا العصر »

اتخذ الشعر فى عصر بنى العباس الأول طريقه إلى التطور السريع والتجديد الواضح وإليكم بعض نواحى هذا التطور ومظاهره مع ذكر النماذج والأمثلة :

أولا : التطور فى الأغراض : تناول الشعر العباسى (الأغراض القديمة) من مدح وهجاء وغزل ووصف .. الخ ولكنه طبعها بطابع عصره وحاول أن يجدد فيها على ما سنرى كما تناول (أغراضاً جديدة) لم تكن موجودة فى الشعر القديم واستحدثها هذا العصر (فن الأغراض القديمة) .

١ الشعر السياسى : وقد اتخذ فى هذا العصر اتجاهات عدة : فاتجه أولا إلى تأييد الدعوة إلى بنى هاشم وقيام الدولة العباسية والتحريض على إبادة الأمويين الغاصبين الطاغين ويتميز هنا بحدة العاطفة والدعوه الصريحة إلى الانتقام وسفك الدماء ومن أمثلته قول الشاعر (سديف بن ميمون)[1] مولى بنى هاشم يخاطب الخليفة (السفاح) بعد أن استتب له الأمر مهنئاً :

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
بالصدور المقدمين قديماً ... والرءوس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ... ويا رأس منتهى كل راس
أنت مهدى هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد إياس

ثم يحرضه على بنى أمية :

لا تقيلن (عبد شمس) عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس
واذكرن مصرع (الحسين) وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس
والإمام الذى بحران أمسى ... رهن قبر فى غربة وتناس
فلقد ساءنى وساء سوائى ... قربهم من نمارق وكراسى

---

(١) وتروى هذه الأبيات (لشبل بن عبد الله) واخترنا مافى (الأغانى) راجع مهذب الأغانى للشيخ محمد الخضرى ج ٩ .

ومن شعره أيضاً فى هذا المعنى يحرضه :

يا ابن عم النبى أنت ضياء　　استبنابك اليقين الجليـــا
جرد السيف وارفع العفو حتى　　لا ترى فوق ظهرها أموياً
لا يغرنك ما ترى من رجال　　إن تحت الضلوع داء دوياً

٢ — وإلى تصوير النزاع بين أبناء البيت العباسى وبخاصة حول ولاية العهد ، ومن ذلك قول (عيسى بن موسى) العباسى ولى عهد المنصور حين أرغمه هذا على التنازل عن ولاية العهد لابنه (المهدى) وهو شعر ينبىء عن الحيرة والأسف لغدر المنصور به :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما　　إما صغار ، وإما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أساجلهم　　كأس المنية لولا الله والرحم
ولو فعلت لزالت عنهمو نعم　　بكفر أمثالها تستنزل النقم

ومما قاله الشاعر (ابن البواب) إثر قتل (الأمين) بعد الفتنة السياسية التى كانت بينه وبين أخيه (المأمون) :

أعينى جودا وابكيا لى (محمدا)　　ولا تذخرا دمعا عليه وأسعدا
فلا فرح (المأمون) بالملك بعده　　ولا زال فى الدنيا طريداً مشرداً

وقال فى ذلك الشاعر : (الحسين بن الضحاك) مخاطبا الأمين :

هـــلا بقيت لسد فاقتنا　　أبداً وكان لغيرك التلف ؟ !
فلقد خلفت خلائفاً سلفا　　ولسوف يعوز بعدك الخلف

٣ - ودخل الشعر السياسى فى الخلاف بين العباسيين وبنى عمهم الطالبيين حول الخلافة وأى البيتين الهاشميين أحق بها وعلى الرغم من أن

السيف قد حكم فى هذه القضية لصالح العباسيين الا أن الشعراء قد انحاز منهم بالرأى والاحتجاج فريق لهؤلاء وفريق لهؤلاء. فما قاله (مروان بن أبى حفصة) منتصرا للعباسيين:

أنا ابن الذى ورث النبى محمدا … دون الأقارب من بنى الأرحام

الوحى بين بنى البنات وبينكم … قطع الخصام فلات حين خصام

ألغى سهامهم الكتاب فحالهم … أن يشرعوا فيه بغير سهام

أنى يكون وليس ذاك بكائن … لبنى البنات وراثة الأعمام؟!

فرد عليه شاعر من أنصار آل على بن أبى طالب (وهو محمد بن يحيى التغلبى) بقوله:

لم لا يكون وإن ذاك لكائن … لبنى البنات وراثة الأعمام؟!

للبنت نصف كامل فى ماله … والعم متروك بغير سهام

وحين عظم اضطهاد العباسيين للعلويين قال (دعبل الخزاعى) يصف ذلك ويندد به ويهجو الرشيد:

قتل وأسر وتحريق ومنهبة … فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

أرى أمية معذورين إن قتلوا … ولا أرى لبنى العباس من عذر

قبران فى (طوس[1]) خير الناس كلهم … وقبر شرهم هذا من العبر!!

يعنى قبر «موسى الكاظم» من آل البيت وقبر «هارون الرشيد».

---

(١) [illegible] قريبة من [illegible]

ولدعبل أيضاً فى آل البيت رائعته المشهورة يبكى شهداءهم ويشرح لما أصابهم :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذى الثفنات[1]

وهى طويلة تجدها بتمامها فى كتاب (الأغانى) الأصفهانى .

٤ — وصور الشعر ما قام به خلفاء بنى العباس من واجب الجهاد فى سبيل الله وتجهيز الجيوش وتسييرها ذياداً عن حدود الدولة الإسلامية المترامية الأطراف وصد كل من تسول له نفسه العدوان على هذه الحدود ووصف ما قاموا به من غزوات كثيرة ، وما أحرزوه من انتصارات باهرة فى هذا الميدان وبخاصة على دولة الروم — وهى العدو التقليدى للدولة الإسلامية فى ذلك العصر . ومن ذلك قول (مروان بن أبى حفصه) فى حصار الرشيد (القسطنطينية) وفرض الجزية على الرومان :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلى قدورها

ولما نقض الروم المعاهدة التى كانت بينهم وبين الرشيد وتحداه ملكهم

---

(١) الثفنات جمع ثفنة (بكسر الفاء) وهى من الرجل الركبة ومجتمع الساق والفخذين والمراد بها هنا ما يتركه السجود من أثر فى هذه المواضع من الجسم .

(نقفور) سار إليهم الرشيد وأسقط مدينة من أعز مدنهم وهى (هرقلة) وفى ذلك يقول الشاعر :

هوت (هرقلة) لما أن رأت عجباً　　جزائماً ترتمى بالنفط والنار
كأن نيراننا فى جنب قلعتهم　　مصبغات على أرسان قصار[1]

وفى شأن نقض ملك الروم للعهد يقول الشاعر أيضاً وهو « الحجاج » ابن يوسف التميمى « مخاطباً » الرشيد » :

نقض الذى أعطيته «نقفور»　　فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه　　غنم أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى　　بالنقض منه وافد وبشير
أعطاك جزيته وطأطأ خده　　حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها　　بأكفنا شعل الضرام تطير
«نقفور» إنك حين تغدو إن نأى　　عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت؟　　هبلتك أمك ماظننت غرور !!
ألقاك حينك فى زواخر بحره　　فطبت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك[2] قادر　　قربت ديارك أم نأت بك دور

وفى عهد الخليفه المعتصم جدد الروم اعتداءهم على الحدود الإسلامية وخربوا مدينة « زبطرة » فسار إليهم المعتصم بجيش عظيم فاتحاً مدينتى « أنقرة » و « عمورية » وفى ذلك قال الشاعر « أبو تمام الطائى » بائيته المشهورة التى مطلعها :

---

(١) مصبغات : الثياب المصبوغة ، والأرسان الحبال ، والقصار : الصباغ .
(٢) اقتسارك : أخذك قسراً ، واقتداراً .

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

ومنها : فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة (عمورية) انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب

ومنها :

جرى لها الفأل نحسا يوم (أنقرة) ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

جرى لها الفأل نحسا يوم (أنقرة) ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

وفي ختامها يقول :

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة وذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها ... وبين أيام « بدر » أقرب النسب
أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهمو ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

٥ - « الصراع مع الخوارج » :

كما تناول الشعر معارك الجيوش العباسية مع طوائف « الخوارج » الثائرين على الدولة الذين نقموا منها كما نقموا من سابقتها ، استبداد الخلفاء بالأمور وظلمهم الرعية وتحويلهم الخلافة إلى ملك عضوض ، فرفعوا راية العصيان عانية صلبة في كثير من النواحي ومنهم « الوليد بن طريف الشاري الشيباني » الذي خرج في الجزيرة أيام الرشيد ووجه هذا إليه قائده العظيم « يزيد بن مزيد الشيباني » الذي دعاه إلى المبارزة فأجاب الوليد وكان بطلا صنديداً وخرج إلى عدوه وهو يقول :

أنا الوليد بن طريف الشاري ... قسورة لا يصطلى بناري
جوركمو أخرجني من داري

وتنجلى المعركة عن قتل الوليد(١) وانتصار يزيد قائد الرشيد فيصور الشاعر « مسلم بن الوليد » ذلك إذ يقول :

سد الثغور « يزيد » بعدما انفرجت ... بقائم السيف لا بالختل والحيل
كم قد أذاق حمام الموت من بطل ... حامى الحقيقة لا يؤتى من الوهل (٢)
يغشى الوغى وشهاب الحرب فى يده ... يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
موف على مهج فى يوم ذى رهج(٣) ... كأنه أجل يسعى إلى أمل .

٦ — تدخل العنصر التركى فى سياسة الدولة وسيطرته على الخلافة :
ولما استكثر « المعتصم » من جنود الأتراك وغلبوا على الجيش وطغوا وآذوا الناس عبر الشعر عن سخطهم فى قول الشاعر « دعبل الخزاعى » يهجوا المعتصم لذلك ويهجو وزيره « الفضل بن مروان » ويندد بالأتراك :

بكى لشتات الدين مكتئب صب ... وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام إمام لم يكن ذا هداية ... فليس له دين وليس له لب
ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة ... ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف فى العد سبعة ... خيار إذا عدوا وثامنهم كلب !!
وإنى لأعلى كلبهم عنك رفعة ... لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم ... « وصيف(٤) » و « أشناس(٥) » وقد عظم الخطب

---

(١) ورثته أخته بالقصيدة المشهورة التى مطلعها :
أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف !!
(٢) الفزع (٣) غبار .
(٤) ، (٥) قائدان من زعماء الأتراك فى عهد المعتصم

و (فضل بن مروان) سيثلم ثلمة   يظل لها الإسلام ليس له شعب

٢ — شعر العصبية : قدمنا أن نزعة « الشعوبية » ظهرت فى ذلك العصر وكان مبدؤها تفضيل العجم على العرب فى كل شىء وتحقير شأن العرب ما استطاعوا وجرى ذلك على ألسنة الشعراء الذين هم من أصل أعجمى ومن هؤلاء « بشار » الذى قال يتبرأ من ولائه للعرب[1] :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم   مولى العريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك أكرم من تميم كلها   أهل الفعال ، ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع   سبحان مولاك الأجل الأكبر

وقال يفتخر بأصله العجمى :

ألا أيها السائلى جاهلا   ليعرفنى ? أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر   فروعى ، وأصلى قريش العجم

وقال يرد على أعرابى تنقص الموالى أمام أحد الرؤساء فى حضور بشار :

سأخبر فاخر الأعراب عنى   وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزاً   ونادمت الكرام على العقار
تفاخر ياابن راعية وراع   بنى الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح   شركت الكلب فى ولغ الإطار
تريغ بخطبة كسر الموالى   وينسيك المكارم صيد فار !! . الخ

ومنهم : « أبو نواس » الذى يقول مفضلا ذوق العجم على ذوق العرب :

---

(١) كان ولاء بشار فى بنى عقيل .

فاسقنيهـا وغن صـو ... تاً لك الخير أعجمـا
ليس فى نعت دمنـة ... لا ولا زجر أشأمـا

ومن قوله يفتخر بآبائه الفرس ويتعصب لتراثهم ويحقر تراث العرب :

مسارحها الغربى من نهر صرصر ... فقطربل فالصالحيـة فالعقر
تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن ... مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

ولما قتل الخليفة المتوكل قال الشاعر (يزيد بن المهلبى) يعيب على بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الأعاجم :

لما اعتقدتم أناساً لا حلوم لهم ... ضعتم وضيعتمو من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم ... والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهمو ... بغير قحطان لم يبرح به أود
أضحى شهيد بنى العباس موعظة ... لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحد ... ولم يضع مثله روح ولا جسد
قد وتر الناس طراثم قد صمتوا ... حتى كأن الذى نيلوا به رشد

كما عبر الشعر عن العصبيات التى نشأت بسبب تعدد الفرق فى داخل المجتمع الإسلامى كالمعتزلة وأهل السنة والرافضة والزنادقة ، وربما وجدت العصبية بين أرباب العلوم المختلفة بسبب اختلاف وجهات النظر وانقسامهم إلى مدارس متشعبة فمما نسب إلى (الأصمعى) قوله يهجو (البرامكة) وكانوا متهمين بالشعوبية وباحتضان الزنادقة[1] .

---

(١) راجع كتاب (الأصمعى) للدكتور أحمد كمال زكى مطبعة مصر من سلسلة أعلام العرب .

إذا ذكر الشرك فى مجلس ... أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عنــدهم آية ... أتوا بالأحاديث عن (مزدك)

ومما قاله الشاعر (على بن الجهم) فى هجاء (الرافضــة) وهى فرقة من الشيعــة :

ورافضة تقول بشعب رضوى ... إمام ، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفا ... من الأتراك مشرعة السهام !!

ومما قاله يهجو (المعتزلة) فى شخص داعيتهم (أحمــد بن أبى داؤد)

يا أحمد بن أبى دؤاد دعــوة ... بعثت إليك جنادلا وحديدا
ما هــذه البـدع التى سميتهـا ... بالجهل منك (العدل والتوحيدا) ؟!
أفسدت أمر الدين حين وليته ... ورميتــه بأبى الوليـد وليدا

ومن قوله أيضاً شامتاً بمرضه ذاكراً بطشه بأهل (الحديث) :

لم يبق منك سوى خيالك لامعاً ... فوق الفراش ممهــداً بوساد
فرحت بمصرعك البرية كلهـا ... من كان منهم موقنا بمعاد
كم مجلس لله قد عطلتــه ... كى لا يحدث فيــه بالإسناد
ولــكم مصابيــح لنا أطفأتهـا ... حتى تزول عن الطريق الهادى
ولـكم كريمــة معشر أرملتها ... ومحدث[1] أوثقت فى الأقياد
فذق الهوان معجلا ومؤجــلا ... والله رب العرش بالمرصاد.. الخ

٣ — المــدح : لم يزل حتى ذلك العصر من أبرز أغراض الشعراء كيف

---

(١) لعله يشير إلى الإمام أحمــد بن حنبــل الذى حبس واضطهد فى ذلك العصر .

لأ وهو وسيلتهم إلى كسب قلوب الخلفاء والرؤساء وسبيلهم إلى الغنى واليسار إذا وفقوا فيه وقد تأثر في هـذا العصر بما غاب عليه من التأثير الفارسى وكان الفرس يعظمون ملوكهم لدرجـة التقديس - فدخل التهويل والتفخيم فى صفات الممدوح لدرجة لم تكن مألوفة عند العرب من قبل ومن ذلك قولى أبى منصور النمرى فى مدح الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية   أحلك الله منهـا حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعـه   ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصماً   فليس بالصوات الخمس ينتفع !

٤ - الهجـاء : وقد كثر فى هذا العصر وتفنن فيه معظم الشعراء لما كان بينهم من تنافس وتحاسد ولـكثرة الشيـع والأحزاب ، وتمـيز كثير منه بالإقذاع والإفحاش وتجسيم العيوب والمثالب كما فى تهاجى (بشار) و (حماد عجرد) ولم يتورعوا عن هجاء الوزراء ، والخلفاء وغمزهم بأقبـح النعوت مما كان سبباً فى هلاك بعضهم كما حدث لبشار حين هجا (المهدى) بقوله

بنى أمية هبوا طـال نومـكمو   إن الخليفة (يعقوب بن داود)
ضاعت خلافتكم ، قوم فالتمسوا   خليفة الله بين الناى والعود

وله فيه هجاء أشنع من ذلك .

ومما هجا به (دعبل الخزاعى) الخليفة المـأمون قوله :

إنى من القوم الذين سيوفهم   قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعـد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

ومما هجابه (حماد عجرد) بشارا قوله :

ألا من مبلغ عنى الذى والده برد

إذا ما نسب النـاس   فلا قبل ولا بعـد

وأعمى قطلبـان ما   على قاذفه حـــد

وأعمى يشبـه القرد   إذا ما عمى القـــرد

ه الرثـاء : وبرز شعراء هـذا العصر فى الرثاء وتفوقوا فيه على سابقيهم بجودة المعانى وعمقها ورصانة التعبير وقوة الأداء ، واستقصاء محاسن المرثى وتجسيمها والمبالغة فيها والقدرة على استثارة العاطفة وإلهابها ومن برز فى هذا الغرض (ابن الرومى) و (أبو تمام) وقصيدته فى رثاء (محمد ابن حميد الطوسى) التى يقول فى مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر ...

من عيون الشعر[1] وهى خير مثال على روعـة الرثاء فى هذا العصر وسمو آفاقه

ومن الرثاء الرائع كذلك قول (محمد بن عبد الملك الزيات) يرثى أم ابنه (عمرو) وقد تركته صغيراً :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه   بعيد الكرى عيناه تنسكبان ؟!

وبات وحيداً فى الفراش تجنه   بلابل قلب دائم الخفقان

---

(١) ... [illegible]

فلا تلحيانى إن بكيت فإنما   أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهذى عزمت الصبر عنها لأننى   جليد، فمن بالصبر لا بن ثمان ؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة
ولا يأتسى بالناس فى الحدثان
أعينى إن لم تسعدا اليوم عبرتى   فبئس إذن ما فى غد تعدانى

وقد سلك بعضهم بالرثاء فى أواخر العصر مسلكا جديداً لم يكن مألوفاً من قبل برثائه الحيوان وهو اتجاه رمزى غالباً كما فعل الشاعر ابن العلاف النهروانى فى رثاء قط له قتله جيرانه[1] : ويرى «ابن خلكان» أن الشاعر كان يقصد به رثاء صديقه «ابن المعتز». الذى كان قتله مأساة مروعة بعد تولية الخلافة بيوم واحد، ولم يستطع الشاعر رثائه خوفاً من السلطة القائمة وأنصارها وهم الذى قتلوا ابن المعتز.

٦ — الوصف : وقد أبدعوا فيه أيما إبداع، وتفوقوا غاية التفوق لاتساع حضارتهم وتنوع المشاهد والموصوفات أمامهم تنوعاً هائلا مع كمال إستعدادهم ورهافة حسهم وحسن أذواقهم فوصفوا القصور والبساتين والأزهار والأطيار، ووصفوا الجيوش والحروب، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والقيان وأدوات اللعب والعدد والآلات والأثاث والرياش، كما وصفوا آثار الأقدمين، وفصول السنة ولا سيما الربيع، ووصفوا

---

١) فى ذلك يقول : يا قط فارقتنا ولم تعد   وكنت منا بمنزل الولد
أردت أن تأكل الفراخ ولا   يأكلك الدهر أكل مضطهد
هذا بعيد عن القياس وما   أعزه فى الدنو والبعد
لا بارك الله فى الطعام إذا
كان هلاك النفوس فى المعد ... الخ

الجبال والأنهار والجداول والبرك الصناعية ، ومن أعظم وصافيهم : أبو نواس ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز وهذا مثال من وصف بعض مظاهر الحضارة فى عهد الخليفة «الأمين» وقد كانت له فى نهر دجلة خمس حراقات «سفن للنزهة» على هيئة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس فقال «أبو نواس» يصف اثنتين منها :

سخر الله للأمين مطـايـاً	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ماركابه سرن براً	سار فى الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب؟!
ذات زور ومنسر وجناحين	تشـق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذاما	استعجلوها فى جيئة وذهاب

٧ — الغزل : وقد بلغوا فيه الغاية من الرقة والروعة ، وكانت الدواعى إليه موفورة لكثرة الجوارى وتعدد أنواع حسنهن بتعدد أجناسهن مع تفننهن فى الزينة ، ومنهم من جنح فيه إلى الجانب العفيف المشبوب العاطفة ، وهم قلة على رأسهم «العباس بن الأحنف» الذى قصر شعره عليه ولم يتكسب بالشعر ، أما معظمهم فتناول الغزل بكثير من الصراحة والافتتان بالنواحى الجسدية والمحاسن الحسية ، على أنهم استقصوا معانيه ووفوه حقه كغرض مستقل إلى جانب ما افتتحوا به من قصائد المدح ومن جيده قول الحسين ابن الضحاك :

وصف البدر حسن وجهك حتى	خلت أنى ـ وما أراك ـ أراكا
وإذا ما تنفس النرجس الغض	توهمته نسيم شـذاكا

خدع الذى تعالى فيـ　　لك بإشراق ذا وبهجة ذا كا

وقول على بن الجهم :

نطق الهوى بجوًى هو الحق　　وملكتنى فليهنك الرق
رفقا بقلبى يا معذبه　　رفقاً وليس لظالم رفق
وإذا رأيتك لا تكلمنى　　ضاقت على الأرض والأفق

٨ — الاعتذار : وقد كثرت دواعيه فى هذا العصر ، لكثرة الفتن والنزعات فى مجتمعهم ، وخروج بعض الطوائف والأفراد على الدين والدولة والآداب العامة وغضب الخلفاء على المخالفين وتصديهم لهؤلاء بالعقوبات الرادعة وتوبة كثير منهم ورجوعهم إلى جادة الصواب ومنهم شعراء ، فقالوا فى الاعتذار وأبدعوا وكان ذلك وسيلتهم للنجاة ، وسبيلهم إلى الفوز بالعفو والرضا من ولى الأمر وقد امتازت اعتذارياتهم بالرقة البالغة وحسن التلطف ومن ذلك قول « إبراهيم بن المهدى » يعتذر « للمأمون » :

ذنبى إليك عظيم　　وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا　　فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى　　من الكرام فكنه

وقول « على بن الجهم » يعتذر « للمتوكل » :

عفا الله عنك ألا حرمة　　تجود بعفوك إن أبعدا
لئن جل ذنب ولم أعتمد　　لأنت أجل وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدا طوره　　ومولى عفا ورشيداً هدى

ومفسد أمر تداركته ... فعاد فأصلح ما أفسدا!

أقلني أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى

(الأغراض الجديدة) :

١ - الغزل بالمذكر : كان الشعر العربي حتى ذلك العهد لا يعرف غزلا إلا في المؤنث كما هي الفطرة السليمة ، فلما جاء العصر العباسي ظهر ذلك اللون الغريب على ذوق العربي كأثر سيء من آثار اختلاط العرب بالعجم ، وقد كان التغزل بالمذكر من الأمور المعروفة عند الفرس الشائعة فيهم كمرض اجتماعي وساعد على انتقاله للمجتمع العباسي - في قطاعه اللاهي - شغف شعراء هذا اللون باللهو وشرب الخمر واجتماعهم في تلك المجالس مع الغلمان المملوكين من جنسيات مختلفة والذين كانوا يقومون بالخدمة فيها ممن يتصفون بالظرف وحسن الزي وجمال الوجوه وأشهر من أشاع هذا اللون البغيض : أبو نواس ، والحسين بن الضحاك الملقب (بالخليع) وغيرهما ومن شعر أبي نواس في ذلك :

جال ماء الشباب في خديكا ... وتلالا البهاء في عارضيكا

ورمى طرفك المكحل بالسحر ... فؤادي فصار رهنا لديكا

أنا مستهتر بحبك صب ... لست أشكو هواك إلا إليكا

يا بديع الجمال والحسن والدل ... حياتي وميتتي في يديكا

ومن شعر الحسين بن الضحاك :

وابأبي أبيض ذ صفرة ... كأنه تبر على فضه

كأنما الرمش على خده ... طل على تفاحة غضه

صفاته فاتنة كلها ... فبعضه يذكرني بعضه

٢ - الخمريات والمجون : احتل هذان الغرضان فى شعر هذا العصر مكانا كبيراً وكثر القول فيها كثرة طاغية وكان هذا أيضاً من آثار الحياة الاجتماعية العباسية وما حفلت به من حريات واسعة وتسامح فى الأخذ عن الأعاجم ومن ذلك فنون اللهو والمجون والتهالك على شرب الخمر وقد عبر الشعر عن كل ذلك فساعد على انتشار الفساد وذيوع المنكر ، وعجز الحكام بعد ذلك عن وقف هذا التيار الجارف ، وذاع القول فى الخمر وصار علامة على الظرف والتملح حتى قال فيها من لم يشربها ، واستقصى الشعراء أوصافها وأوصاف كل ما يتعلق بها من الساقى والكئوس والدنان والأباريق ، ووصف مجالسها وفعلها فى الشاربين ، وأوقات شربها وغير ذلك مما لم يكن له نظير فى جاهلية ولا إسلام ، وزعيم هذا اللون وأبرع من وصفها الحسن بن هانى ، (أبو نواس) الذى يقول من قصيدة طويلة :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء

ومن قوله فى المجاهرة بها :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

وفى وصف فعلها بالشاربين ،

فتمشت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السقم

فعلت فى اللب إذ مزجت ... مثل فعل النار فى الظلم

وفى تهالكه عليها :

حج مثـلى زيارة الخمار ، واقتنائى العقار شرب العقار[1]
ما أبالى إذا المدامـة دامت قول ناه ولا شناعـة جار

ومن قول الحسين بن الضحاك الخليع فى مجلس لهو وشرب :

أحييت صبوحى فكاهة اللاهى وطاب يومى بقرب أشباهى
فآثر اللهـو فى مكامنه من قبل يوم منغص ناهى
بابنة كرم من كف منتطق مؤتزر بالمجون تياه
يسقيك من طرفه ومن يده سقى لطيف مجرب داهى
كأسا وكأساً كان شاربها حيران بين الذكور والساهى

٣ — الزهد : وهو شعر يدعو إلى الإعراض عن الدنيا ولذائذها ويرغب فى الآخرة ونعيمها ، ويذكر الناس بالموت ويدعو للعمل الصالح وقد ظهر هذا اللون كرد فعل الاتجاه السابق والدعى والدهى إلى انتهاب اللذات ومعاقرة الخمور والغزل والمجون وكما كان هذا لسان أهل الهزل والفجور ، كان شعر الزهد لسان أهل الجد والورع والمتدينين من العلماء والفقهاء وأتباعهم من عامة الناس وخاصتهم وزعيم هذا اللون المبرز فيه والمكثر الشاعر (أبو العتاهية) ومن قوله فيه .

سيصير المـرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين عينى كل حى علـم الموت يلوح

(١) العقار بفتح العين : ما يملك من دار ونحوها ، وبضم العين : الخمر والعقار بفتح العين وتشديد القاف : الدواء .

كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح
نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح!

وقوله :

ألا إننا كلنا بائد وأي بنى آدم خالد ؟
فيا عجبا كيف يعصى الإله م أم كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ومن العجيب أن (أبا نواس) زعيم أهل اللهو والفساد قال فى الزهد مقطوعات رائعة إما مكايدة (لأبى العتاهية) وإظهاراً للمقدرة الشعرية وإما أنه قالها فى آخر حياته تائباً عما سلف من ذنوبه ومن ذلك قوله :

ألا كل حى هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
فقل لمقيم الدار إنك ظاعن إلى سفر نائى المحل سحيق .
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

٤ — المثل والحكمة : وكانا يأتيان فى شعر الأقدمين عفوا فى خلال الأغراض المختلفة فأصبحا فى عصر بنى العباس يقصدان لذاتهما ويستقلال بالقصائد والأراجيز والمقطوعات وأعان الشعراء على ذلك ما اطلعوا عليه من أمثال الفرس وحكم الهند واليونان التى ترجمت وصارت ضمن زادهم الثقافى وأشهر من قال فى هذين الغرضين (أبو العتاهية) (وصالح بن عبد القدوس) ومن أمثلته قول أبى العتاهية فى أرجوزته التى قيل أنها بلغت أربعة آلاف بيت فى الأمثال والحكم :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت

هى المقادير فدعنى أوفذر	إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
إن الفراغ والشباب والجده	مفسدة للمرء أى مفسده

وقد نحا بعض الشعراء فيها نحوا جديداً خالصاً هو نظم القصص الرمزية لتكون العظة فيها غير مباشرة والمثل أوقع فى النفس ومنهم (أبان بن عبد الحميد اللاحقى)[1] الذى نظم كتاب (كليلة ودمنة) شعرا، وكافأه (البرامكة) على ذلك مكافأة عظيمة، ويقول فى مطلع الكتاب:

هذا كتاب أدب وحكمه	وهو الذى يدعى كليل دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد	وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم	حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله	والسخفاء يشتهون هزله
وهو على هذا يسير الحفظ	لذ على اللسان عند اللفظ

ومن الأمثال التى وردت فيه للمقارنة بين ساقط الهمة وعاليها:

وإن من كان دنى النفس	يرضى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقى البائس	يفرح بالعظم العتيق اليابس
وأن أهل الفضل لا يرضيهم	شىء إذا ما كان لا يغنيهم
كالأسد الذى يصيد الأرنبا	ثم إلى العير الجد هربا
فيرسيل الأرنب من أظفاره	ويتبغ العير على إدباره

٥ - الشعر التعليمى: وذلك بنظم حقائق العلوم وضبط مسائلها

---

(١) المتوفى عام ٢٠٠ هـ

وقواعدها فى قالب شعرى كحقائق الفقه ومسائل النحو لتيسير حفظهما على الناشئين باستغلال موسيقى الوزن والقافيـة التى تخفف من جفاف بعض العلوم ، وتلخيصاً للمطولات بعد إن وضعت المؤلفات الكبيرة لبناء الشعر على الإيجاز غالباً ومن فرسان هـذا الميدان الشاعر (أبان اللاحقى) الذى مر ذكره ومن نظمه فى بعض مسائل الفقه :

هذا (كتاب الصوم) وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل فى القرآن فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبى من عهده المتبع المرضى

ومن فرسانه كذلك الشاعر (عبد الله بن المعتز) وله أرجوزة فى التاريخ ذكر فيها تاريخ الخليفة المعتضد ، وجانباً من تاريخ دولة بنى العباس وما قاسته هذه الدولة فى أخريات العصر الأول لها من استبداد الأتراك وجرائمهم المنكرة[1] ومطلعها :

باسم الإله الملك الرحمن ذى العز والقدرة والسلطان
ومنها : هـذا كتاب سيرة الإمام مهذباً من جوهر الكلام
أعنى أبا العباس خير الخلق الملك قول عالم بالحق

وهذه أبيات منها :

---

(١) هذا إلى جانب كون هذه الأرجوزة شعراً قصصيا أشبه بالملاحم فى الشعر الأوربى وذلك لما فيها من تمجيد البطولة ومن عنصرى العاطفة والخيال ، فإذا نظرنا إليها من زاوية التسجيل التاريخى فهى شعر تعليمى وإذا نظرنا إليها من زاوية تمجيد البطولة فهى شعر قصصى ملحمى .

وكل يوم ملك مقتـول ... أو خائف مروع ذليـل

وكل يوم شغب وغصب ... وأنفس مقتـولة وحرب

ويطلبون كل يوم رزقاً ... يرونه دينـاً لهم وحقـاً

كذاك حتى أفقروا الخلافه ... وعودوها الرعب والمخافه

وهذه الطريقة فى نظم العلوم أخذتها الأجيال التالية وتوسعت فيها على مر العصور حتى وصلت إلى عصرنا الحاضر حيث كانت تدرس فى الأزهر الشريف منظومات كثيرة فى شتى العلوم من أشهرها (ألفية بن مالك) فى النحو والصرف ومنظومـة (الشاطبية) للشاطبى فى علم التجويد والقراءات ومنظومة (الخريدة) فى علم الـكلام .

ثانياً : التطور فى بناء القصيدة :

حافظ شعراء العصر العباسى الأول على طريقة العرب الأقدمين فى بناء القصيدة العربية بوجه عام ، ومن ذلك .

١ - بناؤها على وزن عروضى واحد .

٢ - وبناؤها على قافية واحدة .

٣ - افتتاحها بالنسيب إلا أن (أبا نواس) حاول التجديد فى هـذه النقطة الأخيرة مخالفاً الأقدمين ومن جاراهم الذين ( )توارثوا تقليداً يقضى بأن يبدأ الشاعر قصيدته بالغزل والنسيب بذكر الديار والأطلال والظعائن ووصف الناقة والرحلة فى الفلاة ، ووصف ما فيها من الوحش والصيد وأن يجعل ذلك كله تمهيداً لغرضه المقصود من مدح وغيره وإن لم يكن الشاعر

قد ركب ناقة أو سلك بادية ، وعلمهم فى ذلك الإلمام على ذكر وطنهم الأول - (شبه الجزيرة العربية) بصحراواته ووديانه ووحشه وحيوانه ، والتظرف بالتشبه بالأعراب فى أخص خصائص شعرهم »[1] وهى على أية حال مقدمة عاطفية تجذب النفوس وتشد الأحاسيس وتوقظ الوجدان ، وتهيء المستمع لتلقى ما يريد الشاعر أن يقوله .

فجاء (أبو نواس) وهو من سلائل العجم ، لا يهمه تراث العرب ولا تعنيه تقاليدهم بل يرى قومه الفرس خيراً منهم إذ هو شعوبى النزعة كما قدمنا ، فأعلنها ثورة على هذه الافتتاحيات التقليدية فأهملها واستبدل بها افتتاحيات أخرى أهمها وصف الخمر ودعا إلى ذلك فى مثل قوله :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله :

لا تبك هنداً ولا تطرب إلى دعد

واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأساً إذا انحدرت فى حلق شاربها

أجدته حمرتها فى العين والخد

وقد بالغ أبو نواس فى ذلك وأكثر منه ، فغضب عليه (الرشيد) وحرم عليه ذكر الخمر ، ودعاه إلى نهج الأقدمين ، فانصاع لذلك مرغما وقال :

---

(١) راجع المفصل فى تاريخ الأدب العربى للشيخ أحمد الاسكندرى وآخرين ج ١ ص ١٧٢ مطبعة مصر ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أزرى بها نعتك الخمرا

دعانى إلى نعت الطلول مسلط
تضيق ذراعي أن أرد له أمراً

فسمعا أمير المؤمنين وطاعة
وان كنت قد حشمتنى مركباً وعرا

على أن ثورة أبى نواس هذه وجدت صدى لها فى عصره وبعد عصره فهجروا الافتتاحيات التقليدية فى بعض نتاجهم الشعرى كما فعل (أبو العتاهيه) فى مطلع إحدى قصائده :

لهفى على الزمن القصير   بين (الخورنق) و (السدير)[1]

وكما فعل أبو تمام فى قصيدته فى مدح المعتصم عندما فتح «عمورية» وقد مر ذكرها حتى رأينا بعد ذلك شاعراً عظيما مثل (المتنبى) يردد دعوة أبى نواس فيقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم   أ كل فصيح قال شعراً متيم ؟!

على أن الأمر بعد ذلك عاد إلى ما كان عليه فى العصور التالية حتى مطلع العصر الحديث .

ثالثاً : (فى الألفاظ والأساليب) :

تميز الشعر فى العصر العباسى الأول من حيث ألفاظه وأساليبه بالظواهر الآتية :

---

(١) قصران للنعمان بن المنذر قرب (الحيرة)

١ – ظهور أثر الحضارة فيه بالدقة والتأنق فى اختيارهما فالوا إلى اللفظ الرشيق الجميل وآثروا عذبه وتباعدوا عن غريبه ووحشيه ، كذلك مالوا إلى السهولة فى أساليبهم مع الإحكام ، وكانت الرقة المتناهية ديدنهم ، وحسن الذوق طابعهم وبخاصة فى الأغراض الرقيقة كالغزل والخمريات ووصف مظاهر الطبيعة الخلابة وآلات الحضارة الفاتنة كما كانت الجزالة وفخامة الأسلوب سبيلهم فى الأغراض القوية كوصف الفتوح ومدائح الرؤساء فى المواقف الجليلة ، والفخر والرثاء ، ومما جميع بين الرقة والمتانة قول (الحسين بن الضحاك) يهنىء الخليفة (المنتصر) بالخلافة :

تجددت الدنيا بملك محمد فأهلا وسهلا بالزمان المجدد

هى الدولة الغراء راحت وبكرت

مشمرة بالرشد فى كل مشهد

لعمرى لقد شدت عرى الدين بيعة

أعز بها الرحمن كل موحد

هنتك أمير المؤمنين خلافة جمعت بها أهواء أمة أحمد

٢ – التصرف والترخص فى استعمال بعض الكلمات العربية فى معان جديدة غير معناها الأصلى مثل كلمة (قصف) ومعناه الأصلى : كسر الغصن ، استعملوها فى معنى اللهو كقول أبى نواس :

لا يصرفنك عن قصف وإصباء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء

ومثل كلمة (جرى) من جريان الماء وشبهه فى الأصل ، فقد استعملوها

بمعنى (وقع) كقول الشاعر :

رب نسيم قد سرى ، يحدو سحابا ممطرا
أذيـاله بليـلة تخبرنا بما جـرى ..

ولم يعترف علماء اللغة بهذه الكلمات فى استعمالها الجديد وسموها (مولدة) ، وإنما سموها كذلك لإطلاقهم اسم (المولدين) على هذا الجيل من الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى - ولو كانوا عربا خلصا - وسموهم أيضاً (المحدثين) ولم يحتجوا بشعرهم بينما يحتجون بشعر (القدماء) وهم - فى اصطلاحهم - الشعراء الذين نشئوا قبل العصر العباسى - ولو كانوا غير خالصى العروبة .

٣ - دخول كثير من الألفاظ الأعجمية فيه - ولا سيما الفارسية - لشدة اختلاط العرب بالفرس كما أسلفنا - من أسماء الأشياء التى جلبتها الحياة الحضارية التى عاشوها فى ذلك المجتمع الممتزج العناصر ، كأسماء المآكل والمشارب وأدوات المائدة واللهو والزينة وأسماء بعض الأزهار والرياحين وغير ذلك وأيضاً (كلمات علمية) من مصطلحات العلوم التى ترجمت إلى اللغة العربية فى ذلك العصر ، وقد ساعد على كثرة دخول هذه الكلمات الأعجمية أمور منها :

(ا) تعصب العناصر الأعجمية فى المجتمع للغاتهم وحبهم لرواجها وعملهم لذلك .

(ب) ظرف بعض العرب باستعمال هذه الكلمات الأجنبية ، كما يتظرف بعض العرب فى عصرنا الحاضر باستعمال بعض الكلمات (الأوربية) فى أثناء حديثهم بالعربية .

(ج) حاجة اللغة العربية فى ذلك العصر إلى استعمال هذه الألفاظ للتعبير

عن مصطلحات العلوم المترجمة من طبية وفلكية ورياضية وفلسفية مما ليس له نظير يعبر عنه فى اللغة العربية .

(التعريب) :

هذا : والكلمات الأعجمية التى دخلت اللغة العربية فى ذلك العصر نوعان : نوع نقلوه بلفظه دون تصرف ، ونوع أدخلوه بعد التصرف فيه بحذف بعض حروفه ، أو استبدالها بحروف أخرى ليقربوه من اللفظ العربى وهذا النوع الأخير يسمى (المعرب) وتصرفهم فيه يسمى (التعريب) ، ومن أمثلة النوع الأول الكلمات الفارسية : بر بمعنى ملآن ، وآب سرد بمعنى ماء بارد ، و مهرجان لعبد الخريف يقول إبراهيم الموسيقى الشاعر :

إذا ما كنت يوماً فى شجاها　　　فقل للعبد يسقى القوم براً

ويقول الشاعر (العمانى):

لما هوى بين غياض الأسد　　　آلى يذوق الدهر آب سيد

ومن أمثلة النوع الثانى : (نيروز ، معرب (نوروز) لعيد الربيع عند الفرس ، وآذريون معرب (آذركون) لزهر أصفر يشبه لون النار ، يقول (البحترى) فى وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه (النيروز) فى غسق الدجى
أوائل ورد كن بالأمس نوما

ويقول ابن المعتز فى وصف الزهر الأصفر المشار إليه :

سقيا لروضات لنا　　　من كل نور حاليه
عيون « آذريونها »　　　والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب　　　فيها بقايا غاليه

ومن الكلمات المعربة عن الهندية) كلمة (هندسة) وقد جاء فى المعجم (القاموس المحيط) للفيروز ابادى أن أصلها (آب انداز) ومن المعرب عن (اليونانية) كلمة فيلسوف وأصلها (فيلاسوفا) أى محب الحكمة، ومعظم هذه الكلمات دخل فى أثناء ترجمة العلوم الوفدة إلى اللغة العربية — كما أشرنا ثم تسرب إلى لغة الأدب والشعر كقول الشاعر :

ياطبيبا (بالآنسون) يداوى ، ليس مابى يزول (بالآنسون)

دوانى يامعذبى باسم قـوم أى وقـت ذكرتهم آنسونى

واستعارة لغة ألفاظا من لغة أخرى أمر شائـع بين اللغات [1] والتعريب فى اللغة العربية كان موجودا منذ العصر الجاهلى بحكم احتكاك العرب بجيرانهم من الفرس وغيرهم ، والقرآن الكريم فيه بعض ألفاظ معربة (كالسندس والاستبرق) ولكن الجديد فى العصر العباسى كثرة المعرب والأجنبى فى مفردات اللغة كثرة بالغة للاسباب التى ذكرناها ، حتى ألف فيه من بعد بعض علماء اللغة كتبا للدلالة عليه والتنبيه إلى أصله ومن ذلك كتاب (المعرب من الكلام الأعجمى) لأبى منصور موهوب بن أحمد الجواليقى م ٥٣٩ هـ .

---

(١) ومن ذلك وجود ألفاظ عربية كثيرة فى اللغات الأوربية حتى اليوم من أثر احتكاك الأوربيين بالحضارة العربية فى القرون الوسطى وأخذهم عنها العلوم والفنون ، وفى اللغة الاسبانية خاصة تزيد نسبة الكلمات العربية حتى تبلغ مئات كثيرة حيث عاش المسلمون هناك ثمانية قرون هذا عدا آلاف الكلمات المعربية فى اللغتين الفرنسية والتركية الحديثتين .

(٤) دخول (المحسنات البديعية) فى أسلوب الشعر العباسى عن عمد وقصد، وكانت فى الشعر القديم تأتى عفو الخاطر ودون تكلف، فجاء (بشار بن برد) وتعتمد إيرادها فى شعره ثم جاء بعده (مسلم بن الوليد) فأكثر منها، ويقال إنه أول من أطلق على هذه المحسنات اسم (البديع) و (اللطيف)[1] وتبعه فيه جماعة من الشعراء حتى عده بعض النقاد أول من أفسد الشعر بتكلف البديع، وممن تابعه على ذلك (أبو تمام) الذى أفرط فى البديع لدرجة عابت شعره مع تقدمه وعلو منزلته فى الشعر وكان لذلك أثره السيء فى الأجيال التالية من شعراء العصور المتأخرة الذين جعل كثير منهم البديع هدفا وغاية يجرون إليها فى أشعارهم فجنى ذلك عليهم السقم والضعف فى معانى الشعر وفى مبناه على السواء.

(٥) دخول كثير من ألفاظ العلوم المختلفة فى الشعر إما تظرفا وإما فيضا من أثر اكتساب الشعراء ثقافة عصرهم الواسعة كقول أبى تمام فى الرثاء وفيه من علم (الفقه) :

ولم أنس سعى الجود خلف سريره
بأكسف بال يستقيم ويظلع

وتكبيره خمسا عليه معالنا ... وان كان تكبير المصلين أربع

وقول البحترى فى المدح وفيه من (علم الكلام) :

فى المحل الجليل من زينة الملك ... استقلت والمذهب المستقيم

للندى الأول الأخير الذى بر ... ز والسؤدد الحديث القديم

---

(١) راجع معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم العباسى ج ٢ مطبعة السعادة ١٩٠٧.

وقول أبى نواس فى الهجاء وفيه من علم «الطبائع»:

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى .. كذلك الثلج بارد حار

٦ - دخول كثير من ألفاظ السخف والبذاء والفحش عند بعض الشعراء كبشار وأبى نواس وحماد عجرد فى الهجاء والمجون مما كان يستحى من ذكره فى العصور السابقة ، كما كان هذا دأب بعض صغار الشعراء الهازلين المجان مثل «أبى الشمقمق» المعاصر لبشار وكان يفرض عليه وعلى غيره من كبار الشعراء جزية فى مقابل كفه عن هجائهم !! وكانوا يدفعونها إليه صاغرين !!

«رابعاً» فى المعانى والأفكار :

كان الشعراء العباسيون فرسان المعانى فى الشعر العربى قاطبة وذلك لأمرين أولهما انتفاعهم بمعانى الأقدمين من جاهليين وإسلاميين فقد رووا أشعارهم وحفظوها وتخرجوا عليها ، وثانيهما اكتسابهم مدداً عظيما من المعانى الجديدة التى أفاضتها عليهم حياتهم الحضارية الحافلة بما فيها من نعيم وبؤس وخير وشر ، ومعارف عصرهم الواسعة من علوم جمة وثقافة شاملة ومن أجل هذا تميزت معانيهم الشعرية بخصائص من أهمها ما يأتى :

١ - ظهور شخصياتهم إذا ألموا بمعانى الأقدمين ، فيجملون الفكرة ويحسنون المعنى بالزيادة أو بالاختصار فيه ، ويصقلونه فى براعة وحذق ، ويخرجونه فى صورة جديدة أخاذة تجعلهم أحق به من صاحبه الأول فإذا قال «الفرزدق» يخاطب ناقته :

متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى

جاء « أبو نواس » فقال فى المعنى نفسه « يمدح الخليفة الأمين » :

وإذا المطى بنا بلغن « محمداً »   فظهورهن على الرجال حرام

فكان أرق وأجمل وإذا قال « جرير » :

إذا غضبت عليك بنو تميم   رأيت الناس كلهمو غضابا

قال أبو نوس :

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

ألم بمعنى جرير وكان أدق وأروع ، وإذا قال « النابغة الذبيانى » :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه   عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله   إذا ما التقى الجيشان أول غالب

قال النواسى :

تتمنى الطير غزوته   ثقة باللحم من جزره

فكان أوجز مع الوضوح والرشاقة ، وإذا قال « المعذل بن غيلان » :

ولست بنظار إلى جانب الغنى
إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

قال « أبو تمام » :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد
ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فكان أقوى بتجسيم معنى الإعراض وشدة الإغراء مع لطف الإشارة إلى المجد[1]

(٢) ابتكارهم معانى جديدة لم يسبقوا إليها ومن ذلك قول بشار فى الغزل:

[يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا]

قالوا بمن لا ترى تهذى ؟ فقلت لهم

الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقوله فى المدح :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى

أفدت ، وأعدانى فأتلفت ما عندى

وقول ابن الرومى فى الهجاء :

يقتر (عيسى) على نفسه وليس بباق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد ! !

وقول أبى تمام فى المدح بالجود :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنفحة طالب

---

(١) تجد أمثلة أخرى كثيرة لذلك فى كتاب (الصناعتين لأبى هلال العسكرى) و « العمدة فى محاسن الشعر ونقده » لابن رشيق القيروانى فى باب السرقات الشعرية .

«٣» انطباع كثير من معانيهم بالروح الفلسفي والعلمي، من دقة وترتيب للأفكار، ومن قياس عقلي وتعليل منطقي، ومن ذلك قوله ابن الرومي، مستدلا على حكم أورده في شعره بدليل منطقي:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه!!

ففي البيت الأول حكم وفي البيت الثاني دليل على صحته.

وقوله في حكم آخر مستدلا كذلك:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد؟،

وقوله لصديق له معللا عدم سكوته على هفواته:

أنت عيني وليس من حق عيني ... غض أجفانها على الأقذاء

وقول أبي تمام:

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي

وقوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود!

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

وأبو تمام في المثالين قد استدل على دعواه، وهي دعوى غريبة، بدليل حسي مسلم ليزيل عنها العجب والغرابة.

وبلغ من ولع «ابن الرومى» بالبرهنة والاستدلال فى شعره أن حاول تحسين ما أجمع الناس على قبحه، هو «الحقد»، فقال :

ولولا الحقود المستكنات لم يكن
لينقض وترا آخر الدهر ذو نقض

وما الحقد الا توأم الشكر فى الفتى
وبعض السجايا ينتمين إلى بعض

فحيث ترى حقدا على ذى إساءة
فثم ترى شكرا على حسن القرض

وإن كان قد عاد عن قوله هذا بعد ذلك وانتصر للعفو واعترف بقبح الحقد حين قال :

يامادح الحقد محتالا له شبها   لقد سلكت إليه مسلكا وعثا
الحقد داء دوى لا دواء له   يشوى الصدور إذا ماجمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة
فانما يبرأ المصد ورمسا نفثا

على أن لابن الرومى محاولة رائعة وفق فيها حين استطاع بقوة احتجاجه تهجين ما أجمع الناس على استحسانه، فى قضية جمالية طريفة وذلك بتفضيله «النرجس» على «الورد» وذلك إذ يقول :

خجلت خدود الورد من تفضيله   خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه   إلا وناحله الفضيلة عاند
للنرجس الفضل المبين وإن أبى   آب، وحاد عن الطريقة حائد

فصل القضية أن هذا قائد زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين : هذا موعد بتسلب الدنيا وهذا واعد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعيشك فى الملاح سميه أبداً فانك لا تصادف واحد
والورد ـ إن فكرت فرد فى اسمه
ما فى الملاح له سمى واحد ا
هذى النجوم هى التى ربتها بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما شبهاً بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد ؟!

فتراه قد ساق (ستة أدلة قوية) على فضل النرجس على الورد حتى كاد يقنعنا بدعواه .

(٤) شيوع الحكمة والأمثال الصائبة فى شعرهم ، وهذا أمر طبيعى لما قدمنا من اتصالهم بالثقافات الأجنبية اتصالا وثيقا ومنها حكمة الهند وأمثال الفرس ، إلى جانب رويتهم فى قرض الشعر وقلة ارتجالهم ، ومن ذلك قول (بشار بن برد) فى منهج الصداقة والأصدقاء :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه
ومن الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه
فى (الشورى) :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستمن   برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولاتجعل الشورى عليك غضاضة
فإن الخوافى قوة القوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها
وما خير سيف لم يؤيد بقائم ؟؟

وقول (صالح بن عبد القدوس) :

وإن من أدبته فى الصبا   كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مونقا ناضرا   بعد الذى أبصرت من يبسه
والشيخ لايترك أخلاقه   حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله   كذى الضنا عاد إلى نكسه

(٥) قوة الترابط بين المعانى داخل القصيدة مما يؤدى إلى (وحدتها الموضوعيه) وسلامة بنائها ، وهذه ميزة الشعر العباسى على كثير من الشعر القديم الذى كان يعانى كثير منه من تفكك القصيدة وضعف الترابط بين معانيها ، تأمل قصيدة أبى تمام فى فتح عموريه ، قصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى وقصيدته فى وصف بركة المتوكل على سبيل المثال تجد كلا منها وحدة موضوعية وشعورية لاشذوذ بين أجزائها ولا تنافر ، ثم تأمل معى جميل التخلص وبديع الانتقال فى داخل القصيدة الواحدة من غرض إلى غرض فى قوله (أبى نواس) فى مدح (الخصيب) وإلى مصر :

تقول التى من بيتها خف محملى   عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون (مصر) للغنى متطلب؟   بلى ! إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر   جرت فجرى فى جريهن عبير

ذريني أكثر حاسديك برحلة　　إلى بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخطيب ركابنا　　فأي فتى بعد الخطيب تزور

(٦) فشو الغلو والمبالغة في معانيهم لدرجة جاوزت المألوف عند العرب وقد فشت المبالغات عند العباسيين في معاني المدح أولا - ثم انتقلت منه إلى أغراض أخرى - تقليدا منهم للفرس في تملقهم للملوك والرؤساء فألفوها، ولم يجدوا فيها غضاضة، ولو خرجت عن حد العقل أو الذوق أو الشرع، هذا أبو نواس يمدح الرشيد فيقول:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه　　لتخافك النطف التي لم تخلق

ولا يعقل ما ادعاه لأنه لا يوصف بالخوف مالم يكن انسانا بعد، ويقول في مدحة أخرى:

كيف لا يدنيك من أمل　　من رسول الله من نفره ؟

وقد جانب الذوق الذي كان مقتضاه أن يضيف الممدوح إلى رسول الله لا العكس، ومن المبالغات التي يكذبها الواقع قول بشار في الغزل:

نفسي يا عبد عني واعلمي　　أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسما ناحلا　　لو توكأت عليه لانهدم

فالمعروف أن بشارا كان ضخما جسيما فجاءت مبالغته في ادعاء النحافة الشديدة غير مقبولة ولا سائغة، ومن المبالغات البعيدة عن روح الإسلام قول (الحسين بن مطير الأسدي في مدح (المهدي)):

لو يعبد الناس يامهدي أفضلهم　　ما كان في الناس إلا أنت معبود
أضحت يمينك من جود مصورة　　لا بل يمينك منها صور الجود
لو كان من نورها مثقال خردلة　　في السود طرا إذن لابيضت السود

(خامسا) فى التصوير والخيال.

وهاهنا مجال من أوسع ماتفنن فيه الشعراء العباسيون فأجادوا أيما إجادة جروا فيه فسبقوا، ورسموا فأتقنوا، واخترعوا فأعجزوا، وابتكروا فخلدوا ولاعجب فى ذلك كله، أليسوا أبناء الحضارة الزاهرة، والنعيم الوارف، والظل الظليل، والخير الجزيل والدولة التى لاتند عنها [1] سحابة لعظمتها واتساع ملكها؟ ألم يعيشوا بين الرياض الغناء والبساتين الفيحاء والأنهار والجداول، والأشجار والخمائل، والطبيعة الساحرة، والمناظر الفاتنة؟ بلى، وإن ذلك وغيره كان خير حافز ومعين لهم على التحليق بالخيال إلى أرفع آفاقه، والإتيان فيه بكل رائع مدهش، وكل جميل أخاذ من الصور البديعة - مابين جزئية وكلية - واللقطات الفريدة واللوحات النادرة العجيبة ولم يقفوا فى تصويرهم البارع عند الحسيات والظواهر بل تعدت ذلك إلى تصوير المعنويات كالعواطف والأخلاق ومن أقدر مصوريهم وأبرع رساميهم (ابن المعتز) و (ابن الرومى) ناهيك (بالبحترى) و (أبى تمام) و (أبى نواس) و (بشار) و «الحسين بن الضحاك» و «سلم الخاسر» و «على بن الجهم» وغيرهم كثير وكثير، وإليكم قطرات من بحار إحسانهم، وزهرات من رياض إبداعهم:

يقول ابن المعتز يصور إقبال الربيع:

ماترى نعمة السماء على الأر ... ض؟ وشكر الرياض للأمطار؟

وغناء الطيور كل صباح ... وانفتاق الأشجار بالأنوار؟

---

(١) من أخبار الرشيد المأثورة أنه رأى سحابة فى أحد الأيام فخاطبها متحديا بقوله «شرقى أو غربى فسيأتينى خراجك»

وكأن الربيع يجلو عروسا   وكأنا من قطره فى نثار !!

وفى تصوير الروض :

وعلى الأرض اصفرار   واخضرار واحمرار
فكأن الروض وشى   بالغت فيه التجار
نقشه آس ونسريـ   ـن وورد وبهار

وفى تصوير الهلال :

وانظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

ويقول أبو نواس فى تصوير الخمر والكأس والساقى :

فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة
من كف لؤلؤة ممشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها
خمرا ، فمالك من سكرين من بد

ويقول بشار فى تصوير حسناء :

ودعجاء المحاجر من معد   كأن حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لحاجتها تثنت   كأن عظامها من خيرزان

ويقول فى تصوير يوم شديد الحرارة :

ويوم كتنور الإماء سجرنه   وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه   وبالعيس حتى بض منخرها دما

ويقول (ابن الرومى) فى تصوير السحب المتراكمة وقوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا

على الجود كنا والحواشى على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأخضر

على أحمر فى أصفر إثر مبيض

كأذيال خود[1] أقبلت فى غلائل

مصبغة والبعض أقصر من بعض

وفى تصوير صانع الرقاق

ماأنس لاأنس خبازاً مررت به

يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

مابين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

الابمقدار ماتنداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وفى تصوير «المكر» فى أخلاق صديقه «أبى القاسم الشطرنجى» :

لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأعضاء

أو دبيب الملال فى مستهامين إلى غاية من البغضاء

أو مسير القضاء فى ظلم الغيب إلى كاصد له بالتواء

ويقول «البحترى» فى تصوير بركة المتوكل الصناعية :

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

---

(1) الخود : المرأة الجميلة الشابة أو الجميلة الناعمة.

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
مثل الجواشن [1] مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
وريق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وهى طويلة ، ومنها فى تصوير سعتها ومافيها من أسماك :

لايبلغ السمك المحصور غايتها لبعد مابين قاصيها ودانيها
يعمن صحن رحيب فى أسافلها إذا انحططن ويهو فى أعاليها
صور إلى صورة (الدلفين) [2] يؤنسها
منه انزواء بعينيه يوازيها

ويصور لنا (على بن الجهم) بعض مشاهد (قصر الجعفرى) الذى بناه المتوكل فيقول :

وأنشأت تحتج للمسلمين على ملحديها وكفارها
بدائع لم ترها فارس ولاالروم فى طول أعمارها
نظمن الفسافس [3] نظم الحلى لعون النساء وأبكارها

---

(١) الدروع (٢) دابة بحرية (الدرفيل)
(٣) الفسيفساء مادة لامعة قوية تزين بها المبانى وتراها فى محاريب المساجد القديمة .

ومن هذه المشاهد القبة العجيبة :

وقبة ملك كأن النجو ... م تفضى إليها بأسرارها
تخر الوفود لها سجدا ... إذا ماتجلت بأبصارها

والنافورة البديعة :

وفوارة ثأرها فى السماء ... فليست تقصر عن ثارها
ترد على المزن ما أنزلت ... على الأرض من صوب مدرارها

« سادسا » فى موسيقا الوزن والقافية :

يتلخص التطور الذى مس هذه الناحية من الشعر العباسى فيما يأتى :

أ ـ فى الأوزان :

حصر « الخليل بن أحمد الفراهيدى » م ١٧٠ هـ مخترع علم العروض أوزان الشعر العربى فى خمسة عشر بحرا ، ثم جاء تلميذه « الأخفش » واجتهد فى أن يجد غيرها ، فلم يظفر الا بوزن واحد سماه « المتدارك » لأنه استدرك به على أستاذه .

وقد نظم شعراء العصر العباسى شعرهم على هذه البحور الستة عشر إلا أن عصرهم الذى ماج بالتجديد فى كل شىء تناول هذه الناحية بطرف منه ، فنظم بعض شعرائهم على أوزان جديدة وهذه الأوزان الجديدة نوعان :

« النوع الأول » : أوزان مأخودة من البحور القديمة الخليلية بالقلب

الـكامل لتفعيلات البحر أو بتقديم تفعيلة واحدة على أخواتها ومن أمثلة ذلك :

— قلبوا « بحر الطويل » من : فعولن مفاعلين « أربـع مرات » إلى مفاعلين فعولن « أربـع مرات » وسموه « بحر المستطيل » ومثاله :

لقد هاج اشتياقى غرير الطرف أحور

أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

— وقلبوا « بحر المديد » من : فاعلاتن فاعلن — أربـع مرات — إلى فاعلن فاعلاتن — أربـع مرات وسموه « بحر الممتد » ومثاله :

صاد قلبى غزال أحور ذو دلال

كلما زدت حبا زاد منى نفورا

— وقلبوا « بحر المجتث » من مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن « مرتين » إلى : فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن — مرتين — وسموه « بحر المتئد » ومثاله :

كن لأخلاق التصابى مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا

— وقلبوا « بحر المضارع » من : مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن — مرتين — إلى : مفاعيلن مفاعيلن فـاعلاتن وسموه « بحر المنسرد » ومثاله :

على العقل فعول فى كل شان ودانى كل من شئت أن تدانى

وقلبوه أيضا إلى : فاعلاتن مفاعلين مفاعيلن — مرتين — وسموه « بحر المطرد » ومثاله :

ماهلى مستهام ريـع بالصد فاشتـكى ثم أبكانى من الوجد

— ومن قبيل ذلك أنهم حرفوا «بحر الرمل» من فلاعلاتن ـ ست مرات بإبدال النون الساكنة كافا متحركة فيما عدا تفعيلتي العروض والضرب فيحذف منها السبب فصار هكذا : (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن ـ مرتين ـ وسموه بحر (المتوافر) ومثاله :

ما وقوفك بالركائب في الطلل ؟

ماسؤالك عن حبيبك ؟ قد رحل !

ما أصابك يافؤادي بعدهم ؟ أين صبرك يافؤادي ؟ ما فعل ؟

والواقع يقتضينا أن نشير إلى أن شعراء العصر العباسي لم يحتفلوا كثيرا بهذه الأوزان الجديدة ، فلم ينظم منها إلا القليل من الأبيات فقليل من الشعراء من باب التفنن وإظهار المقدرة ، وأن عامة شعرهم إنما جاء على الأوزان الستة عشر الأصلية .

(النوع الثاني) : أوزان غير مرتبطة (١) بالبحور الستة عشر الخليلية وهي فنون سبعة : الموشح ، والدوبيت ، والسلسلة ، والمواليا ، والزجل والكان كان ، والقوما والثلاثة الأولى فصيحة والأربعة الباقية يجوز فيها اللحن وإليك مثالا من كل فريق منها .

(الموشح) : وهو فن شعري يمتاز بجمال الصياغة ورقتها وخفة الوزن وتنوعه ، وتنوع قافيته كذلك على نسق معين ، ونظام خاص يجعل موسيقى الموشح شجية مطربة كما يمتاز بتقسيمه إلى مقطوعات صغيرة في الشكل مرتبطة في المعنى بأخواتها وهو بهذه الخصائص أنسب شيء للغناء ويكاد يكون مقصورا عليه ومخترعاً من أجله .

---

(١) بمعنى غير ملتزمة

وقد قيل : ان أول من ابتكره الشاعر العباسى «عبد الله بن المعتز» كما قيل : بل هو من ابتكار شعراء الأندلس وأن أول من قاله منهم الشاعر «مقدم بن معافر» وأن الشيخ «أحمد ابن عبد ربه» صاحب كتاب العقد الفريد أخذه عنه ثم انتقل عن الأندلسيين إلى المشارقة كذلك قيل : إنه منقول عن بلاد الروم المجاورة للبلاد الإسلامية على صورة نغمات موسيقية خالصة ، تاملها الشعراء العباسيون حين سمعوها فنظموا على مثالها فكانت الموشحات ونستبعد هذا الرأى الأخير لأن أشهر الموشحات المعروفة من «بحر الرمل» وأوزانه عروضية خليلية أصيلة ، فالموشحات فى رأينا ابتكار شعرى عربى سواء أكان من ابتكرها من شعراء الأندلس أم من شعراء المشارقة ، والسبب الأكبر فى ظهوره ازدهار فن الغناء فى البيئتين الأندلسية والعباسية وحاجته إلى مثل هذا الفن الشعرى الرقيق ذى الوزن الرشيق بعد أن أصبح الغناء جزءا من حياتهم المترفة لاغنى لهم عنه وبعد أن ضاقت على المغنين بحور الشعر الكبيرة فبحثوا عن الأخف والأرشق ومن أمثلة الموشحات : الموشحة المنسوبة إلى «ابن المعتز» ومنها تعلم أشهر طريقة فى صوغة ونظام مقطوعاته وقوافيه :

أيها الساقى إليك المشتكى ... قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت فى غرته ... ويشرب الراح فى راحته
كلما استيقظ من سكرته ... جذب الرزق اليه واتكا

وسقانى أربعا من أربع

مالعينى عشيت بالنظر ... أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ماشئت فاسمع خبرى ... عشيت عيناى من طول البكا

وبكى بعضى على بعض معى

كبد حرى ودمع يكف

يذرف الدمع ولا ينذرف

أيها المعروض عما أصف

قد نمـــا حبى بقلبى وزكا

لاتقل فى الحب إنى مدع

(المواليا): فإن كان ظهوره من بوادر دخول اللحن بعض فنون الشعر تمهيدا لنشأة الشعر العامى المسمى بالزجل، وكان أول من نظم المواليا جارية للبرامكة كانت وفية لهم بعد نكبتهم المشهورة على يد الرشيد، وأرادت أن ترثيهم بشعرها وكانت أديبة شاعرة، إلا أنها خافت غضب الرشيد لأنه كان قد نهى عن قول الشعر فى رثاء البرامكة فحادت هذه المولاة عن الشعر الفصيح قصدا إلى شعر ملحون حتى تنجو من عقاب الخليفة، فصاغت قولها فى شكل مقطعات مقفيات الأشطر أربعة أربعة وزنها من «بحر البسيط» مع التغيير فيه ومن ذلك قولها:

يادار أين ملوك الأرض أين الفرس ؟

أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس

سكوت بعد الفصاحه ألسنتهم خرس

وسبب تسمية هذا الفن (بالمواليا) أن هذه المولاة كانت تنشد هذه المربعات عند منازل البرامكة الخاوية، وتبكى وتقول عقب كل مربعة: (وا موالياه)! فأخذ من ذلك هذا الاسم لهذا الفن، والظاهر أنه أخذ من اسم المواليا بعد ذلك اسم (الموال) للفن الشعبى العامى المعروف والشائع فى عصرنا الحاضر فى غناء أهل الريف المصرى.

ب — القوافى :

التزم الشعراء العباسيون القافية الواحدة للقصيدة العربية كما التزمها القدماء، ولكن نزوعهم إلى التجديد فى كل شىء أداهم إلى التجديد فى قافية الشعر فاتجهوا إلى تنويعها فى داخل القصيدة الواحدة لما فى التنويع من الجدة والطرافة وبعث النشاط فى النفس، وتوسيعا على أنفسهم من ضيق الالتزام بحرف الروى الواحد. وقد اتخذ هذا التنويع الصور الآتية :

أ — «المزدوج» : وهو اتفاق القافية فى شطرى البيت الواحد فقط، والانتقال بعده إلى قافية أخرى وهكذا حتى نهاية المنظومة ومن أمثلته أرجوزة ذات الأمثال التى مر ذكرها لأبى العتاهية، وقد أعان ذلك النوع الشعراء على الاطالة ماشاءوا كما أعانهم على نظم العلوم والفنون كنظم كتاب «كلية ودمنة» لأبان اللاحقى وعلى الشعر القصصى التاريخى كما، فى أرجوزة ابن المعتز التى خلد فيها بطولة الخليفة «المعتضد بالله»(١) العباسى.

باسم الا له الملك الرحمن	ذى العز والقدرة والسلطان
هذا كتاب سيرة الإمام	مهذبا من جوهر الـــكلام
أعنى به العباس خير الخلق	للملك، قول عالم بالحق.. الخ

ب — «المشطر» وهو أن تتحد القافية فى أشطار القصيدة أربعة أربعة ويسمى : المربع أو خمسة خمسة ويسمى : المخمس فمن أمثلة المربع قول الحسن بن وكيع :

رسالة من كلف عميد	حياته فى قبضة الصدود
بلغة الشوق مدى المجهود	مافوق مايلقاه من مزيد

---

(١) هو الخليفة السادس عشر سلسلة خلفاء بنى العباس والمتوفى عام ٢٨٩هـ

جار عليه حاكم الغرام   فدق أن يدرك بالأوهام

فلو أتاه طارق الخيال   [illegible] شقة المقام

جـ - « المسمط » : وهو أن يؤتى فى المنظومة بعدة مقاطع كل قطعة خمسة أشطر، للأشطر الاربعة الأولى قافية واحدة وللشطرة الخامسة قافية[1] تتفق مع الشطرة الخامسة لكل قطعة مع القطع التالية ، ومثاله قول الأمير (تميم بن المعز) .

دم العشاق مطلول   ودين الحب ممطول

وسيف اللحظ مسلول   ومبدى الحب معذول

وإن لم يصغ للائم

وأحور ساحر الطرف   يفوق جوامع الوصف

مليح الدل والظرف   جنت ألحاظه حتفى

فمن يعدى على الظالم

---

(1) مغايرة وتلتزم فى كل شطرة خامسة فى المقطوعات التالية .

الباب الثالث

النـــثر في ذلك العصر

أنواعه . أسباب نهضة كل نوع . خصائصه وتطوره وأعلامه :

النثر قسيم الشعر وعدله ، وهو الجناح الثاني للأدب ، وقد قدمنا في أول هذه الدراسة عوامل التأثير في أدب هذا العصر شعره ونثره وأشرنا إلى أن الأدب العباسي طار بجناحيه (الشعر والنثر) إلى غاية من الرفعة والازدهار لم يبلغها الأدب من قبله ولم يلحقها من بعده وعللنا لذلك ، وأفضنا في أسبابه ، ثم خصصنا الشعر ببحث تفصيلي مر بك آنفا ، وقد آن الآن أن نتحدث عن النثر فنقول وبالله التوفيق :

النثر في هذا العصر نوعان :

١ — خطابة :

٢ — كتابة ، والكتابة قسمان :

١ — كتابة علمية : وهي المستخدمة في تأليف وتصنيف العلوم المختلفة وسبيلها الأسلوب العلمي القائم على الاهتمام بالفكرة وتقسيمها وترتيبها والاستدلال عليها ، والحافل بالاصطلاحات العلمية ، والقياس المنطقي ، والبعيد عن الأساليب العاطفية وعن الخيال ، وقد ألمنا في حديثنا عن « الحياة العلمية والفكرية » فيما سبق بأشهر المؤلفات والمترجمات في ذلك العصر وأعلام المؤلفين والمترجمين .

١ — كتابة أدبية : وهي المصوغة بأسلوب أدبي فيه إلى جانب الفكرة عناية بالخيال وتأنق في الصياغة واحتفال بالعاطفة وتشمل في هذا العصر « الرسائل الديوانية » و « التوقيعات الرسمية » كما تشمل « الرسائل الإخوانية » و « الرسائل الأدبية الموسعة » الموضوعات التي وضعها كبار الأدباء في ذلك العصر مستقلة أو ضمن مؤلفاتهم الأدبية الجامعة « كالجاحظ » ، وتشمل أيضا

ما وضع فى هذا العصر من « قصص » للعظة والاعتبار ، وللتفكه والترويح عن النفس كقصص البخلاء وقصص الحيوان التى أوردها « الجاحظ » أيضاً فى كتبه ، والنبدأ بعون الله فى الحديث عن النوع الأول من النثر وهو :

« الخطابة » نهضت الخطابة فى أول هذا العصر واستمر ازدهارها فى وسطه ثم ضعفت فى آخره .

« ا » « أسباب النهضة والازدهار » وهى كثيرة تتلخص فى الآتى :

١ — قرب عهد الناس بالعهد الأموى الذى احتفظ للعروبة بقوتها ونخوتها .

٢ — عروبة خلفاء بنى العباس ومحافظتهم لا سيما أوائلهم على طابعهم العربى وفطرتهم السليمة ، يضاف إلى ذلك كونهم من « بنى هاشم » وهم فرع من قريش عرفوا باللسن والفصاحة والتفوق فى مجالات القول وحرص الخلفاء على هذا التراث العظيم الذى توارثوه عن أسلافهم ،

٣ — شدة الحاجة إلى الخطابة فى تأييد الدعوة العباسية وتدعيم الدولة الجديدة ، ثم فى رد هجوم الأعداء فكانت سلاحاً سياسياً فعالاً للدولة الموحدة ثم سلاحاً لكل الأحزاب التى نشأت داخل الدولة بعضها ضد بعض .

٤ — حسن استماع الخلفاء إليها من رؤساء الوفود فى المناسبات المختلفة ومن طلاب الحاجات ومن أهل العلم والدين والتقوى من الوعاظ والنصاح .

٥ — استمرار الاهتمام بالخطب الدينية فى الجمع والعيدين وحرص الخلفاء على القيام بهذا الواجب بأنفسهم اقتداء بالرسول عليه السلام وبالخلفاء الراشدين .

٦ – كثرة المناظرات بين العلماء والأدباء سواء أكان ذلك فى المساجد أو بين أيدى الخلفاء فى الأمور الدينية والعلمية كالمناقشات بين المعتزلة وغيرهم من الفرق وبين الفقهاء فى فروع الشريعة وبين أهل اللغة فى المسائل النحوية وغيرها وبين أهل الأدب فى الشعر والشعراء وما إلى ذلك .

٧ – انتشار مجالس العلم والوعظ والقصص التى كان يعتمد فيها أساطين العلماء والوعاظ والقصاصين على اللسن والفصاحة فى التأثير على جماهير السامعين فى المساجد والمجامع .

(ب) (أهم خصائصها) :

١ – الطابع الإسلامى والعاطفة الدينية المتأججة .
٢ – كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم فى سهولة ويسر .
٣ – كثرة التمثل بالشعر القديم فى مواضعه المناسبة .
٤ – سهولة أسلوبها وقرب معانيها وفخامة ألفاظها .
٥ – ترابط أجزاء الخطبة وحسن تنسيقها ، وقصر فقراتها غالبا .

(ج) (أشهر رجالها) : الخطباء فى ذلك العصر كانوا كثرة هائلة نخص بالذكر منهم :

١ – من الخلفاء العباسيين : السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون ومن آلهم غير الخلفاء : عبد الله بن على عم السفاح وإخوته داود وسليمان وصالح وعيسى ، ومن أبناء هؤلاء عبد الملك بن صالح وجعفر ابن سليمان وداود بن عيسى وغيرهم ، ومن العلويين) عبدالله بن الحسن وأبناه : إبراهيم ومحمد الملقب بالنفس الزكية وجعفر الصادق والعباس بن الحسين .

« ومن العرب غير الهاشميين » : خالد بن صفوان المنقرى ، وشبيب ابن شيبة. ومن الموالى: أبو مسلم الخراسانى وطاهر بن الحسين ، وجعفر البرمكى والفضل والحسن ابنا ـ سهل ، وعبد الله بن طاهر ، وسهل بن هارون .

« ومن علماء الكلام » : عمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتمر وواصل ابن عطاء وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم بن سيار النظام . وثمامة بن أشرس » .

وفى نبوغ هـذا الفريق الأخير من علماء الكلام ـ وهم من المعتزلة ـ يقول شاعرهم صفوان الأنصارى :

وما كان سحبان يشق غبارهم ... ولا الشدق من حيى هلال وعامر
يصيبون فصل القول فى كل منطق ... كما طبقت فى العظم مـــدية جازر

« د » « أسباب ضعف الخطابة آخر العصر الأول » :

ثم ضعفت الخطابة فى أواخر هذا العصر باختفاء وضعف دواعى نهضتها السابقة ، ويتلخص ذلك فى الآتى :

١ ـ لم يكن الخلفاء العباسيون بعد « المتوكل » م ٢٤٧ هـ إلى بدء العصر البويهى ٣٣٤ هـ على مستوى الخلفاء الأوائل من قوة النخوة العربية إذا استثنينا شاعرهم « عبدالله بن المعتز » الذى لم يهنأ بالخلافة إلا يوماً واحداً .

٢ ـ بعد العهد بالخطباء المصاقع المطبوعين الذين ذكرنا بعضهم والذين كانوا أمثلة تحتذى .

٣ طغيان العناصر الأعجمية التركية على الخلافة وسلبهم الخلفاء

سلطة الحكم ، فضعفوا وانقطعت الرغبة فيهم والرهبة منهم وتقطعت بذلك أواصر الكلام بينهم و بين الناس ، وأصبحوا حبيسى القصور ، عديمى التأثير فى شئون الرعية .

« ه » « نماذج من الخطب فى عهد النهضة والازدهار » :

١ — خطب « السفاح » على منبر مسجد الكوفة بعد بيعته بالخلافة فقال :

« الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوامين به والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا ، عزيزاً عليه ما عنتنا ، حريصاً علينا ، بالمؤمنين رءوفاً رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال عز من قائل : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » وقال « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » . . . ثم قال : « يأهل الكوفة أنتم أهل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا وقد زادتها زدت فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير » .

٢ — ولما قتل (مروان بن محمد) آخر خلفاء بن أمية خطب السفاح بالشام فقال : (. . ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم

دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم الظلم ، ويتهورون بكم مداحض الزلق يطئون بكم حرم الله وحرم رسوله ماذا يقول زعماؤكم غدا ؟ يقولون : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل (لكل ضعف ولكن لاتعلمون) أما أمير المؤمنين فقد ائتلف بكم التوبة واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة ، وعاد بفضله على نقصكم وبحلمه على جهلكم ، فليفرخ روعكم ، ولتطمئن به داركم ، وليقطع مصارع أوائلكم (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) .

٣ — وخطب (أبو مسلم الخرسانى) بالمدينة المنورة فى خلافة السفاح (.. ألا إن آل (محمد) أئمة الهدى ، ومنار سبيل التقوى القادة الزادة السادة بنو عم رسول الله ﷺ ومنزل جبريل بالتنزيل ، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ، شيد الله بهم الهدى ، وجلى بهم العمى ، ولم يسمع بمثل (العباس بن عبد المطلب) وكيف لاتخضع له الأمم لواجب حق الحرمة ، أبو رسول الله بعد أبيه ، وجدى يديه وجلدة بين عينيه ، أمينه يوم (العقبة) وناصره بمكة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم « حنين » يوم التقى الجمعان لايخالف له رسما ، ولا يعصى له حكما ، ها . ان فى هذا أيها الناس لعبرة لأولى الأبصار » .

٤ — وبعد « مقتل أبى مسلم » خطب « المنصور » فى « المدائن » فقال « أيها الناس . لاتخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشية المعصية ولاتسروا غش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده وفلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وأبداها الله لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه ،

إنا لن نبخسكم حقوقكم ، وان نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبيء هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه »

٥ - ولما خرج « محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » على المنصور خطب فى أهل المدينة المنورة فقال : « أيها الناس إنه كان من أمر هـــذا الطاغية أبى جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه وتصغيره الكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال : « أنا ربكم الأعلى » وأن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار الموالين » - ثم قال - اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك ، وعملوا بغير كتابك ، وعيروا عهد نبيك ﷺ وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عددا ، واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا » .

٦ - ولما استشهد « محمد » هذا وبعث المنصور برأسه إلى أبيه « عبد الله » فى السجن مع حاجبه « الربيع » قال عبدالله ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ثم تمثل بقول الشاعر :

فتى كان يحميه عن الذل سيفه
ويكفيه سوءات الأمور اجتنابها

ثم قال الربيع : قل لصاحبك : قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن نعيمك

مثلها والموعد الله تعالى » .

٧ — ووفد « عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى » إمام أهل الشام على المنصور فقال يعظه : « ياأمير المؤمنين : إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت فيه ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيلها ونقيرها ولقد حدثنى عروة بن أبى رويم أن رسول الله ﷺ قال : « مامن راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالقسط فيما بينهم قائما ، لايتخوف محسنهم منه رهقا ، ولامسيئهم عدوانا ، فقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأتاه جبريل ، وقال يامحمد ماهذه الجريدة بيدك ؟ أقذفها لاتملأ قلوبهم رعبا .

فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبشارهم ، وأنهب أموالهم ؟ ؟

ياأمير المؤمنين إن المغفور له ماتقدم من ذنبه وماتأخر : دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشة أعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال يامحمد إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك ، واعلم أن كل مافى يدك لايعدل شربة من شراب الجنة ولاثمرة من ثمارها قال رسول الله ﷺ : « لقاب قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا بأسرها .... الخ »

٨ — وخطب « عبد الملك بن صالح » عم الرشيد وواليه على الشام يعنف أهلها على تثاقلهم عن النفرة إلى الحرب : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ياأهل الشام إن الله وصف إخوانكم فى الدين ، وأشباهكم فى الأجسام فحذرهم نبيه محمدا ﷺ فقال : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم

كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) فقاتلكم الله أنى تصرفون ؟ جثث ماثلة ، وقلوب طائرة ، تشبون الفتن ، وتولون الدبر إلا من حرم الله فإنه دريئتكم ، وحرم رسوله فإنه مغزاكم .

أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا أو لأوسعنكم إرغاماً ونكالا) .

٩ — وخطب (طاهر بن الحسين) قائد المأمون ببغداد يوم الجمعة بعد قتل (الأمين) : (الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يهدى كيد الخائنين إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا ، بل اختار الله للخلافة إذ جعلها عمادا لدينه وقواماً لعباده ، وضبط الأطراف وسد الثغور ، وإعداد العدة وجمع الفيء ، وإنفاذ الحكم ونشر العدل وإحياء السنة بعد إذبال البطالات ، والتلذذ بموبق الشهوات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعى غرورها ، محتلب دورة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها ، وقد رأيتم من وفاء موعود الله عز وجل لمن بغى عليه ، وما أحل من بأسه ونقمته لمن نكب عن عهده ، وارتكب معصيته ، وخالف أمره ، عبرة ناهية ، وعظة مؤدبة ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة ، واسلكوا مناهج سبل الجماعة ، واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قدحوا زناد الفتنة ، وصدعوا شعب الألفة فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة) ويلحق بالخطب : (الوصايا الشفهية) التى كان يقدمها الخلفاء فى مناسبات معينة لرجال الدولة وغيرهم فى أمور تقتضى ذلك ، و (المواعظ) التى كان يلقيها بعض العلماء والزهاد أمام

نصحا لهم ؛ وتذكيرا بواجباتهم نحو حق الله عليهم وحقوق الرعية قبلهم كذلك يلحق بها (المحاورات) التى كانت تدور بمجالس الخلفاء فى أمور سياسية أو علمية أو أدبية فقد كانت هذه الأبواب الثلاثة — كالخطب — مجلى من مجالى البلاغة والفصاحة ومعرضا من أوضح معارض النثر الأدبى فى ذلك العصر وقد سبق لك مثال للمواعظ وإليك أمثلة للوصايا والمحاورات فمن الوصايا السياسية :

١ — وصية الخليفة (المهدى) لولى عهده (الهادى) حين بعث به إلى خراسان على رأس بعث للقضاء على الفتن التى شبت فى هذا الإقليم وفيها يقول : (أى بنى : إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصابا ؛ ولمثنى أعطاف الرعية غاية ؛ فحسنتك شاملة ؛ وإساءتك نائية ؛ وأمرك ظاهر فعليك بتقوى الله وطاعته ؛ فاحتمل سخط الناس فيهما ؛ ولا تطلب رضاهم بخلافهما ؛ فأن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه ثم قال بعد وصايا كثيرة : (ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان ؛ وخيار الأمصار أقواما يكونون جيرانك وسمارك ؛ وأهل مسارتك فيما تورد ؛ وأصحاب مناظرتك فيما تصدر ؛ فسر على بركة الله ؛ أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدى إلى الصواب قلبك ؛ وهاديا ينطق بالخير لسانك ،

٢ — (من الوصايا التربوية) ما وصى به الخليفة « الرشيد » الأستاذ « على بن المبارك الأحمر » مؤدب ولده الأمين فقال : « يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ؛ فصير يدك عليه مبسوطة ؛ وطاعته لك واجبة ؛ وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ؛ أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ؛ وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ؛ وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ؛ وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا

عليه ؛ ورفع مجالس القوادإذا حضروا مجلسهولاتمرن بك ساعة الاوأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ؛من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ؛ ولاتمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ؛ وقومه مااستطعت بالقرب والملاينه فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

٣ — ومن « المحاورات السياسيه » ما كان بين الخليفة « الرشيد » وبين عمه (عبدالملك بن صالح) بعد ما سعى به إليه أنه طامع فى الخلافة فغضب عليه وحبسه ، ثم أتى به إلى مجلسه ليسمع منه حجته ويحاوره فكان الحوار كالآتى :

— عبد الملك : السلام عليكم ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

— الرشيد : (لا يرد السلام) ماحجتك فيما بلغنى عنك ؟

— عبد الملك : ليس هذا يوما أحتج فيه، ولاأجاذب منازعا وخصما

— الرشيد : ولم ؟

— عبد الملك : لأن أوله إذا جرى على غير السنة ، فإنما أخاف آخره .

— الرشيد : وماذاك ؟

— عبدالملك : لم ترد على السلام ، أنصف نصفة العوام .

الرشيد : وعليكم السلام اقتداء بالسنة ، وإيثارا للعدل واستعمالا للتحية .

أريد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبها قد همع [1] وعارضها قد لمع ، قد

---

(١) الشؤبوب الدفقة من المطر ، همع : سال

أورى نارا تسطع .

فأقلع عن براجم بلا معاصم[١] ورؤوس بلا غلاصم[٢] فمهلا مهلا فى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر ، وألقت اليكم الأمور أثناء أزمتها ، فنذار لكم نذار ، قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل[٣] .

– عبدالملك : اتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيته التى استرعاك ولاتجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشددت أواخى ملكك باثقل من ركنى يلملم[٤] وتركت عدوك مشتغلا فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد ان تبللنه بظن افصح الكتاب لى بعضهه[٥] او ببغى باغ ينهس اللحم ، ويلغ فى الدم ، فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور ، وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل فيك كابدته ، ومقام ضيق فرجته كنت فيه كما قال اخو بنى جعفر بن كلاب :

ومقام ضيق فرجته ... ببيانى ولسانى وجدل
لو يقوم الفيل او فياله ... زل عن مثل مقامى وزحل

---

(١) البراجم : مفاصل الأصابع والمعاصم جمع معصم وهو موضع السوار من اليد .
(٢) الغلاصم : جمع غلصمة جزء فى اعلى الرقبة .
(٣) صيغة مبالغة من لبط به الأرض : ضربها
(٤) يلملم : جبل على مرحلتين من مكة وهو ميقات اهل اليمن فى الحج .
(٥) بعضهه : بكذبه

- الرشيد : اما والله لولا الإبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك وامر برده إلى السجن .

٤ - ومن المحاورات الأدبية والعلمية) ما جرى فى مجلس الرشيد بين الأصمعى وجماعة من أهل الأدب والعلم واللغة منهم : الوزير جعفر البرمكى والشاعر العباس بن الأحنف والقاضى أبو يوسف والعالمان أبو عبيدة والكسائى وهذا جزء منها :

- أبو عبيده : من أشعر العرب ؟

- الأصمعى : أفصح الشعراء ألسنا وأعربهم أهل السروات - وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن - وهى ثلاث فأولها (هذيل (وهى تلى الرمل من تهامة ، ثم عليه السراة الوسطى ، وقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الأزد أزد شنوءة

- أبو عبيدة : ليس هذا ما نريد ياأصمعى ، وأنا أقول : افتتح الشعر بامرىء القيس وختم بابن هرمة

- يونس : ولكنى ارى ان (العجاج) أشعر أهل الرجز والقصيد ، إنما هو كلام (وأجودهم كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول : لو كان مكانه غيره كان أجود

- أبو عبيدة : لست أرى هذا تماما فالشاعر إنما كان يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى كان العجاج أول من أطال الرجز وقصده وشبب فيه وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها واستوصف مافيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعل الشعراء بالقصيد ، فكان فى الرجاز كامرىء القيس فى الشعراء وليس هو أشعر الشعراء .

— الرشيد : أتقولون هذا والأصمعى لا يتكلم ؟ إنه والله شيطان الشعر

— الأصمعى . سلونى أجب

— جعفر : قل لنا يا أبا سعيد . أى بيت تقوله العرب أشعر ؟

— الأصمعى : الذى يسابق لفظه معناه

— الكسائى . وماذا تقول فى شاعرين يتفقان فى المعنى الواحد ولم يسمع أحدهما قول صاحبه ؟

— الأصمعى . عقول الرجال توافقت على ألسنتها (يريد توارد الخواطر) .... الخ

الكتابة : أ — أنواعها

ونعنى بها هنا الكتابة الفنية الأدبية وتشمل ما يأتى :

١ — (الرسائل الديوانية) وهى الرسائل الرسمية التى كانت تصدر عن الخلفاء والوزراء مباشرة أو تصدر بأمرهم عن ديوان الرسائل بأقلام كتاب الدولة فى شتى الشئون من سياسية وغيرها ويلحق بها (العهود المكتوبة) التى كان يكتبها الخلفاء فى الأمور الخطيرة كولاية العهد ، وولاية قطر من الأقطار والمعاهدات مع الدول الأخرى ، وعهود الأمان التى كانت تبذل للخارجين على الدولة فى حالة توبتهم ودخولهم فى الطاعة ويلحق بها كذلك (الوصايا التحريرية) التى كان يصدرها الخلفاء كذلك فى مناسبات معينة لأولياء عهودهم وقوادهم وولاتهم فى البعوث والحروب والأمور ذات البال وذات الصبغة العامة .

٢ — (التوقيعات) وهى تلك الجمل القصيرة التى كان يكتبها الخلفاء أو الوزراء فى الذيل أو الحاشية مما كان يرفع إليهم من رقاع أو شكاوى ويكون فى هذه التوقيعات رأى الموقع فى موضوع الرقعة بعد استيعابه ، وكانت تكتب عادة بمداد مخالف فى اللون ، وتعتبر فصلا فى الموضوع وحكما فى القضية واجب النفاذ والتوقيعات ليست جديدة على العصر العباسى إذ لها سوابق فى العهدين السابقين (الخلفاء الراشدين وبنى أمية) إلا أنها كثرت فى العصر العباسى ، واشتدت العناية بها حتى آل أمرها فى أيام (الرشيد) إلى تخصيص منصب لشئونها يتولاه أحد نابهى الكتاب ، فيجلس بين يدى الخليفة فى أوقات عرض البريد والشكاوى عليه ويكتب ما يمليه عليه ، أو ينوب عنه فى ذلك بتوجيه منه .

٣ — (الرسائل الإخوانية) وهى رسائل خاصة كان يتبادلها أهل الأدب مع بعضهم البعض أو مع غيرهم من الرؤساء فى المناسبات الاجتماعية المختلفة كالتهنئة ، والتعزية والعتاب والاعتذار ، والاستعطاف ، والشوق ، والشكر ، والتوصية الخاصة ، والاستزارة ، والاستهداء والاستمناح .. الخ .

٤ — (الرسائل الأدبية العامة) التى كتبها بعض كبار الكتاب فى موضوعات منوعة ، ومعارف عامة تثقيفية وتهذيبية وترويحية فمنها مقالات مبثوثة فى الكتب التى ألفوها على نحو ما فعل (الجاحظ) فى كتابيه (البيان والتبيين) و (الحيوان) .

— وتعد هذه الموضوعات رائدة (لفن المقال) الذى ازدهر فى عصرنا الحديث ، ومنها رسائل مستقلة أميل إلى الطول توفى بعض الموضوعات المختارة حقها من البحث والاستقصاء والإفادة ، مثل (رسالة الصحابة) التى

كتبها ابن المقفع لتكون دستورا لموظفى الدولة فى عهد المنصور ، ومثل رسالة (بشر بن المعتمر) فى تعليم فن الخطابة ، ورسالة (سهل بن هارون) فى البخل ورسائل كثيرة (للجاحظ) إمام الكتاب فى العصر العباسى الأول منها : رسالة له فى (فضل اتخاذ الكتب) وأخرى فى (فضل التجارة وذم عمل السلطان) ورسالة فى (الرد على الشعوبية) ورسالة فى (الأخلاق) ورسالة فى (القيان) المغنيات ورسالة فى (التفاح) .. الخ .

٥ - (القصص) : القصة إحدى فنون الأدب العربى المهمة فى عصرنا الحاضر وقد اتهم أدبنا العربى من جانب المستشرقين ومن جاراهم بأنه كان خالياً من الفن القصصى فى العصر العباسى بيد ذلك الزعم ، ويثبت أنه كانت هناك نواة جيدة للقصة العربية فى ذلك العصر وإليك البيان : من المأثور عن العرب الجاهليين أنه كانت لهم قصص يروونها فى مجالسهم ويستمعون اليها فى منتدياتهم ومعظمها كان متعلقاً بحروبهم وأيامهم المشهورة كقصة حرب البسوس وغيرها ، بيد أنهم لم يدونوها لندرة الكتابة فيهم ، وجاء القرآن الكريم كتاب الإسلام الخالد مشتملا على روائع القصص وبخاصة قصص الأنبياء للذكرى والاعتبار ، واكتفى المسلمون بتفسير هذا القصص وتفصيله ضمن ما فسروا من كتاب الله العزيز ، دون أن يضعوا قصصاً إلا ما كان من حفظهم وروايتهم لسيرة النبى عليه السلام وأخبار غزواته وأخبار الفتوح التى تمت فى عهد خلفائه الراشدين وقد اشتمل كل ذلك على قصص واقعى جميل إلى جانب شذرات من القصص الجاهلى (الخيالى) الذى كان مرتبطاً ببعض الأمثال العربية (والواقعى) المرتبط ببعضها الآخر والذى كان يروى لما فيه من عبرة نافعة[1] ، وقد روت كتب الأدب ما حدث به

---

(١) راجع مجمع الأمثال للميدانى .

(عمرو بن معد يكرب الزبيدى) أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) من قصص واقعى شائق عن أشجع من رأى ، وأعجب ما رأى فى حياته الحافلة ـ وهو أحد الأبطال الشجعان فى الجاهلية والإسلام لكن عهد صدر الإسلام وعهد بنى أمية وليا دون أن تكتب قصص عربية .

فلما جاء العصر العباسى الأول وترجم (عبد الله بن المقفع) كتاب (كليلة ودمنة) فى عهد المنصور ، وهو كتاب قصص شائق ـ سبقت الإشارة إليه ـ أعجب به الأدباء ، وفكروا فى النسج على منواله .

ولقد كانت ترجمة هذا الكتاب فى القرن الثانى الهجرى فاتحة لكتابة القصة عند أدباء العرب ؛ إذ شغلوا به أولا فنقلوه من النثر إلى النظم على يد (أبان اللاحقى) وآخرين ثم حاكوه بتأليف قصص رمزى على غراره وممن حاكاه مترجمه (عبد الله بن المقفع) وناظمه (أبان) المذكور ؛ و (على بن داود) كاتب السيدة (زبيدة) زوج الرشيد و (سهل بن هارون) الكاتب ، مدير (بيت الحكمة) أيام الخليفة (المأمون) فى كتابه « ثعلة وعفرة » :

ثم جاء القرن الثالث الهجرى وفى عهد الخليفة «الواثق» ٢٢٠ ـ ٢٣٢ هـ .

ترجم له المترجمون كتاباً قصصيا فارسياً جديداً هو كتاب « هزار أفسانه » ومعناه : ألف خرافة ، ومنه نشأ الكتاب الشعبى العربى « ألف ليلة وليلة » وذلك أنه لما ترجم هزار أفسانه ويكاد يكون أعظم تشويقاً من كليلة ودمنة لطوله واتساع قصصه وامتيازه بالخيال الواسع واشتماله على كثير من الأعاجيب والغرائب والطرائف ـ شغف الناس به وفتن به الأدباء ، فأخذوا فى محاكاته كذلك واتخذت محاكاتهم إياه طريقين : « أولهما » وضع قصص على غرار ما فيه وإضافتها إليه حتى صارت جزءاً

مثله وأكسابه الاسم الجديد «ألف ليلة وليلة» والجزءان : «الأصلى الفارسى» و «العربى الموضوع» مختلطان ، إلا أن التفرقة بينهما يسيرة فما كان من قصصه إسلامياً يصور الحياة فى بغداد وغيرها فهو الموضوع وما كان من قصصه قبل الإسلام عن العجم وملوكهم فهو الأصلى المترجم .

«والطريق الثانى» أنهم وضعوا كتباً مستقلة عنه لكنها على مثاله منها ما صنعه «محمد بن عبدوس الجهشيارى» حين شرع فى تألف كتاب أسماه «ألف سمر من أسمار العرب والعجم» ويختلف عن ألف ليلة وليلة بأن سمر كل ليلة مكون من قصة تامة مستقلة عما قبلها وما بعدها وقد وصل فيه إلى اربعمائه وثمانين قصة طويلة تبلغ الواحدة منها خمسين ورقة كما يروى «ابن النديم» فى كتابه «الفهرست» ثم انتقل لأدباء فى هذا العصر إلى مرحلة أرقى فى كتابة القصة وهى الاستقلال بقصص يجمع إلى عروبة الصياغة عروبة الأصل والمنبع ، قصص عربى خالص ، وتم لهم ذلك حين اتجهوا إلى أيام العرب فى الجاهليـة يستمدون منها «قصصاً حماسية بطولية» وإلى أخبار المحبين أصحاب الهوى العذرى العفيف فى العصر الأموى يستمدون منها«قصصاً عاطفية»فظهر من النوع الاول «قصة البراق» التى وردت فى كتاب «جمهرة أخبار العرب» لعمر بن شبة[1] المتوفى عام ٦٠٠ هـ .

وهى قصة تصور بطولة زعيم عربى شجاع هو «البراق» أحد فرسان «ربيعة» فى الجاهليـة ، تلك البطولة التى تجلت فى حروبه مع قومه ضد أعدائهم من العرب والفرس[2] وظهرت من النوع الثانى قصص عن

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٢) وعن هذه القصة أخذت قصة «ليلى العفيفة» لعادل الغضبان «سلسلة اقرأ ١٣٥» .

جميل بن معمر) صاحب بثينة و (قيس بن ذريح) صاحب لبنى و (قيس بن الملوح) صاحب ليلى والمشهور (بالمجنون) - وإن كانت هذه القصص - من أسف - قد نفدت وإن بقيت أسماؤها فى مثل فهرست ابن النديم [٣] ولو كانت قد وصلت الينا لأمكننا أن نقارن بينها وبين القصة الحديثة بمقوماتها الفنية المعروفة وعلى أية حال فقد احتل القصص بمعناه العام وبغض النظر عن وضعه الحالى الناتج عن تطوره على مر القرون - احتل فى النثر العباسى منذ العصر الأول مكانا مرموقا ، ومحلا كريما ، وكانت له خطوة عربية خالصة أخرى نحو الأمام هى (المقامة) التى ستدرس فى الحلقة الثانية إن شاء الله .

ب - (دواعى نهضة الكتابة)

كانت الدواعى إلى نهضة الكتابة بأنواعها فى هذا العصر كثيرة ومن أهمها :

١ - حاجة العباسيين إليها فى نشر دعوتهم وإقامة دولتهم الجديدة ومقاومة خصومهم بالكلمة إلى جانب السيف .

٢ - حاجة الدولة الجديدة - بعد أن قامت إلى تثبيت دعائمها بكتاب مجيدين لتولى شئون دواوينها المختلفة ، وتصريف شئونها ، ومعاونة خلفائها ووزرائهم فى تحرير مكاتباتها الرسمية المختلفة ، وفى التوقيع على الشكاوى والظلامات .

---

(٣) وبقيت لنا متفرقات من أخبار أبطالها فى مثل (الأغانى) لأبى الفرج الاصفهانى كانت مادة لكثير من القصص والمسرحيات فى أدبنا

٣ ـ عناية الدولة (بديوان الرسائل) ـ الذى سمى بعد ذلك (ديوان الإنشاء) ـ حتى صار بمثابة مدرسة عليا يتدرب فيها الكتاب ويتخرجون وكان الكتاب فيه طبقات بحسب إجادتهم ولهم كبير من نوابغ الكتاب يقوم برئاسة الديوان وتصريف شئونه .

٤ ـ تكريم الدولة لهؤلاء الكتاب فكانت تغدق عليهم المرتبات السخية وكانوا يتدرجون فى المناصب ورئيسهم فى مرتبة وزير ، وغالبا كان يختار منهم الوزير الأكبر للخليفة الذى كان بمثابة (رئيس الوزراء) بلغة عصرنا الحاضر (كيحيى بن خالد البرمكى) و (الفضل بن سهل) ، (ومحمد بن عبد الملك الزيات) وغيرهم .

٥ ـ حاجة المجتمع العباسى المثقف إلى الكتابة الإخوانية فى شتى شئونه الإجتماعية والى مايغذى عقله ووجدانه من الكتابة الأدبية والقصص المنوع .

٦ ـ تزود الكتاب بالثقافتين العربية والأجنبية من حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأشعار العرب الأقدمين إلى استيعاب للأدب والثقافات المترجمة لاسيما الفارسية مع حرصهم على التحلى بكل مايرقى صناعتهم حتى مدحهم (الجاحظ) وهو من هو ، وقال فيهم الشاعر :

وشمول كأنما اعتصروها ... من معانى شمائل الكتاب !!

ج ـ أعلام الكتابة

يطول بنا القول لو عددنا كتاب العصر العباسى الأول من المجيدين لوفرة عددهم ولكننا نكتفى بذكر بعض أعلامهم المبرزين وعلى

رأس هؤلاء يقف (عبدالله بن المقفع) زعيم الطبقة الأولى فى عهد المنصور ومن كتابها : (عمارة بن حمزة) ، (وأبو أيوب الموريانى) وجاءت بعدهم طبقة ظهرت فى عهد الرشيد وابنيه الأمين والمأمون منها (عبد الملك بن صالح) ، ويحيى بن برمك) ، ويعقوب بن داود) فطبقة جعفر والفضل البرمكيان والفضل والحسن ابنا سهل وعمرو بن مسعدة) ، ثم طبقة على رأسها (الجاحظ) ممن نبغوا بعد عهد المأمون منهم (محمد بن عبدالملك الزيات (وابراهيم الصولى) (وسعيد بن حميد) و(والحسن بن وهب) وغيرهم .

د ـ الخصائص الفنية للكتابة

١ ـ سهولة اللفظ والعبارة مع روعة الأسلوب وجودة السبك والميل إلى طريقة الترسل البعيدة عن تكلف المحسنات إلا ما جاء عفو الخاطر هذا فى معظم العصر العباسى الأول ، أما فى آخرة فاتجه الكتاب إلى التنميق واستعمال التحسين البديعى عن قصد ، كالسجع والجناس والطباق وغيرها .

٢ ـ قوة المعنى ودقته ، وشرف الفكرة ووضوحها ، وكثرة الاستشهاد والاستدلال المنطقى .

٣ ـ الميل للايجاز فى أول العصر ، ثم آثروا الاطناب فى وسطه وآخره ، لاتساع الثقافة من جهة ، ولإكثارهم من ترادف الكلمات وازدواج الجمل من جهة أخرى .

٤ ـ الاهتمام بالألقاب لتفخيم الخلفاء والرؤساء على عادة الفرس واستعمال عبارات الدعاء كأيدك الله وأطال الله بقاءك وعافاك الله ..... الخ .

٥ ـ الاهتمام بالمقدمات والخواتيم فزادوا فى المقدمة ـ فى عهد الرشيد ـ الصلاة والسلام على النبى ﷺ بعد البسملة والسلام وحمد الله تعالى ، وأضافوا للخليفة (الإمام) وزاد المأمون كنية الخليفة (أبو فلان) .

٥ ـ نماذجها

(أ) من الكتابة الديوانية) : عهد البيعة من الرشيد لولدية (الأمين والمأمون) :

(هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين فى صحة من عقله ، وجواز من أمره طائعا غير مكره ، أن أمير المؤمنين ولانى العهد من بعده وصير البيعة لى فى رقاب المسلمين جميعا ، وولى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدى برضا منى وتسليم طائعا غير مكره ، وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها . . وجميع أعمالها فى حياته وبعده) وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضا منى وطيب نفس أن لأخى عبدالله بن هارون على الوفاء بما عقد له أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعا من بعدى . .)

٢ ـ وكتب (عمرو بن مسعدة) على لسان الخليفة المأمون رسالة إلى (نصر بن شبث) أحد الخارجين على الدولة :) . . أما بعد فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها ، وبرد ظلها وطيب مرتعها ، وما فى خلافها من الندم والخسارة وإن طالت مدة الله بك ، فإنه إنما يملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه ، لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم وقد رأيت إذكارك وتبصيرك ، لما رجوت أن يكون ما أكتب به إليك موقع منك ، فإن الصدق صدق والباطل باطل ... فبأى أول لما آخر أو سطة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين ؟ تأخذ ماله ، وتتولى دونه ما ولاه الله ، وتريد أن تبيت آمنا مطمئنا ، أو وادعا ساكنا أو هادئا ؟ فو عالم السر والجهر لئن لم تكن للطاعة مراجعا ، وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة ، ثم لأبد أن

بك قبل كل عمل فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة فى الأرض وفساداً كبيراً وقد أعذر من أنذر والسلام).

ب - (ومن التوقيعات) : وقع السفاح (لعامل تظلم منه الناس : ((وما كنت متخذ المضلين عضدا)) ووقع (المنصور) لعامل (أرمينية وقد أخبره أن جنده شغبوا عليه ونهبوا بيت المال : (اعتزل عملنا مذموما مدحورا ، فلو عدلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينهبوا) .

ووقع « الرشيد » لعامله بخراسان « « داوجرحك لا يتسع » » ، ووقع « جعفر » البرمكى عن الرشيد إلى عامل كثر التظلم منه : « « كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما عدلت وأما اعتزلت » » ، ووقع الفضل بن سهل عن « المأمون » لعامل متسرع : « « إن أسرع النار التهابا أسرعها خمودا فتأن فى أمرك » » .

جـ - « من الرسائل الإخوانية » وكتب « أحمد بن يوسف » من كتاب المأمون فى التهنئة بمولود : « « أما بعد فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به جهجا . . . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سريا أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سرورى لذلك ، وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه ، وجعله باراتقيا ، يشد عضدك ، ويكثر عددك ، ويقر عينك » » .

- وكتب « عمرو بن مسعدة » إلى صديق له من الرؤساء فى توصية برجل:

« « كتابى إليك كتاب معنى بمن كتب له ، واثق بمن كتب إليه ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية والسلام .

ـ وكتب « الحسن بن وهب » فى الشكر : «« من شكرك على درجة رفعته إليها أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة [1] أبقيتها ، ورمق أمسكت به ، وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ، ومدى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرف خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف وأطالت الشكر ، وتجاوزت قدره ، وأتت من وراء كل غاية ، رددت عنا كيد العدو ، وراغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل ، وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ؟ وأين يبلغ جهد المجتهد ؟ »

ـ وكتب « عبدالله بن المعتز » إلى صديق له مريض : « « أذن الله فى شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافيه عليك ، ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك والسلام »

هـ ـ « من الرسائل الأدبية العامة » كتب « عبد الله بن المقفع المتوفى عام ١٤٣ هـ عن آداب السلطان من كتابه « الأدب الكبير » « « إن ابتليت بالإمارة فتعوذ بالعلماء ، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها فيريد أن ينقص من ساعات دهنه وشهوته وإنما الرأى له ، والحق عليه ، أن يأخذ لعمله من جميع شغله ، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه . . . وإياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فتكون ثلمة [2] من الثلم يتقحمون عليك

«١» الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

«٢» الثلمة : بضم الثاء وتشديدها الثاء فرجة المكسور والمهدوم .

منها ، وبابا يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها وأعلم أن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده فان الراد له محمود ، والقابل له معيب))

ـ وكتب (الجاحظ) أبو عثمان عمرو بن بحر الكنانى المتوفى عام ٢٥٥ ﻫ فى ذم الحسد :

((الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود علاجه عسر وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض وأمره متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه فى عناء ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : ((دب اليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء ، منه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الخلطاء ، يكمن فى الصدور كمون النار فى الحجر . الخ)

ـ ومن نثره يصف الكتاب ((الكتاب نعم الذخر والعقدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علما ، وظروف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا ، إن شئت كان أعيا [١] من باقل ،

---

(١) من العى (بكسر العين) وهو العجز عن الكلام و (باقل) رجل احمق ضربت العرب المثل به فى العى .

وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرتك نوادره ! وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله[1] وبناسك فاتك؟ وناطق أخرس . ولا أعلم جارا آمن ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملالا ولا إبراما ولا أبعد من مراء ؛ ولا أترك لشغب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال من كتاب . . . الخ

---

(١) مله : من الملل

ثانيا

العصر العباسي الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وآله ومن اتبع هداه،

وبعد

فقد قررنا أن العصر العباسي بعامة من أحفل عصور الإنسانية بالعلم والأدب والفن ، ومن أخصب أزمان البشرية بالنتاج العقلي والزاد الثقافي، ومن أبرزها في مجالات النهضة والتقدم والرقي المادي والمعنوي ، وهو مجلى الحضارة الإسلامية الزاهرة ، ومعرض مفاخرها البديعة الخالدة ، فإذا التفتنا فيه إلى الناحية الأدبية خاصة قلنا غير مغالين إنه العصر الذهبي للأدب العربي وإذا كان مؤرخو الأدب المحدثون قد اصطلح معظمهم على تقسيمه إلى عصرين مستقلين ، فإن عصره الثاني — الذي نقدم هذه الحلقة عنه هو في حقيقة الأمر امتداد لعصره الأول ، ففيه كثير من خصائصه ومزاياه ، مع انفراد العصر الثاني مع ذلك بجملة من الخصائص التي اقتضاها ما جد[1] فيه من متغيرات جمة ، وما اكتنفه من فتن وأحداث سياسية أهمها أن الانقسام الذي كان قد بدأ يصيب الدولة العباسية العظمى كثر وأصبح ظاهرة خطيرة ، وأن بعض هذه الدويلات التي نشأت على حساب الدولة الكبرى تعاظم شأنه ، وتفاقم خطره حتى بسط سلطانه على عاصمة الخلافة نفسها ، وما نتج عن ذلك من مشكلات أهمها ازدياد ضعف الخلافة العباسية وهي رمز قوة الأمة، ومناط عزتها ووحدتها فانفرط عقد الزعامة الإسلامية وزالت هيبتها ، ووهي سلك نظامها وهان خلفاؤها وتفرقت هذه الأمة

---

(١) كان الضعف قد بدأ في النصف الثاني من العصر الأول بعد مصرع الخليفة (المتوكل) عاشر الخلفاء العباسيين على يد جنوده من الأتراك عام ٢٤٧هـ

الواحدة شيعا وأحزابا ، ودولا وامارات شتى يكيد بعضها لبعض ويحارب فريق منها الآخر — مما أطمع الأعداء المتربصين بالدولة الاسلامية فهاجموها بضراوة وعنف من ناحية الغرب ثم من جهة الشرق [1] ، وانتهى الأمر بالنهاية المأساوية المروعة للدولة العباسية على أيدى التتار وما صاحبها من نكبات فاجعة أليمة بتدمير (بغداد) التى كانت عاصمة الدنيا وزينة الدهر ، وسحق مظاهر حضارتها الباهرة وضياع الجانب الأعظم من تراثها العلمى والأدبى الزاخر، إثر اجتياح المغول وإتلافهم كنوزه الثمينة النادرة من الكتب والمؤلفات التى كانت ثمرة جهود الألوف المؤلفة من العلماء الأفذاذ المخلصين على مدى أكثر من خمسة قرون من الزمان .

وقد لمع فى العصر العباسى الثانى من فطاحل الشعراء وترابع الكتاب ماتفخر به الأمة العربية على مر العصور ، وممن كانوا غُرَرًا فى جبين الدهر وبدورا فى سماء الأدب من أمثال (المتنبى) و (الشريف الرضى) و (أبى فراس الحمدانى) و (أبى العلاء المعرى) و (مؤيد الدين الطغرائى) فى الشعراء ، ومن أمثال (ابن العميد) و (الصاحب بن عباد) و (الخوارزمى) و (بديع الزمان الهمذانى) فى الكتاب .

وهذه — أيها القارىء الكريم . . . دراسة فى تاريخ أدب هذا العصر (الثانى) أرجو أن يكون فيها مع الايجاز والتركيز — إحاطةٌ بأهم نواحى ذلك الأدب شعره ونثره ورجاله ، وعنايةٌ صادقة بتحليل الظواهر الأدبية وتعليلها، ومحاولةٌ مخلصة للوصول من ذلك إلى نتائجَ محددةٍ ، وقضايا واضحةٍ وفاء بحق هذه الحقبة العظيمة من تاريخنا الأدبى والعلمى ،الجديرة بمزيدٍ مين البحث عن خباياها ، ومرصولٍ من الدراسة فى نواحيها والتى كان الرجوعُ

---

(١) الهجوم من الغرب كان من الروم والصليبين ، والهجوم من الشرق كان من التتار .

إلى بعض آثارها فى الشعرِ والكتابةِ (فى مطالع العصر الحديث) عاملاً قويا مِنْ عواملِ نهضتِنا الأدبيةِ الحديثة ، ومن اللهِ تعالى أستمدُّ العونَ والتوفيق ، فنِعم المولى ونعم النصير .

الباب الأول

أضواء على العصر العباسى الثانى

أ - تحديد العصر وأهم الدول التي قامت فيه:

التاريخ الأدبي لعصر من العصور يرتبط كل الارتباط بتاريخه السياسي . إذ التاريخ السياسي هو الإطار العام الذي لابد من تصوره والإحاطة بأهم أحداثه ليسهل على الدارس فهم ماقام في داخله من حركات ثقافية ، وحياة علمية وأدبية وفنية . والعصر العباسي بعامة عصر طويل ، امتد على مدى خمسة قرون وربع القرن : من نهاية الثلث الأول للقرن الثاني من الهجرة إلى منتصف القرن السابع الهجري (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) (٧٥٠ - ١٢٥٨ م) وقد جرى أكثر مؤرخي الأدب في عصرنا الحديث - كما أشرنا آنفا - على تقسيمه إلى عصرين كبيرين .

١ - (العصر العباسي الأول) ومدته قرنان من الزمان : من قيام الدولة العباسية عام ١١٢ هـ إلى حادث دخول البويهيين (بغداد) متسلطين على مقاليد الأمور فيها ، وذلك في عهد الخليفة (المستكفي بالله)[1] عام ٣٣٤ هـ ، وتجدر الإشارة إلى أن العصر الأول ذو مدتين سياسيتين متميزتين

أ - المدة الأولى . (عهد قوة الخلفاء وعظمة الخلافة) من عام ٣٢ هـ إلى عام ٢٤٧ هـ ويشتمل على أيام حكم الخلفاء العشرة الأول من بني العباس وأولهم (أبو العباس السفاح) وآخرهم (جعفر المتوكل) الذي كان مصرعه خاتمة لهذه المدة .

ب - المدة الثانية . (عهد تحكم الأتراك من قادة الجيش في أمور الخلافة) من مصرع (المتوكل) المشار إليه إلى بدء سيطرة البويهيين على بغداد

---

(١) هو الخليفة الثالث والعشرون أبو القاسم عبدالله بن المكتفي

المشار إليه أيضا .

٢ — (العصر العباسى الثانى) ومدته ثلاثة قرون وربع القرن تقريبا ويبدأ من عام ٣٣٤ هـ بالحادث المنوه به واستيلاء (البويهيين) على بغداد ، وينتهى بالحادث الذى أنهى تاريخ الدولة العباسية الحافل وطوى صفحاتها الغراء ، وهو سقوط (بغداد) فى أيدى التتار المخربين ، ومقتل الخليفة (المستعصم بالله)[1] آخر الخلفاء العباسيين هو وأبنائه على أيديهم فى أواخر المحرم من عام (٦٥٦ هـ الموافق ١٠٥٨ م)

إذن فحادث نجاح البويهيين أو (بنى بويه) فى دخول بغداد ظافرين وهيمنتهم على شئون الحكم فيها ، هو المعتبر بداية للعصر العباسى الثانى وهو حادث خطير إذ كان أول حادث من نوعه تتعرض فيه (بغداد) عاصمة الخلافة لغزو خارجى من حكام ولاية تابعة لها ، ولقد كان هذا الحادث فاصلا بين عهدين أسودين من الناحية السياسية : عهد تحكم (العناصر التركية) فى شئون الخلافة وهو (تحكم داخلى نشأ فى داخل بغداد من قادة الجيش منذ مصرع المتوكل) وعهد تحكم (العنصر الفارسى الديلمى) طيلة عهد البويهيين ، وهو (تحكم خارجى) من بعض حكام الأقاليم التابعين للدولة وإلى جانب ما لهذا الحادث من دلالات سياسية . وآثار اجتماعية فقد كان له أثره الواضح فى تطور الحركة الثقافية وتحديد مسارها فى تلك الحقبة من الزمان ولهذا كان من الضرورى إلقاء الضوء على وقائع هذا الحادث ، وعلى الظروف التى أحاطت به وأدت إليه باعتباره أول الأحداث المهمة فى العصر العباسى الثانى .

---

(١) هو الخليفة السابع والثلاثون أبو أحمد عبدالله بن الظاهر

١ (الدولة البويهية) : نشأتها وتمكنها واضمحلالها (٣٣٤-٤٧ هـ) :

فى أيام الخليفة (القاهر بالله) ، وهو الخليفة العشرون فى سلسلة الخلفاء العباسيين (٣٢٠-٣٢٢ هـ) بدأ أمر الأسرة البويهية فى الظهور فى بلاد فارس على أكتاف ثلاثة من الأخوة المغامرين هم : (على) و (الحسن) و (أحمد) وكان أبوهم رجلا فارسيا فقيرا من عامة الناس اسمه (أبو شجاع بويه) يعمل فى صيد السمك[1] وقد أوتى أولاده حظا من الذكاء والقوة البدنية ؛ فلما بلغوا مبلغ الرجال احترفوا الجندية ، على اعتبار أنها من وسائل تحقيق الطموح إلى جانب كونها من أسباب كسب الرزق ، وكان أول اشتغالهم بالجندية دخولهم فى خدمة أمير من أمراء العجم هو (ماكان) الديلمى الذى كان يحكم فى إقليم (طبرستان)[2] الفسيح وخلفه فى الحكم الأمير (مرداويج) فالتحقوا بخدمته وأظهروا من الهمة والكفاية ما رفعهم إلى مراتب حاشيته ، وصاروا موضع ثقته فولى أحدهم وهو (على) حكم ولاية (الكرج)[3] نيابة عنه ، وتولى أخوه (الحسن) جباية الأموال فى بعض جهات فارس لبعض أمرائها ، ومضى (أحمد) على سنة أخويه فى خدمة أمراء العجم والبحث عن مكان يحقق فيه آماله . أما (على) فساعدته الظروف على الاستقلال بالكرج بعد أن استمال أهلها بدهائه ثم أخذ فى توسيع منطقة نفوذه ، حتى ضم إليها (أصفهان) و (ارجان) ثم امتلك بعد ذلك (شيراز عام ٣٢١ هـ وأما (الحسن) فقد نجح فى إبسط سلطانه على (الرى) و (والجبل)

---

(١) راجع كتاب (الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية) لابن طباطبا .

(٢) اقليم متسع ببلاد العجم يجاور خراسان

(٣) مدينة بين همذان وأصبهان

وأما (أحمد) فقد ظفر بولاية (الأهواز) وهكذا لم يمض غير قليل حتى عم نفوذ هذه الأسرة معظم بلاد فارس، وصارت لهم بها اليد الطولى والحكم النافذ، ولقد أراد (على بن بويه) أكبرهم ملكا أن يضفى الشرعية على ولايته وماتحت يده من البلاد فأرسل إلى الخليفة فى ذلك الوقت وهو (الراضى بالله)[١] يطلب اليه أن يقره سلطانا على ماتحكمه فى مقابل أن يبعث إلى دار الخلافة مبلغا ضخما من المال فى كل عام فأجابه الخليفة إلى ماسأل وبعث اليه رسولا يحمل معه خلعة السلطنة ومنشورها، (وكان السائد فى تلك الأيام وبخاصة فى الأقاليم أن الحكم فيها لمن غلب من الاقوياء وماأسهل أن تعترف الخلافة بحكمه كأمر واقع مادام يؤدى الخراج كل عام إلى خزانة بغداد المعطشى، بغض النظر عن أحقيته بالولايه أو رأى الخلافة والرعية فيه) ولقد حذر (الخليفة الراضى) رسوله إلى (على بن بويه) من أن يسلمه وثائق الاعتراف به قبل أن يتسلم منه المال[٢]، لكن (عليا) خدع رسول الخليفة، فأخذ منه الخلعة فلبسها، وبرز بها إلى الناس، والمنشور فقرأه على رءوس الأشهاد ووعد الرسول بالمال ثم ماطله حتى مات عنده؛ ولم يصل إلى الخليفة شىء؛ وكانت هذه الخدعة الماكرة بداية علاقة (بنى بويه) ببنى العباس.

وباستيلاء (على) هذا على (شيراز) واستيلاء أخيه (أحمد) على (الأهواز) أصبح البويهيون على حدود العراق، فطمحت أنظارهم إلى (بغداد) مقر الخلافة وقصبة الإسلام!! ولم لايطمعون فى دخولها وبسط

---

(١) هو الخليفة العباسى الحادى والعشرون (٣٢٢ - ٣٢٩) هـ

(٢) كأنما أحس الخليفة بالغدر المبيت له وقد أصبح الأمر حقيقة يخشى أن يغبن فيها، بدلا من كونه أمانة توضع فى أهلها ويراعى فيها المصلحة العامة للأمة

سيطرتهم عليها وقد آل الأمر فيها إلى ماسنصفه لك بعد قليل ؟

(حالة الدولة العباسية قبيل دخول البويهيين بغداد) :

كانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت فى أسوأ أحوالها ترزح تحت نير تحكم العناصر التركية المسيطرة على الجيش ، والخليفة أشبه بأسير فى قبضتهم أو بألعوبة بين أيديهم يولون من أرادوا ويعزلون من ليس على هواهم ، فالخليفة (القاهر) الذى قدمناه ذكره والذى كان بدء أمر (بنى بويه) فى عهده ، يتآمر عليه "قادة الأتراك ، فيقبضون عليه ويعزلونه ويحبسونه ويسلمون عينيه"[1] وخليفته (الراضى) الذى اسلفنا حديث انخداعه لعلى بن بويه كان خاضعا لمشيئة هؤلاء ، القادة من الترك فى عزل الوزراء وتوليتهم على حسب الأهواء والأغراض الشخصية ، وكثر ذلك فى عهده حتى أحدث أزمة مستحكمة ، فلم يوجد من يتولى هذا المنصب الخطير الذى يلى منصب الخليفة ، أو على الأصح تهرب الأكفاء منه خوفا على حياتهم ، كانوا يقتلون أو يحبسون ويصادرون لأوهى الأسباب بيد الجنود الأتراك ، ومن يتجرأ على فعل ذلك بالخلفاء ، لايرعوى عن فعل مثله مع الوزراء ، فاضطر الخليفة الراضى إلى إلغاء هذا المنصب العتيد . واستبدل به منصبا جديدا هو (إمرة الأمراء)[2] حين استدعى أحد الولاة الأقوياء ، وهو (محمد بن رائق) والى (واسط) وأعطاه إمارة الجيش ومقاليد الحكم فى بغداد ولقبه بأمير الأمراء ، وأمر بأن يدعى له على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء للخليفة ، ولئن كان حكم الخليفة بواساطة الوزراء أقرب إلى النظام والدمقراطية ، لقد كان حكمه عن طريق أمير الأمراء أقرب إلى مانسميه اليوم بالأحكام

---

(١) يفقئونها .

(٢) راجع صفوة تاريخ الخلفاء العباسيين لمحمد طه محمود ج ٤ .

العرفية ، وأدخل فى باب الاستبداد (الدكتاتورية) على أن الكلمة العليا لأمير الأمراء وليس للخليفة معه شيء ، ويصبح المنصب الجديد ببريقه الخلاب وسلطاته المطلقة المغرية ، محل طمع أمراء الجيش فى بغداد وموضع تطلع من يأنس فى نفسه القوة من حكام الأقاليم القريبة والبعيدة طمع فيه (بجكم) التركى والى (واسط) الجديد ، وناله بعد حرب بينه وبين ابن رائق وطمع فيه (البريدى) والى خوزستان وبعد محاولات أخذه عنوة لمدة أربعة وعشرين يوما هرب فيها الخليفة[1] إلى الموصل ثم حازه (كورتكين) الديلمى ، ثم كان من نصيب « ناصر الدولة حمدان » وتقلده من بعده « توزون » التركى الذى اختلف مع الخليفة المتقى فى بعض الأمور فقرر توزون خلع الخليفة وتم له ما أراد ، ثم قبض عليه وسمل عينيه ، وولى مكانه « المستكفى بالله » عام ٣٣٣هـ .

« زحف البويهيين على بغداد » :

رأى البويهيين — عن كثب — هذه المهازل التى جرت وقائعها على مسرح الخلافة فى مدة يسيرة لا تتجاوز أربعة عشر عاما من ٣٢٠ — ٣٣٣هـ ورأوا أنه قد آن الأوان للتدخل وبسط نفوذهم القوى على بغداد ، وانتهزوا فرصة موت أمير الأمراء « توزون » عام ٣٣٤هـ واختيار الخليفة خلفا له القائد التركى « زيرك بن شيرزدان[2] » ولم يكن ذا قوة كـ سلفه فزحف « أحمد بن بويه » والى الأهواز الطامع فى منصب إمرة الأمراء على بغداد فى تلك السنة ، بجيش قوى من الفرس الديالمة ، ففر « زيرك » منهزما واختفى الخليفة « المستكفى » ليرى إلى من تصير الامور ، فلما استقرت للقادم الجديد ظهر الخليفة ،

---

(١) هو الخليفة إبراهيم « المتقى بالله » الذى بويع بعد « الراضى » .

(٢) المرجع السابق .

وأظهر السرور بقدم (أحمد بن بويه) وولاه إمرة الأمراء ، وأجرى له كل المراسم الخاصة بهذا المنصب ؛ فعقد له اللواء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة ؛ وفوض إليه أمور الخلافة ومنحه لقب (معز الدولة) كما منح عليا والحسن لقبي (عماد الدولة) و (ركن الدولة) ، وأمر بأن تضرب ألقابهم تلك على الدينار والدرهم فعظم شأن (بنى بويه) وتمكن أمرهم ، وصارت لهم منذ ذلك الوقت الكلمة العليا فى الدولة العباسية على مدى (مائة وثلاثة عشر عاما) حتى عام ٤٤٧ هـ . حين زالت دولتهم على أيدى (الأتراك السلاجقة) ؛ ومن الغريب أن (بنى بويه) الذين رفعهم الله تعالى بعد ضعة ، وأغناهم بعد فقر ، ومكن لهم فى الأرض ، لم يدخلوا بغداد مصلحين منصفين ، بل دخلوها جبابرة متسلطين مستخفين بمنصب الخلافة وبالخلفاء العباسيين ، وقد مرت بك صورة ترحيب الخليفة (المستكفى) بهم وتكريمه إياهم ، ومنحهم كل سلطة ، وتفويضه كافة الأمور إليهم بحيث لم يبق له منها شيء سوى أمور داره والشئون الخاصة بأسرته ، ومع ذلك لم يقابلوا الإحسان بالإحسان والتكريم بالتكريم ، فعاملوا الخلفاء بجفاء وغلظة ولم يرعوا لهم حقا ولا حرمة وساروا فيهم سيرة أسلافهم من الأتراك الغاشمين من عزل وإهانة وسمل عينين ونهب مال وحبس حتى الموت ، وأول من عزلوه وحبسوه الخليفة « المستكفى بالله » على يد « معز الدولة » الذى نفذ ذلك بطريقة عجيبة بشعة ترويها كتب التاريخ[1]

« انهيار الدولة البويهية ودخول السلاجقة بغداد » :

انقسم بيت البويهى على نفسه بعد قليل من هيمنته على بغداد ، واحتلم

(١) راجع : صفوة تاريخ الخلفاء العباسيين لمحمد طه محمود

النزاع والصراع على السلطة بين امرائه ، وأذاق الله بعضهم بأس بعض جزاء ماقدموا من إساءات فى حق الخلافة ، فظل الأمر على سوئه فى الدولة العباسية أيام حكمهم من فتن وثورات ، وزاد الامر سوءا أن العناصر التركية لم يقض عليها فى الجيش فكان الصراع مستمرا بينهما وبين العناصر الديلمية التى قويت شوكتها بقدوم البويهيين وانتهى الامر بضعف دولتهم وزوالها نهائيا على يد الدولة السلجوقية كما أشرنا ، وكان ضعف سلاطين الدوله البويهية قد بلغ مداه فى عهد الخليفة « القائم بأمر الله »[1] ومع ذلك كانوا يلحون عليه فى منحهم الالقاب المفخمة فظفر منه السلطان « جلال الدولة » بلقب « ملك الملوك » ، وظفر بن أخيه « أبو كاليجار » الذى خلفه فى السلطة بلقب « محيي الدين » أما ابن هذا ووارثه فى الحكم وهو « خسرو فيروز » فنال لقب « الملك الرحيم » وفى عهد هذا الاخير قرر السلاجقة الاستيلاء على على بغداد بعد أن رأوا ضعف البويهيين ، وسوء إدارتهم لشئون الخلافه وماأدى إليه ذلك من انتقاض أطراف الدوله واستكلاب الروم على الحدود وتوغلهم فى بلاد المسلمين ، كذلك طمع الدولة الفاطميه فى امتلاك بلاد العراق ، وإنهاء الخلافة العباسية بها ، وإرسالها الدعاه والجيوش من أجل تحقيق هذه الغاية ، ولقد صاروا قاب قوسين أو أدنى من النجاح لولا قدوم السلاجقة الذين أنقذوا الخلافة العباسية من هذه الكارثة ومن عبث البويهيين ، إذ زحف الامير « طغرلبك » السلجوقى من فارس إلى العراق ، وتمكن من دخول بغداد بعساكره الجرارة عام ٤٤٧ هـ وقبض على خسرو فيروز « الملك الرحيم » آخر سلاطين الدلة البويهية وسجنه ، وبهذا سقطت

---

(١) هو الخليفة العباسى السابع والعشرون وخلافته من عام ٤٢٢ هـ إلى عام ٤٦٧ هـ

دولة البويهيين وطويت صفحتها إلى الأبد ، ورحب الخليفة (القائم بأمر الله) بطغرلبك أمير السلاجقة ، وقلده الأمور فى الدولة العباسية ، وولاه سلطانا عليها وكتب له العهد بذلك ولقبه بملك المشرق والمغرب ، وأمره بتقوى الله تعالى ووصاه بالرعية خيرا ، ولكن (طغرلبك) — السلطان المنتصر ، حين دخل على أمير المؤمنين لأول مرة ، ورأى عليه بردة النبى ﷺ ، أخذته المهابة والعاطفة الدينية ، وغلبه التواضع وكرم الخلق فقبل الأرض بين يدى الخليفة ، ثم أقبل عليه فقبل يده قبل أن يجلس بجانبه ، ولما لبس خلعة لسلطنه فى المجلس نفسه عاد فأمسك بيد الخليفة وقبلها ووضعها على عينيه تبركا ، وهكذا بدأ السلاجقة عهدهم باحترام الخلفاء وتبجيلهم وتوقير شخصياتهم أجلالا لمكانهم فى الدوحة النبوية الشريفة ، وتقديرا للخليفه باعتباره رمزا لعزة الاسلام ، ووحدة المسلمين ، فعاد للخلافه جانب من بهجتها السالفة ، وبعض من جلالها القديم[1].

٣ — الدولة السلجوقية ٤٤٧ - ٥٩٠ هـ :

ولكن من هم السلاجقة أولئك الذين أسسوا دولة عظمى فى مشرق العالم الإسلامى لمعت فى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وكان لها فى تاريخ الإسلام أثر إى أثر ؟

السلاجقة أسرة من الترك الغزر نسبوا إلى جد لهم اسمه (سلجوق بن دقاق)

---

(١) راجع : نور الدين محمود . الدكتور حسين مؤنس ص ٣٧ ، ٣٨ مطبعة مصر ١٩٥٩م

ويرجع أصلهم إلى تلك الشعوب التركية التى تمتاز بكثرة عددها ، والضاربة فى الفيافى والبطاح الواسعة الممتدة من شرق البلاد الفارسية إلى حدود الصين ، تعيش فيها حياة الفطرة والبداوة ، وكان أغلب هذه البلاد ــ التى سميت بعد ذلك بالتركستان ــ ما وراء نهر جيحون شرقا يدين بالشرك والوثنية وفى هذا الجانب نشأت هذه الأسرة ، أما القسم الذى يلى (نهر جيحون) غربا من بلاد الترك فقد كان أهله فى عداد المسلمين وكانت الأسرة السلجوقية فى خدمة ملوك الترك المشركين ، ونبغ من بينهم (سلجوق) فى خدمة الملك التركى (بيغو) ــ إذ كان حازماً حسن التدبير عالى الهمة ، فقربه الملك إليه ومنحه لقب (قائد الجيش) ولكنه لم يلبث أن تغير عليه لوشاية من حاسديه ، وأحس (سلجوق) بالخطر على حياته ، فجمع عشيرته وأتباعه ومن حالفه ، ونفر بهم مهاجراً إلى القسم الإسلامى من بلاد الترك غرب نهر جيحون بالقرب من بلاد فارس ، وهناك أعلن إسلامه هو وجنوده ، فرحب بهم أهل البلاد ، ومكنوهم من المراعى ، وسمحوا لهم بالإقامة فى ديارهم كإخوة فى الدين ، ثم ما لبثوا أن اتخذوا (سلجوق) أميراً لهم وزعماً لما رأوا فيه من صفات العدل والأمانة والشجاعة والمروءة ، وعمر سلجوق ولم تأته منيته حتى كان قد ضبط الأمور فى تلك النواحى ومهد لمن خلفه من أبنائه فى الحكم أحسن تمهيد ، نظر السلاجقة إلى ما حولهم من ولايات تابعة للبويهيين فوجدوا فيها الضعف والاضطراب فاستولوا عليها بسهولة وضموها إلى دولتهم الناشئة واحتكوا بالدولة الغزنوية التى كانت تحكم أفغانستان وشمال الهند فهزموا جيوشها فى موقعة حاسمة عام ٤٣١ هـ .

ثم تمكنوا من انتزاع خراسان وجرجان وكرمان من البويهيين واحتلوا (نيسابور) وكاتبوا الخليفة العباسى بولاهم على هذه النواحى كلها واعترف بدولتهم وأقر زعيمهم (طغرلبك) سلطاناً عليهم فى عام ٤٣٢ هـ .

ولما دخل السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ ﻫ .

على ما قدمنا ونالوا التفويض الرسمي من الخليفة العباسي ، قويت روحهم المعنوية ، وازداد حماسهم لتحمل أعباء الأمة الإسلامية والدفاع عن حوزة الإسلام في كل الجهات وكان نجاحهم مرهوناً بجمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة قوية ، فلما دان لهم مشرق العالم الإسلامي كله وفرغوا من تأمين الجبهة الشرقية بانتصارهم على الممالك التركية من أبناء جلدتهم المشركين اتجهوا إلى الجهة الغربية حيث الدولة البيزنطية العاتية دولة الروم التي لم تنس قط ما فعله بها المسلمون من قبل ، فانتهزت فرصة ضعف الخلافة العباسية وعادت تجتاح الحدود الإسلامية وتحتل أرض المسلمين حتى وصلت إلى (حلب) بأرض الشام ، فتصدى السلاجقة لدولة الروم ونازلوا جيوشها الجرارة وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بها ، وتوجيه ضربات قاصمة إليها ردتها على أعقابها ذليلة خاسرة فاستردوا منها الأرض الإسلامية ثم طاردوها في عقر دارها فاحتلوا الممرات المؤدية إلى آسيا الصغرى واستولوا على (أرمينية) وجزء من سهول الأناضول وتوغلوا في أرض الروم حتى هددوا (القسطنطينية) وفي بعض تلك الحروب المظفرة أسروا الامبراطور الروماني (رومانوس) عام ٤٦٤ ﻫ .

أسره السلطان المجاهد (ألب أرسلان) خليفة السلطان (طغرلبك) مجددا بذلك مآثر (الرشيد) و (المأمون) و (المعتصم) في حروبهم مع الروم .

أدبية

وظلت الدولة السلجوقية حاملة الأمانة ، وفية بالعهد في ظل تلك الوحدة الرائعة التي حققوها في مشرق العالم الإسلامي ووسطه في عهد سلاطينها الأول

العظام (طغرلبك) و (ألب أرسلان) وابنه (ملكشاه) وكان من المتوقع ـ لو ظل الحال على ذلك ـ أن يفتح السلاجقة (القسطنطينية) قبل فتحها بعدة قرون ، وأن يذاق باب من الشر مستطير فتحته أوربا بعد ذلك بقليل على الإسلام والمسلمين باسم الحروب الصليبية(١) ولكن الداء الوبيل داء التفرق والانقسام دب إلى هذه الدولة الفتية ، فعاق هذا الزحف المقدس الذى قاده سلاطينها الأوائل المجاهدون ، حين قام بعض أمراء النواحى القصية من التابعين المارقين بانتفاضات غبية وحركات انفصالية استجابة لدواعى الأنانية وحب الانفراد بالسلطة وشهوة الاستئثار بالحكم فى أقاليمهم البعيدة فاضطروا السلاطين إلى وقف تقدمهم تجاه العدو الرومى والعودة لتأديب هؤلاء الخارجين ، وردهم إلى الجادة وإلى حوزة الجماعة فاحترب المسلمون بعضهم مع بعض وضاعت قوتهم فى غير طائل ودبت فى دولة السلاجقة عوامل التفكك والانحلال والتدريج حتى زالت هذه الدولة بمقتل آخر سلاطينها فى العراق (أرطغرل) وقعة بينه وبين (خوارزم شاه تكش) ملك الدولة الخوارزمية التركية وذلك فى عام ٥٩٠ هـ فى عهد الخليفة الناصر لدين الله(٢) . وهكذا انتهت الدولة السلجوقية بعد إن حكمت معظم أجزاء الدولة الإسلامية نيابة عن الخلافة العباسية مدة زادت على قرن ونصف من الزمان ، لعبت فيها دوراً من أروع أدوار التاريخ الإسلامى المجيد(٣) .

---

(١) هو الخليفة الخامس والثلاثون فى سلسلة الخلفاء العباسيين .

(٢) راجع الدكتور حسين مؤنس فى كتابه : نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ط القاهرة ١٩٥٩ م .

(٣) بقيت السلاجقة بعد ذلك أمارات محدودة أهمها دولة الروم السلجوقية فى آسيا الصغرى .

٣ – استقلال الخلفاء بالعراق ٥٩٠ - ٦٠٦ هـ :

كان للسلاجقة أيام حكمهم السيطرة على خلفاء بغداد من بنى العباس كما كان الحال عليه أيام حكم البويهيين ، بيد أن سيطرة السلاجقة كانت أخف واكثر تهذيباً فكان للخلفاء فى عهدهم بوجه عام جزء من السلطة وجانب من التصرف والحركة جعلت بعضهم يحاول استرجاع مجد الخلافة بقوة السيف وقيادة الجيش كالخليفة المسترشد بالله ٥١٢ هـ.

والمقتفى لأمر الله ٥٣٠ هـ.

والمستنجد بالله ٥٥٥ هـ.

فلما قتل (أرطغرل) آخر سلاطين الدولة السلجوقية انتهز الخليفة (الناصر لدين الله) (٥٧٥ - ٦٣٢ هـ) .

هذه الفرصة وأستقل بالأمور فى بغداد والعراق ولكن هذه الأمور لم تكن ممهدة له فى سائر ولايات الدولة العباسية بسبب النزعات الانفصالية التى كانت قد استشرت فى أقاليم الدولة أولا وبسبب ما كان قد شب من نيران الحروب الصليبية فى غرب الدولة ثانياً ، وبسبب هجوم التتار المتتابع على شرقها بعد ذلك ، فلم يدم استقلال الخلفاء العباسيين بالأمور فى بغداد طويلا إذ لم تلبث إن سقطت (دار السلام[1]) فى أيدى التتار وسقطت الدولة العباسية بسقوطها عام ٦٥٦ هـ.

---

(١) من أسماء بغداد .

ب ـ الأدب فى العصر العباسى الثانى

عوامل التأثير فيه شعرا ونثرا

لما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين السياسى فى بغداد نتيجة لتحكم العناصر التركية وبعدها العناصر الفارسية الديلمية فى أمور الخلافة كما قدمنا ساءت الأحوال فى العراق وفى خارجها من سائر البلاد التابعة للدولة العباسية المترامية الأطراف ونتج عن ذلك أمور اهمها :

أ ـ (ازدياد الحركات الانفصالية فى الأقاليم) إذ كان الوالى على أى من هذه الولايات يلمس ماعليه الخلافة من وهن وضعف، فاذا آنس من نفسه قوة تمرد على دولة الخلافة وأسس لنفسه ولأسرته فى مقر ولايته دويلة مستقلة عن الخلافة إما استقلال تاما واما استقلال مع رابط شكلى يربطها بالخلافة وهو الدعاء للخليفة على المنابر أيام الجمع والأعياد، وارسال بعض المعونه الماليه كل عام إلى خزانة الخلافة فى بغداد :

وفى الحق أن هذه الحركات الانفصالية لم يخل منها العصر الأول، بل انها بدأت مع بداية الدولة العباسية، ولكنها كانت قليلة ومحدودة فى الأطراف البعيدة ـ للامبراطورية الإسلامية الواسعة كالأندلس والمغرب ـ والعصر يومئذ عصر القوة العظمة والازدهار، فلما جاء العصر الثانى بضعفه السياسى البالغ كثرت الحركات الانفصالية واستشرى شرها فى الأقاليم البعيدة والقريبة على السواء، فصارت على مقربة من العراق بل على مقربة من بغداد العاصمة، واشتبك بعضها مع بعض فى حروب دامية، كما احترب كثير منها مع الخلافة ذاتها، واليك بيان بأهم هذه الدويلات التى انقسمت اليها الدولة العباسية الكبرى فى هذا العصر :

١ — (الدولة السامانية) : فى خراسان وتركستان ٢٦١ — ٣٨٩ هـ ومؤسسها نصر بن أحمد السامانى والى العباسيين على تلك البلاد ومركزها مدينتا (سمرقند) و (بخارى) :

٢ — (الدولة البويهية) فى بلاد فارس ٣٢٠ — ٤٤٧ هـ وقد مر بك ذكرها بالتفصيل) .

٣ — (الدولة الغزنوية) فى أفغانستان والسند ٣٥١ - ٥٨٢ هـ ومركزها مدينة (غزنة) ومؤسسها (اليكتين) حاجب الحجاب فى بلاط السامانيين.

٤ — الدولة السلجوقية) فى تركستان وايران والعراق ٤٣٢ - ٥٩٠ هـ وقد مر بك نبأ هذه الدولة مفصلا :

٥ — (الدولة الخوارزمية) فى بلاد التركستان ٥٨ - ٦٢٤ هـ

٦ — (الدولة الاخشيدية) فى مصر والشام ٣٢ - ٢٠٨ هـ

٧ — (الدولة الفاطمية) فى مصر والشام وتوابعها ٣٠٨ - ٥٦٠ هـ

٨ — (الدولة الحمدانية) فى الموصل والشام ٣٣٧ - ٣٠٤ هـ

٩ — « الدولة الأتابكية الزنكية » فى الموصل والشام وتوابعها ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ

١٠ — الدولة الأيوبية فى مصر والشام ٦٧ — ٦٤٨ هـ

١١ « دولة المماليك » فى مصر والشام وتوابعها ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ

هذا عدا دويلات أخرى أقل شأنا وأصغر حجما فى أنحاء متفرقة من الدولة العباسية مثل : الدولة الزيادية والدولة النجاحية فى اليمن والدولة « اليعفرية » فى اليمن كذلك والدولة « الزيارية » فى جرجان بفارس و« العقيلية »

فى ديار بكر ، والجزيرة الفراتية ، و « المزيدية » فى الحلة بالعراق والمرادسية فى حلب بالشام .

وعدا ما أغفلناه من دول كانت قد استقلت وانفصلت عن الدولة فى العصر الأول كالدولة الأموية بالأندلس والدولة الأدريسية بالمغرب الأقصى ودولة الاغالبه فى أفريقية ، والدلة الطاهرية بخراسان والدولة الصفارية فى سجستان والدولة الطولونيه فى مصر والشام

ولكى تكتمل الصورة أمامك عن مدى الضعف السياسى الذى أصيبت به الدوله العباسيه فى هذا العصر ينبغى أن تعلم أن الخلفاء العباسيين فيه نوزعوا حتى فى منصب الخلافه ولقب إمارة المؤمنين ! ففى عهد الخليفه العباسى « المطيع لله » عام ٩٨ هـ وجدت قوتان كبيرتان تنازعانه قيادة العالم الاسلامى وتطلق كل منهما على نفسها اسم الخلافة وعلى زعيمها لقب أمير المؤمنين ، القوة الأولى تتمثل فى دوله الأمويين فى الاندلس التى حولها « عبدالرحمن الناصر » من اماره إلى خلافـه والقوة الثانيه دولة العبيديين « الدوله الفاطميه » فى تونس ثم مصر التى أطلقت على نفسها اسم الخلافة وعلى ملوكها أمراء المؤمنين من أول قيامها ، والتى كادت فى وقت من الاوقات تنتزع الأمر من العباسيين فى قلب بغداد كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل[1]

ب – (كثرة الفتن والاحداث المؤلمة فى داخل بغداد وخارجها) :

ففى بغداد كان الخلفاء ومن يلوذ بهم أول ضحايا هذه الفتن ، ومن

---

(١) راجع موضوع انهيار الدوله البويهية فى الباب الاول

أمثلة ذلك أن الخليفة المستكفى بالله اختلف مع معز الدولة البويهى فأرسل هذا من الجند الديالمة من اختطف الخليفة من سريره فى صورة مهينة وأرسله إلى دار السلطنة معتقلا ثم عزله وظل معتقلا إلى أن مات ، والخليفة المطيع الذى جاء من بعده ، أرغمه قائد الجيش المسمى (سبكتكين) على التنازل عن الخلافة لابنه فرضخ وخلع نفسه مضطرا وابنه الخليفة الطائع يبتلى بسيطرة بهاء الدولة على الأمور فى أيامه ويحتاج بهاء الدولة إلى مال لإرضاء جنوده فتسول له نفسه التضحية بالخليفة دون سبب الا الطمع فى الحصول على المال فيدخل على الطائع مع بعض جنوده ويتظاهرون بالرغبة فى تقبيل يده وإذا بهم يهجمون عليه بلا حياء فينزلونه عن سريره وهو يستغيث ويحملونه إلى السجن مخلوعا وينهبون ما كان فى داره من أموال وذخائر بعد أن أهانوا كل من كان فى مجلس الخليفة من وزراء وقضاة وعلماء وسلبوهم ما معهم حتى ثيابهم[1] أما فى خارج بغداد فكانت الفتن والثورات على أشدها ونكتفى بمثالين لها :

١ — (فتنة القرامطة) وهم فرقة ضالة[2] ظهرت من قبل فى الكوفة والبحرين وامتد إلى الحجاز ومكة المشرفة وحاربتهم الدولة مرارا فلم تظفر بهم وتفاقم شرهم فى هذا العصر فوصل إلى أجزاء من العراق والشام

---

(١) وقد شهد هذه المهزلة الشاعر الكبير (الشريف الرضى) وسجلها فى إحدى قصائده راجع ديوانه ج ١ ص ٦٠ ط بيروت .

(٢) ينسبون إلى رجل اسمه (حمدان قرمط) ظهر فى مدينة واسط بالعراق وخفف اسمه إلى قرمط ودعا الناس إلى مذهب جديد يقوم على تأويل الاحكام الإسلامية حسب الأهواء .

حتى أنهم فى عام ٣٦٠هـ أغاروا على بلاد الشام بقيادة زعيمهم (ابن جران) وامتلكوا دمشق ويافا والرملة .

٢ - (فتنة الباطنية) وهم فرقة لاتقل عن القرامطة ضلالا ، وهم أتباع دجال خطير مغامر اسمه (الحسن الصباح) ويسمون أيضا (الحشاشين) لأنهم كانوا يستعملون الحشيشة فى التأثير على أنصارهم ، وقد تمكن هذا الرجل وهو صاحب دعوة شيعية متطرفة جعلها ستارا لمطامعه الخاصة فى الحكم والسلطان تمكن من الاستيلاء على قلعة حصينه فى بلاد فارس هى قلعة (ألموت)[1] وجعلها مركزا منيعا لجماعته المخربه وقد اتخذ من الإرهاب و (الاغتيال السياسى) وسيلة لتحقيق مآربه الشريرة فى تحطيم الوحدة الاسلاميه والقضاء على رجالها المخلصين واحدا بعد الآخر ، وكان استيلاؤه على هذه القلعه فى عهد الخليفه المستظهر بالله عام ٤٨٣هـ وقد سقط على أيدى الباطنيه ضحايا كثيرون فى مقدمتهم وزير السلاجقه العظيم (الحسن بن على بن اسحاق الطوسى) الملقب بـ (نظام الملك) الذى اغتالوه فى شهر رمضان من عام ٤٨٥هـ والخليفه العباسى المسترشد بالله الذى قتل بأيديهم عام ٥٢٩هـ ، وقد حاولوا اغتيال البطل «صلاح الدين الأيوبى» بعد ذلك فى خيمته وهو يجاهد الصليبيين ، لولا أن الله نجاه من شرهم .

ج - عجز الدوله العباسية عن ردهجمات أعدائها التقليديين — المتمثلين فى دوله الروم — على الحدود :

كان الخلفاء العباسيون فى العصر الأول يتولون بأنفسهم عبء مجالدة

---

(١) بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الميم .

(الدولة البيزنطية)(١) دولة الروم لما كان بين الدولتين من حدود مشتركة شمال الشام وعلى أبواب آسيا الصغرى ولأنها كانت أكبر دولة يأتى الخطر من جانبها على المسلمين فهى دولة عاتية ذات جيوش جرارة وعدة وعتاد فضلا عما تضمره من حقد على الدولة الاسلامية التى انتزعت منها - منذ عهد الخلفاء الراشدين - أجل الأقاليم التابعة لها فيما نسميه اليوم بالشرق الأوسط - فكنا نرى فى عهود « المهدى » و « الرشيد » و « المأمون » و « المعتصم » الخلفاء أنفسهم أو أولياء عهودهم يقودون الجيوش العظيمة فى حملات مظفرة يؤدبون بها الروم كلما تحرشوا بحدود المسلمين فيذيقونهم الهزائم المنكرة ويفرضون عليهم الجزيه الرادعه - فلما جاء العصر الثانى وضعفت الخلافة تجرأ الروم فهاجموا الحدود الإسلامية واحتلوا كثيرا من مواقع المسلمين وبلادهم ، ولم تتصد لهم الخلافة لعجزها واشتغالها بالفتن والقلاقل الداخلية ، لكن تصدى للروم أحد أمراء الدويلات وهو الأمير (سيف الدوله الحمدانى)(٢) صاحب (حلب) وكان أميرا مجاهدا أبيا وشجاعا مقداما فنازل الروم فى معارك عدة وأحرز عليهم بعض الانتصارات عام ٣٢٩هـ وعام ٣٤٢هـ ولكن ماذا تفعل الشجاعه مع الكثرة الكاثرة ؟ وماذا يفعل الأمير الصغير والدويلات الإسلامية من حوله لا تمد له يد العون والخلافه فى شغل عنه وتغافل ؟

لقد هزم أمام الروم عام ٣٤٩هـ وهدد الروم إمارته حتى وصلوا إلى

---

(١) كانت تتألف من قسمين أسيوى فى آسيا الصغرى وأوربى فى شبه جزيرة البلقان كلها وجزء من بلاد الروس وشعوب أوربا الشرقيه جميعا داخله بها .

(٢) ممدوح الشاعر العظيم (أبى الطيب المتنبى) .

(حلب) عاصمة ملكه ، وبعد وفاته فتحوا (أنطاكية) وتوغلوا فى بلاد الشام مخربين ولم ينصرفوا إلا بعد أن فرضوا الجزية على خلفاء سيف الدولة — كانت هذه هى الحال المهينة على الحدود مع الروم ، طيلة العصر البويهى ولم يصلح من أمرها إلا قدوم (الدولة السلجوقية) وردها لهذه المهانات ونهوضها بعبء مجالدة الروم من جديد وتأديبهم كما أسلفنا الك القول عند الحديث عن قيام الدولة السلجوقية .

د — (ظهور خطر جديد على الدولة من جهة الغرب وهو خطر الصليبيين) :

ولما وجدت دولة الروم نفسها عاجزة عن هزيمة المسلمين ، وعاجزة عن الانتقام لما أصابها من هوان على أيدى السلاجقة لجأ أباطرتها إلى أسلوب جديد هو الاستغاثة بغرب أوربا والاستعانة بملوكه وجيوشه فى حرب جديدة تشن على المسلمين شفاء لحقدهم الدفين ، والتمسوا لذلك سبباً يبررون به هذا التحالف العدوانى ضد العالم الإسلامى ، فهداهم شياطينهم إلى إعلان وجوب نزع بيت المقدس فى فلسطين من أيدى المسلمين ، لتأمين حجاج النصارى الأوربيين إلى قبر المسيح عليه السلام ولم يكن هؤلاء الحجاج فى طريقهم إلى بيت المقدس أعظم أمنا وطمأنينة إلا فى بلاد المسلمين حيث ينعمون بالتسامح والمودة وحسن المعاملة ، ولكنها حجة زيفها زعماء أوربا من شرقيين وغربيين وأعلنوها للناس وخرجت جحافلهم الجرارة تغزو بلاد المسلمين فى الشام رافعة شارة الصليب عام ٤٠١ هـ فالحماس الدينى كان طمعا وستاراً براقاً خدع به بابوات وملوك أوربا شعوبهم ليحجبوا الدافع الحقيقى لهذه الحروب الوحشية التى شنوها فجأة على بلاد المسلمين ويتلخص هذا الدافع فى أمرين : الطمع فى بلاد الشرق وخيراتها

والرغبة فى القضاء على الإسلام وكان من الممكن صد هذا الطوفان الغادر بسهولة لو أن الدولة العباسية قوية متحدة ، ولكن من أسف أن الأعداء وجدوا الفرصة حين رأوا تفرقها وذهاب ريحها فكان بدء هجومهم فى عهد الخليفة (المستظهر بالله) أيام أن بدأ تمزق الدولة السلجوقية (التى كانت تمثل قوة المسلمين فى ذلك الوقت) عقب موت سلطانهم العظيم (ملكشاه) واحتراب أبنائه وأخوته على الملك ويكفى أن تعلم أن ابنه وخليفته (بركيارورق) الذى هجم الصليبيون فى عهده قضى مدة حكمه (وهى ثلاثة عشر عاما) كلها فى حروب مع أعمامه[1] وأخوته فى صراع على السلطة منها خمس سنوات كاملة فى حرب أخيه (محمد بن ملكشاه) .

ولا عجب أن يهتبل الصليبيون هذه الفرصة الذهبية فرصة اشتغال زعماء المسلمين بحرب بعضهم البعض وأن يتسللوا إلى أرض الشام فيحتلوا معظمها ويدخلوا القدس فيرتكبوا من المذابح والفظائع ما تشيب لهوله الولدان ، وأن تتتابع موجاتهم فتمزق العالم الإسلامى وتضعضع من قواه لمدة قرنين من الزمان .

هـ — (ظهور الخطر الأكبر الذى قضى على الدولة وهو خطر التتار):

وهو خطر جاء من شرق المملكة الاسلامية حيث كانت بلاد المغول والتتار من الشرق من بلاد التركستان الاسلامية ، وكانوا على هيئة قبائل وثنية متبربرة كثيرة العدد تسكن جانباً من بلاد الصين وجانباً من روسيا الآسيوية وقد توحدت هذه القبائل على يد الطاغية (جنكيزخان)

---

(١) منهم عمه تتش (تاج الملك) وعمه أرسلان أرغون .

وفى عهده بدأ خروج التتار إلى البلاد الإسلامية ومن المصائب المبكية أن خروجهم هذا جاء نتيجة خلاف بين الخليفة العباسى « الناصر لدين الله » والسلطان « علاء الدين محمد خوارزم شاه » سلطان الدولة الخوارزمية التى كانت تسيطر على تركستان وأفغانستان وخراسان وعلى يدها زالت دولة السلاجقة .

كان سوء تصرف كل من الخليفة والسلطان داعياً إلى الصدام بين الخوارزميين والتتار حوالى عام ٦١٥هـ ولسوء حظ علاء الدين انهزم أمام التتار ولم يجد عونا من أحد فى حروبه معهم ومات بحسرته عام ٦١٧هـ ، وجاء بعده ابنه السلطان « جلال الدين » فوجد نفسه وحيداً كذلك أمام هذا الجراد المنتشر فجالدهم فى شجاعة عشر سنوات يهزمهم ويهزمونه ، وأرسل يستصرخ الخليفه وأمراء المسلمين كى يعاونوه فى وقف تقدم التتار فلم يلب نداءه أحد ، فاضطر للتراجع أمامهم من بلد إلى بلد حتى قتل غيلة فى بلاد الأكراد عام ١٢٨هـ وكان التتار قد نجحوا حين انفردوا بعلاء الدين ثم بابنه جلال الدين فى اكتساح ماتحت حكم الدلة الخوارزمية من بلاد إسلامية فى تركستان وأفغانستان وفارس وخربوا العديد من مدنها العظيمة العامرة ؛ لما وجد التتار هذا التخاذل بين حكام المسلمين ورأوا الطريق مفتوحا أمامهم إلى العراق فكروا فى مهاجمة بغداد مقر الخلافة وعاصمة الإسلام ؛ فواصلوا زحفهم اليها محاولين فتحها فى عهد الخليفه المستنصر بالله عام ٦٣٢هـ فلم يفلحوا وأعادوا الكره بالهجوم على بغداد بعد عامين ولكنهم ارتدوا عنها خائبين ، بسبب تحصينها الجيد ودفاع أهلها المجيد ، وإخلاص القائمين على الأمر فى ذلك الوقت ، ولكن سرعان ماساءت الأحوال بعد أن ولى الخلافه الخليفة (المستعصم بالله)

الذى لم يكن على مستوى المسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقه فأهمل شئون الدفاع وانصرف إلى اللهو واللعب منغمساً فى ألوان الترف والملذات وفى عهد هذا الخليفه العابث وقعت النكبة الكبرى والمصيبة العظمى فى تاريخ الإسلام وهى سقوط بغداد فى أيدى التتار ، فقد هاجموها بقيادة الطاغية (هولاكو) حفيد جنكيزخان بجيوش جرارة وقد تصدى لهم الجيش العباسى ولكنه هزم فى العاشر من المحرم من عام ٦٠٦ فأمر الخليفه باغلاق أبواب المدينه وحاصرها التتار عشرة أيام فلم ينالوا منها شيئاً ولكن الخيانه امتدت سورها من الوزير (ابن العلمى) لعنه الله وكان رافضياً حاقداً على أهل السنه وهم عامه أهل بغداد فكاتب التتار سراً وسهل لهم أقتحام المدينه فدخلوها وأعملوا فيها السيف بعد أن أمنوا أهلها وقبضوا على الخليفه وأولاده وأذاقوهم كأس المنيه ، وأعملوا الحرائق فى دار السلام ونشروا الخراب والدمار وأغرقوا مكتبتها العظيمة فى نهر الدجلة وكانت تحوى الملايين من المجلدات ، وقتلوا من أهل بغداد قرابة مليون نفس فيهم آلاف من العلماء والفقهاء والأدباء[1] وكان هذا الإعصار الهمجى الماحق خاتمة الدولة العباسيه المجيدة ؛ ونهايه لعصرها الذهبى الزاهر .

ولعلك قدلاحظت أنه لولا الخلاف بين حكام المسلمين فى أواخر الدولة

---

(١) هذا فضلا عن آلاف العلماء والأدباء لآخرين الذين سفك التتار المتوحشين دماءهم قبيل ذلك فيما احتلوه قبل بغداد من عواصم الإسلام فى افغانستان وتركستان وإيران مثل « بخارى » و « سمرقند » و « هراة » و « شيراز » و « نيسابور » و « الرى » و « همدان » كما نجد انبائه مفصلة فى كتب التاريخ .

العباسية لما فكر التتار فى الهجوم على البلاد الاسلاميه ، ولولا التخاذل بينهم بعد دخول التتار إلى بلادهم لما انتصر هؤلاء التتار ولكن من السهل على الجيوش الاسلامية سحقهم كما سحقتهم من بعد جيوش المسلمين فى عين « جالوت » بعد عامين اثنين من سقوط بغداد .

وينبغى أن نلاحظ أن غزو التتار للبلاد الاسلامية جاء فى وقت اشتغال الجبهة الغربية فى العالم الإسلامى بالحروب الصليبية ومواجهة حملاتها المتتابعة التى لم تنته حتى عام ٦٩٢هـ .

ومما لاشك فيه أن المصيبتين المتقدمتين : دخول الصليبيين (القدس) — ودخول التتار (بغداد) اللتين حدثتا فى العصر العباسى الثانى تعدان من أفظع وأفدح المصائب فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ البشرية بأسرها ، ولقد كان لهما ولغيرهما من الأحداث التى تقدم ذكرها الصدى العميق ، والأثر البالغ فى أدب ذلك العصر وما بعده من العصور .

ومما تجدر ملاحظته أنه كان للحادثين الخطرين المشار اليهما أثران متقابلان فى تاريخ الحضارة الإنسانية وفى تحويل مسارها .

(فدخول الصليبيين القدس) كان بداية اطلاع الغرب الأوربى الهمجى المتخلف على حضارة العرب والمسلمين الزاهرة ، فكان ذلك بداية أخذ الأوربيين بأسباب التقدم والرقى ، ومن أهم عوامل تحضرهم الذى اطرد حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم :

(ودخول التتار بغداد) كان قمة الكوارث الكبرى التى أصابت الحضارة الإسلامية فى الصميم بفقد المدد الأعظم من تراثها الثقافى ، وانهيار الرابطه العظمى لنظامها السياسى إلا وهى (الخلافة العربيه) فكان ذلك من أهم أسباب تأخر المسلمين بعد ذلك وحتى اليوم ، وانتقال قيادة الحضارة الإنسانيه منهم إلى سواهم .

ثانياً : الأحوال الاجتماعية :

وأهم ظواهرها ما يلى :

١ - (ازدياد الاختلاط والامتزاج بين العناصر العربية والأعجمية) :

كان الاختلاط والامتزاج قد بدأ قبل ذلك ، ولكن عصرنا الثانى تميز بزيادة الاختلاط ، وعمق الامتزاج ، وبالانصهار الشديد بين الأجناس الأعجمية والجنس العربى ، بحيث صار من النادر وجود عنصر عربى خالص حتى فى البلاد العربية نفسها - باستثناء البوادى - وكانت الغلبة فى العادات والتقاليد للأعاجم لكثرة عددهم ، فانتقلت - فى الناحية الخلقية - عدوى أمراضهم الاجتماعية إلى العرب ، فكثر الفحش والفجور ، وأصبح من الظواهر الفاشية ضعف التدين والاستهانة بأوامر الدين ونواهيه عند بعض الناس ومنهم أدباء وشعراء - ومن الناحية اللغوية - انتقلت بعض خصائص الأعاجم اللسانية إلى نطق الكلام العربى فشاع اللحن فى القول والخطأ فى التلفظ ببعض الكلمات العربية إلى جانب ما دخل الجمل والتركيب من ألفاظ أعجمية كثيرة ، وعظم شأن العامية وأخذت تحتل مكانها فى المجتمع - وكانت الغلبة فى عادات المأكل والمشرب والملبس وبناء الدور وما تحوى من فرش وآنية للفرس خاصة ، لأنهم كانوا مادة المجتمع العباسى ، فهم أكثر عدداً من الأجناس الأعجمية الأخرى من روم وترك وزنج ... الخ ، ولمجاورة بلادهم العراق مقر الخلافة ، ولتولى الكثير منهم مناصب الدولة الإدارية الكبرى والصغرى ، وأخيراً لأنهم كانوا قبل الإسلام أولى حضارة قديمة لها تقاليدها ورسومها الاجتماعية .

ولكن هذه الآثار الامتزاجية كانت أوضح فى مشرق العالم الإسلامى فى العراق وإيران منها فى وسطه (مصر والشام والحجاز واليمن)

حيث كانت العربية أسلب عوداً وأصفى مورداً ، ومع ذلك لم تسلم فى الشام ومصر خاصة من آثار الاحتكاك باللغات والعادات والتقاليد المحلية . أما فى مغرب العالم الإسلامى — عدا الأندلس فلها حديثها الخاص — فقد تأثر العرب الفاتحون فى شمال أفريقية بلغات قبائل (البربر) وعاداتهم وتقاليدهم .

على أنه كان للامتزاج بين العناصر العربية والأعجمية فى ظل عقيدة الإسلام آثار إيجابية طيبة منها شيوع روح المودة والتسامح بين الأجناس المختلفة حتى مع غير المسلمين ، وتحقق الإخاء الإنسانى بأجلى معانيه وأروع صوره فى هذا المجتمع الإسلامى الكبير الواسع ، وفتح آفاق فسيحة أمام لغة القرآن الكريم فى مجتمعات جديدة فارسيه وتركيه وأفغانية وهندية فى آسيا مما يلى أقصى بلاد فارس شمالا وشرقا وجنوباً ، ومجتمعات بربرية وزنجية فى إفريقية مما يلى (مراكش) جنوباً حتى أعالى (نهر النيجر) ، وكانت هذه الآثار الإيجابية الطيبة تقوى وتزداد رسوخاً بالتقاء هذه العناصر البشرية جميعها من عربية وأعجمية فى موسم الحج كل عام فى الأرض الحجازيه المشرفة .

ولا ننسى ما ظهر فى المجتمع العباسى فى العصر الثانى من حركة دينية عميقة تعتبر رداً قوياً على موجات التحلل والفساد التى أشرنا إليها ودعوة إلى الإقبال على الله عز وجل والأعراض عن مباهج الدنيا ولذائذها الفانية وشهواتها الجامحة تلك هى (الحركة الصوفيه) التى ازدهرت على أيدى دعاة مخلصين ورجال صالحين التفت حولهم جماهير المؤمنين ، واتخذت تلك الحركة أسلوباً عملياً فى التربيه الإسلاميه وتكوين المسلم الصالح وكان لكل داعيه منهم طريقته فى تربيه وإرشاد مريديه ومن هنا نشأت (الطرق الصوفيه) التى استمرت فى المجتمعات الإسلاميه حتى اليوم .

٢ - (الترف والنعيم) :

تكدست الثروات في بغداد وغيرها من العواصم لدى كثير من الناس على رأسهم الخلفاء والسلاطين والأمراء والولاة والوزراء والجباة والموظفون كما تكدست عند كبار التجار وأصحاب الاقطاعات ، فسال النضار بين يدي أفراد هذه الطبقات وكيلت الدراهم والدنانير ، بل الجواهر الكريمة لهم ، فغرقوا في حياة النعيم والترف إلا من عصم الله وهم قلة — من مساكن فاخرة، ومراكب فارهة ، وخدم وحشم ومآكل شهيه ، ومشارب منوعه ،واقتنوا التحف البديعه والجواري المغنيات ذوات الجمال البادع والحسن رفائق ، وأتخذوا آلات اللهو والطرب ، ومجالس الأنس والمنادمه وساعد على ذلك كثرة ما كان يجبى من أموال إلى العواصم من أنحاء الدوله الواسعة وفراغ كان يعيش فيه معظم هؤلاء إذ كانوا يكلون أعمالهم ومسئولياتهم إلى غيرهم ، ويتفرغون هم لحياة الدعه واللذة في ظل البطاله .

والثراء الفاحش يؤدي إلى الإسراف والتبذير والسفه ، وهذه الثلاثة تؤدي إلى الخراب والدمار وانهيار الملك ، كذلك يؤدي الركون إلى الشهوات واشباع الرغبات إلى الخروج عن قصد السبيل وعن منهج الحق والدين وهذا ماكان ، فتحلوا بالذهب ولبسوا الحرير، وشربوا الخمور ، وقارفوا المعاصي وتفننوا في طرق اللهو والعبث والخلاعه ، وأمعن كثير منهم في ذلك إمعانا شديداً نجد أخباره في كتب التاريخ وفي كتب الأدب الجامعه (كالأغاني و (يتيمة الدهر).

كان أحدهم يبني بدل القصر قصوراً وينفق عليها الآلاف المؤلفه والقناطير

القنطرة فهذا) معز الدولة البويهى) ينفق على بناء قصره فى بغداد ألف ألف [1] دينار وينفق أحد الخلفاء الفاطميين ضعف هذا المبلغ على (القصر الغربى) بالقاهرة ولهم غيره قصور عديدة وهذا الوزير (المهلبى) أحد وزراء البويهيين كان شغوفا (بالورد) فيروى عنه أنه اشترى منه فى ثلاثة أيام بألف دينار ليفرش منه جانب فى مجلسه ويطرح جانب منه فى بركة ذات نافورات لتنثره على الجالسين!!، والسلطان (مسعود) فى أواخر العهد السلجوقى كان مغرما بالصيد وأدواته وحيوانه ويغرق فى هوايته تلك لدرجة الشذوذ فيلبس كلابه الحرير والوشى ويحليها بأسورة من الذهب الخالص!! و (المستعصم) آخر خلفاء بنى العباس كان كل همه رمى البندق واللعب بالطيور المناسيب والبحث عن الجديد فى آلات اللهو والطرب!!

وكما كان لحياة الترف والتنعيم آثارها فى حياة الدولة ومصيرها، كان لها آثارها فى حياة الأدب شعره ونثره وبخاصة وأن مشاهير الأدباء والشعراء كانوا أقرب الناس إلى زعماء هذه الحياة من الخلفاء والسلاطين ومن اليهم يشاركونهم اياها ويعبرون عنها فيحسنون التعبير.

(٢) (الفقر والإملاق):

يقول أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه: ((ما رأيت إسرافا قط الا وبجانبه حــــق مضيع)) وصدق عبقرى الإسلام الامام العادل الفاروق فهكذا كان حال المجتمع فى العصر العباسى الثانى الذى اختلت موازينه الإقتصاديه فى معظم الأحيان، غنى مضاعف وبذخ وإسراف فى ناحية، وفقر مدقع وحرمان واملاق فى ناحية أخرى.

---

(١) فى عصر عرف بالرخاء ورخص الأسعار.

وإذا كان الغنى واليسار قد صارا من نصيب الحكام وحواشيهم وكبار التجار وهم مهما كثروا قلة ، فإن الفقر والحاجة كانا من نصيب العامه وهم الكثرة الغالبة والسواد الأعظم وفيهم إلى جانب العمال الكادحين كثير من العلماء والأدباء وأصحاب الكفايات ، وإذا كان الغنى داعية إلى اللهو والفساد وضياع القيم الرفيعة ((إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)) [1] فإن الفقر داعية إلى الشقاء فى الحياة جالب للتعاسة و لآلام مفجر للثورات والأحقاد واوزاء هذه المفارقات المضحكة فى المجتمع والأوضاع الظالمة والموازين الجائرة التى تجعز المال وطيب العيش ورغده تنحاز غالبا إلى الجهال والحمقى من أجلاف الترك ورجال الجيش ومنافقى الحاشية لدى كل حاكم ، بينما أهل الجد والاجتهاد والكدح الشريف وأصحاب المواهب الممتازة لا يكادون يحصلون على الكفاف وجدت مواقف حدثنا عنها الأدب والتاريخ ، فأما العوام من الصناع والزراع وأصحاب الحرف الصغيرة ومن اليهم من العمال فطالما ثاروا فى بغداد وغيرها ثورات عارمة على حكامهم من أثر ضغط الفقر عليهم ، وقسوة الحياة ، مع قلة ذات اليد وكثرة الضرائب المفروضة وأما العلماء والفضلاء والأدباء فافترقوا فرقا : منهم من آثر الزهد فى الحياة طواعية واختيار من باب التعفف ومشاركة عامة الناس فى أحوالهم كالفيلسوف (أبى نصر الفارابى) الذى رفض أن يكون عطاؤه من بيت المال فى عهد (سيف الدولة الحمدانى) أكثر من أربعة دراهم [فى اليوم ، ومنهم من رفع عقيرته بالشكوى المريرة من الدهر والزمن والأيام ، ومنهم من حول أدبه إلى سخرية بالناس والعصر والمجتمع كأصحاب الهزل والسخف من الشعراء ومنهم من وجه النقد صريحا إلى الحكام والرؤساء ناعيا عليهم الأثرة والجشع والظلم واغتيال حقوق الرعية (كأبى العلاء المعرى).

---

(١) سورة العلق آيتا ٦ ، ٧ .

كما أوجدت هذه الاوضاع عند بعض الأفراد والطوائف ألوانا من الاحتيال على الرزق بطرق غير كريمة كالكدية (١) المكشوفة والكدية المستترة فى أنواع من الحيل شتى ، وفنون من الخداع كثيرة ، وقد نشأ عن هذه الألوان فى هذا العصر أدب خاص لأول مرة فى الأدب العربى هو أدب الكدية نجده فى فن (المقامات النثرى) وفى (الشعر الساسانى) اللذين سيأتى ذكر لهما فيه تفصيل بإذن الله .

ثالثا : الحياة العقلية :

وقـــد تميزت هذه الحياة فى العصر العباسى الثانى بزيادة الخصوبة ، وباستمرار النهضة العلمية والأدبية واطراد ازدهار الثقافة بوجه عام هذا الذى كان قد بدأ فى العصر الأول - أما الأدب والشعر فقد استمرا فى نهوضهما وقوتهما فى (العهد البويهى) ثم ضعفا قليلا فى (العهد السلجوقى) وأما العلوم المختلفة فقد ازدهرت فى العهدين على حد سواء ، ازدهاراً عظيما سواء منها العلوم الاسلامية الأصيلة والعلوم الكونية والفلسفية الدخيلة ، بل كانت الحركة فى العصر الثانى أضخم وإنتاج المؤلفين أجود وبهذا فاقت ما كان فى العصر الأول من جهة الكم ومن جهة الكيف ولاعجب فقد كان العصر الأول تمهيدا وتأسيسا للعصر الثانى .

ولكن لماذا لم يتأثر العلم والأدب بحال الدولة العباسية فى العصر الثانى فيضعفا بضعفها ؟ ؟

هذه ظاهرة جديرة بالوقوف عندها لمعرفة أسبابها ، فإن المألوف والمعهود

---

(١) التسول .

أن الأدب والعلم يقويان وينهضان بقوة الدولة ويضعفان بضعفها، وعصرنا الثانى ضعفت فية الدولة العباسية سياسيا وانقسمت إلى دول ودويلات ولكنها لم تضعف علميا ولا أدبيا كما قدمنا فما سر ذلك؟ وماتعليل هذه الظاهرة؟

جواب ذلك فى عدة أمور هى :

(١) تنافس الدويلات العباسية فى إنهاض العلوم والآداب، بتشجع حكامها للعلماء والأدباء، وإغرائهم بالقدوم إلى حواضرهم ليكونوا مظهرا لرقى دولهم وزينة لملكهم، وتقليدهم المناصب السامية، ومنحهم الجوائز، حفزا لهممهم، وإثارة لقرائحهم لينتحوا مانفخر به كل دولة على ماعداها.

فبعد أن كانت (بغداد) هى المركز الثقافى المرموق فى الدولة العباسية والمقصود وحده من نوابغ العلماء والأدباء، أصبح أمام هؤلاء مراكز متعددة للثقافة مبثوثة فى أنحاء الدولة مثل (حلب) و (الموصل) و (دمشق) و « القاهرة »، ومثل « بخارى » و « سمرقند » و « الرى » و « أصفهان » و « شيراز » يستطيع فيها العلماء والأدباء والشعراء إذا قصدوا أيامنها إبراز تفوقهم وتحقيق أحلامهم فى الشهرة والثروة والمجد.

(٢) افتتاح « ديوان للانشاء » فى كل دولة من هذه الدول النابتة فى كنف الدولة العباسية الكبرى على غرار « ديوان الإنشاء » فى بغداد، وهو الديوان الذى تصدر عنه المكاتبات الرسمية للدولة فى شتى شئونها الداخلية والخارجية وكان يختار لرئاسته أديب كبير فى رتبة « وزير » ويعاونه فى العمل بالديوان أدباء على مراتب بحسب درجة تمكنهم من الكتابة وتحليهم بفضيلة البلاغة، ويترقى فيه الكاتب من رتبة إلى رتبة أعلى على قدر مايظهر من مهارة وكفاية، فكان أشبه بمدرسة أدبية عظيمة خرجت كثيرا من الأدباء والكتاب البلغاء وحافظت على نهضة الأدب وازدهاره.

(٣) انتشار (المكتبات العامة) فى تلك الدول والأقاليم على غرار مكتبة بغداد الكبرى التى أنشأها الخليفة (المأمون) وتعهدها الخلفاء من بعده وقد وظف الحكام لهذه المكتبات الأمناء الذين تولوا ادارتها وفهرستها وتبويبها وتنظيمها ، وكانت مباحة لكل طالب علم ، يقصدها من يشاء ويطلع فيها على مايشاء من علوم وآداب وثقافة .

ومن أشهر تلك المكتبات[1] المكتبة التى أنشأها (نوح بن منصور) أحد ملوك الدولة السامانية فى (بخارى) والتى قصدها فيلسوف الاسلام الكبير الشيخ الرئيس (ابن سينا) وانتفع بمافيها من كنوز أعظم انتفاع[2] ومكتبة (حلب) التى أنشأها (سيف الدولة الحمدانى) وكان من روادها الفيلسوف العظيم (أبو نصر الفارابى) والشاعر (أبو الطيب المتنبى) والعالم النحوى المشهور (ابن جنى) والتى كان يقوم على أمرها الشاعران المبدعان (أبو بكر محمد بن هاشم) وأخوه أبو عثمان سعيد بن هاشم) وهما المعروفان فى تاريخ الأدب بالأخوين الخالدين[3] والمكتبة الكبرى التى أنشأها (الحاكم بأمر الله) الخليفة الفاطمى فى القاهرة وكانت تسمى (دار العلم) وهى فرع من دار الحكمة التى أنسم عام ٣٩٥ هـ ، وقد حوت هذه المكتبة آلاف المجلدات فى سائر العلوم والفنون وسمح للناس من جميع الطبقات بالتردد عليها والافادة منها .

وكان الحاكم قد أمر بأن تحمل اليها الكتب من خزائن القصور الفاطمية ورتب لها الأمناء والمعاونين والخدم ، وأعد فيها كل مايحتاجه القراء

المطلعون والمنتسخون من أوراق وأقلام ومداد ، ووقف عليها أماكن فى (الفسطاط) لتستمر فى أداء رسالتها إلى ماشاء الله .

(٤) ومكتبة (الرى) عاصمة البويهيين فى فارس ، وكانت عامرة مزدهرة على عهد وزيرهم الأشهر (ابن العميد) زعيم البلغاء فى عصره ، وكان كبير أمنائها (ابن مسكويه) أبو على أحمد بن محمد المؤلف المعروف صاحب كتاب (تجارب الأمم) وقد زاد ازدهارها فى عهد الوزير (الصاحب بن عباد) ، وقد ذكر الشيخ الامام (أبو بكر البيهقى) الشافعى أنه دخل مكتبة الرى هذه فوجد فهرست كتبها وحده يقع فى عشر مجلدات .

(٥) ومكتبة (أصفهان) التى كانت تقع بحذاء الجامع الأعظم جامع (الخصيب ابن مسلم) وكانت ذات حجر وخزائن بديعة وكان الذى أمر ببنائها الوزير الأديب الأستاذ الرئيس (أبو العباس أحمد الضبى)[1] وانظر وصف هذه المكتبة (للمافروخى) فى كتابه (محاسن أصفهان) . ، ونفد فيها (أى الضبى) من الكتب عيونا ، وخلدها من العلوم فنونا ، ويشتمل فهرسها على ثلاثة مجلدات كبيرة من المصنفات فى أسرار التفاسير ، وغرائب الأحاديث ومن المؤلفات فى النحو واللغة والتصريف والابنية ، ومن المدونات من غرر الأشعار وعيون الأخبار ، ومن الملتقطات من سنن الأنبياء والخلفاء وسير الملوك والأمراء ، ومن المجموعات من علوم الأوائل من المنطقيات والرياضيات والإلهيات . . الخ)

---

(١) أحد وزراء الدولة البويهية العظام وهو أحمد بن ابراهيم ، الملقب بالكافى الأوحد وزر بعد (الصاحب بن عباد) لفخر الدولة البويهى وتوفى فى صفر سنة ٣٩٩هـ .

وحسبنا فى بيان ما كانت عليه تلك المكتبات من حسن التنسيق والتنظيم وجمال الترتيب والتبويب وصف (ابن سينا) لمكتبة (بخارى) المشار اليها بعد زيارته لها أول مرة قال : (فدخلت داراً ذات بيوت) (أقسام) كثيرة فى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض[1] . فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى بيت آخر الفقه . . وكذلك فى كل بيت علم مفرد ، فطالعت فهرست (كتب الأوائل) ، وطلبت ما احتجت اليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط . وما كنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضاً من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظفرت بفوائدها ... الخ)

ولعل مكتبة (بخارى) هذه كانت متواضعة إذا قيست بمكتبات العواصم الكبرى كبغداد والقاهرة ، وهذا كله غير (المكتبات الخاصة) التى كانت لدى الأمراء وكبار العلماء والأعيان وهذه لا يكاد يحصرها عد .

(٦) إنشاء المدارس الكبرى (الشبيهة بالجامعات) فى هذا العصر ، وانتشارها فى أنحاء الدولة الاسلامية ، وكانت مراكز للعلم والثقافة فى أول الأمر هى المساجد ، ثم ألحقت ببعضها مدارس العلوم المختلفة على صورة دور ملاصقة لمبانى المسجد ومتصلة به ثم أنشئت المدارس المنفصلة وأول من أسس هذا النوع الأخير الوزير الخطير (الحسن بن على بن إسحاق[2])

---

(١) يريد الأصونة ، الدواليب ، ذات الأرفف التى توضع عليها الكتب

(٢) أغتيل رحمه الله فى عام ٤٨٥هـ .

المعروف بـ « نظام الملك »[١] أعظم وزراء الدولة السلجوقية شأناً وكفاية ونبلا وصلاحا وسياسة . وكان كما يقول عنه الدكتور « حسين مؤنس »[٢] « درة من درر تاريخ الاسلام » فأنشأ « المدرسة النظامية » الشهيرة فى بغداد عام ٤٥٩هـ واستقدم لها أكابر العلماء للتدريس فيها وأجرى عليهم وعلى طلابهـا الارزاق الوافرة تشجيعاً عـلى طلب العلم ، وكان من أساتذة هذه المدرسة الامام « الغزالى » حجة الاسلام ، و « أبو زكريا التبريزى » و « أبو اسحاق الشيرازى » و « كمال الدين الأنبارى » و « شهاب الدين عمر السهروردى وغيرهم من أكابر العلماء » وهى أول مدرسة منظمه ذات أساتذة ومكتبة وطلاب يحضرون الدروس وفق منهاج مقرر فى تاريخ الاسلام بل فى تاريخ العصور الوسطى كلها[٢] ، كما أنشأ « نظام الملك » مدارس أخرى مثلها نسبت اليه كذلك فى « شيراز » و « أصفهان » وغيرهما من العواصم ، وتشبه به الملوك من بعده وجروا على سنته فى انشاء المدارس ومن هؤلاء الخليفة العباسى المستنصر بالله الذى ولى الخلافة عام ٦٢٣هـ الذى أنشأ المدرسة المستنصرية فى بغداد ، ومنهم الملك المجاهد « نور الدين زنكى » الذى بنى مدارس فى « دمشق » و « حلب » و « حماة » و « بعلبك » و « منبج » وخليفته فى جهاد الطليبيين السلطان « صلاح الدين الأيوبى » الذى أنشأ المدارس فى القاهرة والإسكندرية والقدس وجرى على هذه السنن من بعده سلاطين المماليك فى مصر والشام ، وقد ذكر « ابن جبير » وهو من أصحاب الرحلات المسلمين فى القرن السادس الهجرى ، أنه شاهد فى بغداد « ثلاثين » مدرسة وفى دمشق « عشرين » من هذا الطراز .

---

(١) ، (٢) راجع كتاب نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق للدكتور حسين مؤنس ص ٥٥ - ٥٦ .

(٧) مشاركة بعض الأمراء وأفراد البيوت الحاكمة فى العلم والأدب والشعر، «كسيف الدولة الحمدانى» و«ابن عمه» أبى فراس»، و«أبى العشائر» فى الدولة الحمدانية و«تميم بن المعز لدين الله الفاطمى» فى الدولة الفاطمية و«عضد الدولة» وابنه «تاج الدولة» فى الدولة البويهية والأمير «قابوس بن وشمكير» أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان فى الدولة الزيارية، و«أبى الفضل الميكالى» بقية آل ميكال أمراء فارس وقصر منصب الوزير الأكبر فى كل دولة على من كان أديباً وكاتباً بليغاً وهو أخطر منصب فى ذلك العصر ويقابله الآن منصب «رئيس الوزراء»، ومن أمثال بلغاء الكتاب الذين رفعهم أدبهم إلى هذا المنصب الكبير «ابن العميد»، و«الصاحب بن عباد»، و«أبو العباس الضبى» وزراء الدولة البويهية و«نظام الملك» و«الطغرائى» فى الدولة السلجوقية و«القاضى الفاضل» فى الدولتين الفاطمية والأيوبية، وغيرهم كثير.

(٨) أن هذا العصر الثانى جنيت فيه ثمار ماغرس من بذور النهضة الأولى فى العلوم المختلفة مابين أصلية ودخيلة، ولما كان الغرس جيداً والتربة فسيحة وخصبة، كان الازدهار كبيراً والنتاج عظيماً وفيراً، وفيما يلى حديث موجز عن «جوانب النهضة فى ذلك العصر» التى قيل فيها بحق[1] «إن هذا العصر كان أزهى

---

(١) راجع المفصل فى تاريخ الأدب العربى لأحمد الاسكندرى وآخرين ج٢ ط بولاق عام ١٣٥٥هـ.

العصور الإسلامية من الناحية العلميه ، لم يدرك شأوه عصر آخر من عصور المسلمين لما كان فيه من نوابغ العلماء ، وما انتجوه من مؤلفات ، وما ابتكروه من نظريات ، ولايغيب عن الذهن أن هذه النهضة العلمية الكبرى كان لها آثارها البليغة على الأدب وتطوره فى الشعر والنثر على السواء.

أولا : العلوم الأصلية :

أ - (التفسير والحديث) :

عنى كثير من العلماء بمواصلة العناية بتفسير القرآن الكريم وتجلية معانيه ومقاصده الشريفة ، وزادوا على ذلك العناية ببيان ما فى أسلوبه من وجوه اللغة والإعراب والبلاغة . ومن أشهر أصحاب هذا الاتجاه من مفسرى هذا العصر الإمام جار الله « محمود بن عمر الزمخشرى » المتوفى عام ٥٣٨ هـ الذى ألف فى التفسير كتابه العظيم « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » فى أربعة مجلدات كبيرة ، ويعد من أنفس التفاسير وأنفعها وبخاصة لمن يروم الاستزادة فى النواحى اللغوية والنحوية والبلاغية بالإضافة إلى ما ضمنه من الشواهد الشعرية الرائعة ولا يغض منه ميله إلى آراء « المعتزلة فى المسائل الكلامية » .

وفى « الحديث » نشأ « علم مصطلح الحديث » الذى يعنى بدراسة أسانيد الأحاديث وتراجم الرواة ونقدهم وبيان أحوالهم ، وترتيب الأحاديث على حسب درجتها من الصحة .

وفى « الفقه » نشط أتباع المذاهب الأربعة « الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى » التى كانت قد نشأت فى العصر الأول — نشطوا فى تحرير كل مذهب وتحقيق مسائله ، وتطبيق قواعده على الفروع وعلى الأحداث الجديدة ثم دار الحوار والجدال بين أصحاب المذاهب حول الأمور الفرعية التى اختلفت فيها وجهات النظر وقامت المناظرات الكثيرة بين العلماء — وأخذ الجدال أحياناً طابع الشدة والعنف ، وأخذ كل فريق يؤيد وجهة نظره

ومذهبه بالأدلة الكثيرة من عقلية نقلية، حتى ألفت فى الخلافيات كتب كثيرة وكان لهذه الحركة النشطة أثرها فى نمو العلوم الفقهية والتشريعية ، واستمرار الاجتهاد لاستنباط الأحكام لما يجد فى المجتمع الإسلامى من شئون استنادا إلى الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

وفى « علم الكلام » كانت الفلسفة فى العصر الأول قد تسربت إلى بعض آراء « المعتزلة » ونشأت مذاهب كلامية جديدة فى المجتمع الإسلامى «الشيعة» و « الخوارج » و « المرجئة »[1] واضيفت تعديلات إلى مذهب أهل السنة والجماعة لتواجه ماأثارته المذاهب الأخرى من مشكلات .

ومن أوائل شيوخهم « أبو الحسن الأشعرى » م ٣٢٤هـ و « أبو منصور الماتريدى » المتوفى عام ٣٢٣ هـ . وفى العهد البويهى احتضن البويهيون وهم شيعة مذهب الاعتزال ، فازدهر طيلة عهدهم واشتد الصراع بينهم وبين أهل السنة[2] واستمر ذلك قليلا فى أوائل أيام العهد السلجوقى ، ولكن السلاجقة لم يلبثوا أن تحولوا إلى نصرة أهل السنة والجماعة فكانت لهم الغلبة فى النهاية وأشهر علماء المعتزلة فى ذلك العصر الشيخ « عبدالله بن معروف » قاضى قضاة الدولة العباسية المتوفى عام ٣٢١هـ « والشيخ (عبد الجبار أحمد بن عبد الجبار) قاضى قضاة الرى وأعمالها م ٤١٤هـ ، والقاضى (أبو الحسن الماوردى م ٤٥٠هـ أما علماء أهل السنة فمن أشهرهم إمام الحرمين (الجوينى) والأستاذ (أبو القاسم القشيرى) و (أبو إسحاق الشيرازى) رئيس المدرسة

---

(١) الذين أرجئوا أمر (مرتكب الكبيرة) إلى يوم القيامة يحكم الله فيه بما يشاء .

(٢) راجع كتاب المعتزلة لزهدى حسن جار الله ط مصر ١٢٦٦هـ .

النظامية بغداد والإمام (أبو حامد الغزالى) حجة الإسلام المتوفى عام ٥٠٥هـ وهـو الذى بذل جهوداً عظيمة فى خدمة الإسلام ونصرة السنة بمؤلفاته العديدة القيمة ويأتى على رأسها كتابه (إحياء علوم الدين) الذى جمع فيه بين الشريعة والأخلاق والتصوف فى أسلوب عذب وبيان رائع .

ب (علوم اللغة) :

فى متن اللغة ألفت فى هـذا العصر المعاجم الكثيرة التى إمتازت عن معاجم العصر الأول بحسن ترتيبها وقرب مأخذها منها (التهذيب) للأزهرى ٣٧٠ هـ و (المجمل) لابن فارس ٣٩٠هـ وأهم كتاب بعدهما (الصحـاح) للجوهرى أبى نصر إسماعيل بن حماد المتوفى فى عام ٣٩٨هـ (ومن العجيب أن يكون مؤلف هذا السفر العظيم تركيا من بلدة (فاراب) التركية الواقعة وراء نهر (سيحون) فى بلاد التركستان مما يدل على تغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى تلك الجهات النائية) وقد وضعه على منهج جديد لحذف المهمل الذى كان قد أثبته (الخليل بن أحمد) فى معجمه المسمى (العين) مع المستعمل – فاقتصر الجوهرى على المستعمل وذلك أيسر فى التناول ، ثم رتبه على حسب حروف الهجاء وراعى أواخر الكلمات بعد تجريدها من الزوائد ، وجعل الحرف الأخير بابا والحرف الأول فصلا ، واقتصر الجوهرى فى معجمه على الكلمات التى صحت عنده ومن هنا جاءت تسميته (الصحاح) وجمع فيه (أربعين ألف مادة) وقد اتبعه فى هذا النهج الإمام (جمال الدين بن منظور الأفريقى المصرى) المتوفى عام ٧١١هـ صاحب أعظم وأكبر معجم فى العربية الذى سماه (لسان العرب) وجمع فيه (ثمانين ألف مادة) والإمام (مجد الدين الفيروز ابادى الشيرازى) المتوفى عام ٨١٧هـ فى معجمه العظيم (القاموس المحيط) ؛

الذى جمع فيه (ستين الف مادة) ومن أشهر كتب اللغة المؤلفة فى عصرنا العباسى الثانى (المخصص) لابن سيدة المرسى الأندلسى المتوفى عام ٤٥٨ ﻫ وقد نهج فيه نهجا آخر، إذ جمع فيه كل الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى مكان واحد فمثلا كل الكلمات التى تتعلق (بالابل) جمعها ورتبها فصولا فصل فى أسنان الابل، وفصل فى أمراضها وهكذا... فهو من المعجمات التابعة فى ترتيبها المعانى لا الكلمات والحروف وكتابان جليلان للزمخشرى المتوفى عام ٥٣٨ ﻫ وهما (الفائق فى غريب الحديث) - و (أساس البلاغة) وقد اتبع فى ترتيبها أسلوبا جديدا هو اعتماد أوائل الحروف فى الكلمات لأواخرها لتقسيمه إلى أبواب وفصول، وقد تبعه فى هذه الطريقة بعض أصحاب المعاجم الذين جاؤا من بعده كأبى الفتح المطرزى المتوفى عام ٦١٠ ﻫ فى كتابه (المغرب) وابن الأثير فى (النهاية) والفيومى فى) المصباح المنير) ويمتاز (أساس البلاغة) للزمخشرى بميزتين: أولهما: أنه فى كثير من المواد يفرق بين الاستعمال الحقيقى للكلمه والاستعمال المجاز لها، فبعد أن يذكر المعانى الحقيقية للكلمة يقول: ومن باب المجازى كذا:. والميزة الثانية أنه فى أغلب الأحيان لايقتصر على ذكر معانى الكلمات منفردة بل يضيف إلى ذلك بيان معانيها وهى فى داخل جمل كثيرة، والجمل التى يوردها تكون غالبا بليغة منتقاة وقد أعان الزمخشرى على هذا التوسع أنه لم يستكثر من مواد اللغه بل اقتصر على المشهور منها ولكثرة أهمية ماظهر من المعجمات اللغوية فى هذا العصر سمى عصر المعاجم وحظى علم (النحو) باهتمام العلماء وتشجيع الأمراء فى هذا العصر، وكان مما تصبو اليه نفوس الحكام أن تقترن مؤلفات العلماء بأسمائهم ومن أمثلة ذلك مافعله العالم النحوى (أبو على الفارسى) المتوفى ببغداد عام ٣٧٧ ﻫ حين ألف كتابيه (الايضاح)

و «التكملة» وصدرهما بالاهداء (لعضد الدولة البويهى) ومن أشهر علماء النحو بعده ، ابن جنى ، أبو الفتح عثمان المتوفى ببغداد عام ٣٩٢ﻫ ومن مؤلفاته «الخصائص» و «سر الصناعة» و «المحتسب» والإمام «الزمخشرى» وله فى النحو كتب كثيرة منها «النموذج» و «الامالى» و «المفصل» الذى عنى العلماء به شرحا وتعليقا ومنهم «ابن الأنبارى» المتوفى ببغداد عام ٥٧٠ﻫ ومن مؤلفاته «أسرار العربية» و «الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين» ومنهم «أبو البقاء العكبرى» المتوفى ببغداد عام ٦١٦ ﻫ ومن مؤلفاته «التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين وشرح المفصل للزمخشرى وشرح اللمع لابن جنى وشرح الايضاح لأبى على الفارسى» وفى علوم «البلاغة» ظهر العالم الجليل الامام «عبد القاهر الجرجانى» المتوفى عام ٤٨١ ﻫ وأضع أسس البلاغة فى صورتها الأصيلة النقية البعيدة عن تعقيدات المنطق بكتابيه العظيمين «دلائل الاعجاز» و «أسرار البلاغة» وقد سبقه القاضى «أبو بكر الباقلانى» المتوفى عام ٤٠٣ﻫ بكتابه «إعجاز القرآن» والأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى المتوفى عام ٤٦٦ ﻫ بكتابه «سر الفصاحة» إلا أن كتابى عبد القاهر جاء أشمل وأوفى وأدق فى تقرير القواعد من كتابى الباقلانى والخفاجى ثم جاءت من بعد هؤلاء - مدرسة زعيمها «أبو يعقوب السكاكى» المتوفى عام ٦٢٦ﻫ

الذى تحدث عن البلاغة فى جزء من كتابه «مفتاح العلوم» بالأسلوب المنطقى الجاف ومن أشهر تلاميذه القاضى الخطيب «القزوينى» المتوفى عام ٧٣٩ الذى صنف «تلخيص المفتاح فى المعانى والبيان» و «الايضاح» للتلخيص :

«التأليف فى الأدب» :

وفى هذا العصر ظهرت أضخم الكتب التى عنيت بالأدب شعره ونثره.

وأخبار الأدباء من شعراء وكتاب فترجمت لهم فى بسط وتفصيل وإسهاب وتحدثت عن حياتهم الخاصة والعامة وما يتصل بهم من طرائف ونوادر مع عرض الكثير من نماذج أشعار الشعراء وآثار الكتاب ومن أشهر هذه الكتب على الإطلاق كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى المتوفى عام ٣٥٦ هـ . وهو أديب عربى من نسل بنى أمية إلا أن مولده ونشأته كانا فى « أصفهان » إحدى عواصم فارس ثم انتقل إلى بغداد وألف كتابه الأغانى فى واحد وعشرين جزءاً ويعد رأس أمهات كتب الأدب فى اللغة العربية قاطبة ، إذ هو أجمع هذه الكتب لتراجم الأدباء والشعراء وأخبار العرب وأنسابهم فى الجاهلية والإسلام مع العناية بالرواية .... وقد سماه « الأغانى » لأنه بناه على (المائة صوت المختارة) التى كان الخليفة العباسى « هارون الرشيد » قد أمر مغنيه النابغة البارع « إبراهيم الموصلى » أن ينتخبها له من جميع الغناء لتكون هى الصفوة الممتازة المنتقاة ، فجعل أبو الفرج هذه الأصوات وما بنيت عليه من شعر منطلقاً لكتابه الضخم القيم ، فهو يذكر الصوت ولحنه وترقيمه ومن لحنه من كبار الباحثين ومن غنى به من مشاهير المغنين والمغنيات ثم يذكر قائل الأبيات ويترجم له ويستطرد من ذلك إلى ذكر غيره من الشعراء والأدباء وطرائفهم وأخبارهم ومختارات له من جيد شعرهم فى شتى الأغراض ، ثم لم يكتف بالمائة صوت المختارة ، بل أضاف أصواتاً من اختياره هو ، صنع معها مثل هذا الصنيع .

ومن أهم الكتب من هذا الباب كذلك كتاب « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » لأبى منصور الثعالبى المتوفى عام ٤٢٩ هـ .

وقد ترجم فيه لشعراء وكتاب القرن الرابع الهجرى ، ورتبه ترتيباً جميلا بحسب الأقطار والأقاليم والمدن الكبيرة وخص الأعلام والمشاهير بمزيد من العناية وبسط القول ، وجعل أكبر همه عرض ما استحسنه من آثار الأدباء المذكورين فى الشعر والنثر ولذا فهو حافل بالنماذج البديعة والمختارات الرائعة .

وظهرت كتب عنيت بنقد الشعراء والموازنة بينهم ما بين طعن وتجريح وحط من أقدار بعضهم وبين تعصب لهذا البعض وانتصار له وانتصاف بالرد على الفريق الأول وتفنيد حججه ومن ذلك كتاب (الموازنة بين الطائيين) وهما (أبو تمام) و (البحترى) لمؤلفه (أبو القاسم الحسن ابن بشر الآمدى) المتوفى عام ٣٧١ هـ .

فقد نقد كلا من الشاعرين نقداً محكما وأظهر ما لكل منهما من محاسن ومساوىء ، ووضع الوزير الكاتب (الصاحب بن عباد) المتوفى عام ٣٨٥ هـ كتاباً فى (عيوب المتنبى) وانتصر للمتنبى جماعة من أهل الأدب فألف القاضى الأديب (عبد العزيز الجرجانى) كتاباً فى ذلك سماه (الوساطة بين المتنبى وخصومه) ومن كتب الأدب فى أواخر العصر (أمالى بن الشجرى) البغدادى المتوفى عام ٥٤٢ هـ .

وكتاب (دمية القصر) الباخرزى المتوفى عام ٤٦٧ هـ . الذى جعله كالذيل (لليتيمة) ومن هذا الباب كتاباً (وشاح الدمية) لأبى الحسن البيهقى جعله كالذيل للدمية وكتاب (زينة الدهر وعصر أهل العصر) لأبى المعالى الحظيرى المتوفى عام ٥٦٨ هـ .

وكتاب « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » للعماد الأصبهانى المتوفى عام ٥٩٧ هـ . وهو كتاب ضخم فى عشرة أجزاء أرخ فيها لشعراء ما بعد المائة الخامسة من الهجرة إلى سنة ٥٧٢ هـ . ومن أقيم الكتب الأدبية التى ظهرت فى هذا العصر كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى « أحمد بن محمد بن أحمد » المتوفى عام ٥١٨ هـ . وهو كتاب فريد فى بابه جمع أمثال العرب فى مصنف واحد لأول مرة وبين مواردها ومضاربها وروى القصص المتعلقة بها فجاء شائقاً رائعاً محتوياً على أخبار العرب وأيامهم وقد جمع فيه ستة آلاف مثل .

ونختم بالإشارة إلى سفر أدبي قيم ألفه أواخر هذا العصر « ياقوت الحموى الرومى » المتوفى عام ٦٢٦ هـ . ويعد من أعظم المراجع وأوفاها في تراجم الكتاب والشعراء المطرزة بمختارات من نثرهم وشعرهم ، ويمتاز بأنه رتبهم على حروف المعجم فيسر بذلك الاهتداء إليهم وسماه « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » فجاء تحفة رائعة في بابه[1] .

التاريـــخ :

كان انقسام الدولة الإسلامية الكبرى دولة الخلافة العباسية إلى دول ودويلات داعياً للمؤرخين إلى التأريخ لكثير من هذه الدول وبخاصة الدول التي كان لها شأن وخطر ، فمن ذلك تاريخ « العتبي » للدولة « الغزنوية » ، وتاريخ « الصابي » للدولة « البويهية » وتاريخ « العماد الأصفهاني » للدولة السلجوقية ، وشهاب الدين المقدسي للدولتين « النورية » « المنسوبة إلى السلطان نور الدين محمود » و « الأيوبية » المنسوبة إلى صلاح الدين الأيوبي في كتابه المسمى بـ « الروضتين في أخبار الدولتين » .

أما التاريخ العام فقد حظى أيضاً في هذا العصر برجال عظماء عنوا به كل العناية ومن أشهرهم : « المسعودى » علي بن الحسين المتوفى عام ٣٤٦ هـ . وينتهي نسب هذا المؤرخ الجليل إلى الصحابي الكريم « عبد الله بن مسعود » رضي الله عنه وأهم كتب المسعودى في التاريخ كتاب « مروج الذهب » وقد ذكر فيه أولا تاريخ الأمم القديمة ثم تاريخ الإسلام إلى عهد الخليفة العباسي الرابع والعشرين « المطيع لله » ، ثم جاء بعده المؤرخ « ابن مسكويه » المتوفى عام ٤٢١ هـ .

---

(١) راجع طبعته في عشرين جزءاً تحت عنوان « معجم الأدباء » بإشراف د . أحمد فريد الرفاعي طبع دار المأمون ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧م .

فألف كتابه المشهور فى التاريخ (تجارب الأمم) وهو تاريخ عام يقع فى ستة مجلدات وجاء بعدهما (ابن الأثير الجزرى) المتوفى عام ٦٣٠ هـ . فألف كتابه الكبير (الكامل فى التاريخ) وقد أرخ فيه للبشرية من بدء الخليقة وظل يتبع العصور التاريخية ويؤرخ للأمم والشعوب والملوك حتى زمانه وإلى ما قبل وفاته (وفاة المؤلف) بعامين وطريقة تاريخه تابعة للأعوام فيعنون بالسنة (مثلا الثامنة بعد الهجرة) ويذكر ما حدث فيها فى البلدان المختلفة مقتديا فى ذلك بشيخ المؤرخين (الطبرى) .

وممن أرخ للأقاليم (أبو عمر الكندى ٣٥٥ هـ) فى كتابه (أخبار مصر وولاتها وقضاتها) وابن زدلاق ٣٨٧ هـ . فى تاريخ مصر ، والقضاعى ٤٥٤ هـ فى خطط مصر وهو الذى اعتمد عليه ، المقريزى ، فى خططه فيما بعد ، كذلك عنى كثير من مؤرخى هذا العصر بوضع الكتب فى تواريخ الرجال وتراجم المشهورين ومن هؤلاء (الخطيب البغدادى) ٤٦٣ هـ .

الذى الف كتاباً مطولا فى تاريخ مشهورى البغداديين يقع فى أربعة عشر مجلداً .

الجغرافيـة) :

عنى الجغرافيون فى هـذا العصر بالرحلات فساحوا فى أواسط آسيا وأفريقية وعبروا البحار واهتدوا إلى كثير من الجزائر وزادوا فى معارف من قبلهم من الأمم عن البلدان والأصقاع ورسموا المصورات , الخرائط ، ووضعوا عليها الأماكن وراعوا فى كثير من الأحيان الأبعاد بين الأماكن وألفوا فى ذلك المؤلفات الكثيرة ما بين خاص ببعض الأصقاع وعام للكرة الأرضية . وأشهر الجغرافيين فى هذا العصر :

١ — , أبو إسحاق الفارسى الأصطخرى ، الذى ألف كتاب , الأقاليم ،

وكتاب « مسالك الممالك المعروفة فى عصره وحدودها وبحارها وأنهارها وعنى بالمملكة الإسلامية وامتاز كتاب الأقاليم بما فيه من المصورات .

٢ — ثم جاء من بعده « المقدسى » المتوفى عام ٣٧٥ هـ . وكان رحالة زار بلاد الهند والسند فى الشرق وبلاد الأندلس فى الغرب ووصف كل ما رأى فى رحلاته فجاء كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » مسجلا لمشاهداته فى رحلاته التى استمرت عشرين عاماً — وقد امتاز كتابه هذا أيضاً بالصور الملونة .

٣ — ثم جاء بعدهما « الشريف الأدريسى الصقلى » الذى عاش فى صقلية بعد أن رحل عنها الحكم الإسلامى واستولى عليها الفرنجة وألف لملكها الأفرنجى « روجر الثانى » كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عام ٥٤٨ هـ .

ومن أشهر الرحالين فى ذلك العصر الرحالة « ابن جبير » الذى رحل فى القرن السادس الهجرى ثلاث رحلات زار فى أولها مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية ووصف فيها ما رأى من الآثار ووصف أحوال أهلها الاجتماعية .

ومن أفضل المؤلفين فى الجغرافيا « ياقوت الحموى » المتوفى عام ٦٢٦ هـ وهو رومى الأصل اشتغل بالوراقة فى « بغداد » ومهد له ذلك سبيل الاطلاع على ذخائر الكتب ثم ساح فى البلاد تاجراً فى الكتب وغيرها وألف فى الجغرافيا كتابه العظيم « معجم البلدان » الذى يعد من أحسن الكتب وأجملها تنسيقاً — وقد رتبه على حسب حروف المعجم ، فيذكر اسم البلدة ويضبطه ويذكر ما عرف عنها وأشهر من نبغ من أهلها .

ومنهم «عبد اللطيف البغدادى» المتوفى عام ٦٢٦ هـ ، الذى زار مصر وجاب أنحاءها ثم ألف كتابا فى وصفها هو «الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار» ، ضمنه معلومات كثيرة مهمة عن مصر وحالتها الاجتماعية وما حوته من الآثار .

(العلوم الدخيلة)[1] :

وكما نمت العلوم الأصيلة وازدهرت على النحو الذى أشرنا إليه نمت وازدهرت كذلك العلوم الدخيلة ، فبعد أن عنى علماء العصر العباسى الأول بنقل كتب الرياضيات والطبيعة والطب والفلك والفلسفة خطت هذه العلوم فى العصر العباسى خطوة إلى الأمام إذ هضموا ما ترجم لهم ودرسوه دراسة عميقة ، واستخدموه فى حياتهم العملية وبخاصة فى الهندسة والطب وما إليهما ، وزادوا على ما نقل إليهم بالشرح والتعليق أحيانا وابتكار بعض النظريات فى أحيان أخرى .

(الفلسفـــة) :

كان من مظاهر الفلسفة فى هـــذا العصر مزج آراء «أفلاطون» و «أرسطو» وغيرهم من فلاسفة الإغريق بالآراء الإسلاميـة والمحاولات الجادة فى التوفيق بينهما .

ومن أشهر من عنى بالفلسفة فى هذا العصر رجال جمعية «إخوان الصفاء» التى تكونت بالبصرة أواسط القرن الرابع الهجرى وقد تكتم أعضاؤها

---

(١) إعتمدنا فى هذا الموضوع على ما أورده الشيخ أحمد الإسكندرى وزملاؤه فى كتاب «المفصل» فى تاريخ الأدب العربى .

أسماءهم خوفاً من الاتهام بالزندقة ، وألفوا خمسين رسالة فى مختلف فروع الفلسفة النظرية والعملية مما يدل على ثقافتهم الواسعة وإحاطتهم بالفلسفة اليونانية ـ وقد ربطوا الفلسفة بالدين وحاولوا إزالة ما بينهما من فروق .

أما أشهر الفلاسفة فى هـذا العصر فهو « أبو نصر الفارابى » المتوفى سنة ٣٣٩ هـ .

وهو تركى الأصل هاجر إلى الشام واتصل بسيف الدولة الحمدانى فعرف قدره وقربه فى حاشيته وأجرى عليه الرزق مع زهد الفارابى وترفعه عن ملذات الحياة وقد ألف الفارابى فى الفلسفة وفروعها كتباً عـدة دلت على طول باعة وعلو قدره فى الفلسفـة حتى لقبه من جاء بعده من الفلاسفة « بالمعلم الثانى » فى مقابل تسمية « أرسطو » المعلم الأول .

وجاء بعده (ابن سينا) المتوفى عام ٤٢٨ هـ .

المولود فى بخارى من بلاد التركستان فى أسرة كريمـة وكان نابغة منذ صغره وبرع فى العلوم الدينية والفلسفية وتنقل فى البلاد وانتفع بمكتباتها وعلمائها وباشر التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره وكان نابغة عصره فى الطب وله فيه كتاب (القانون) وهو دائرة معارف طبية عظيمة القيمة ، ظل عـمدة المراجع الطبية فى الشرق وفى أوربا إلى مطلع عصر النهضة وله كتاب (الشفاء) فى الطبيعة والإلهيات ، وقد فاق أستاذه الفارابى فى سعة إطلاعه وتنظيم بحوثه .

ومن أشهر الفلاسفة المسلمين فى ذلك العصر أيضاً (الفخر الرازى) المتوفى عام ٦٠٦ هـ .

الذى كان بحراً فى العلوم الدينية أيضاً وله فيها التفسير الكبير للقرآن

الكريم كما له تآليف عديدة فى العقائد وأصول الدين وكان متقدماً فى كثير من فروع العلم فهو فيلسوف ومفسر وفقيه وطبيب وفلكى ومؤرخ وله فى كل هذه الفروع تآليف وهذه كانت سمة معظم علماء هذا العصر فكانوا أولى ثقافة عاليه متسعة الآفاق متشعبة المناحى وكان كل منهم أشبه (بدائرة معارف) تمشى على قدمين ، ونلاحظ أن الجم الغالب من هؤلاء العلماء سواء من نبغ منهم فى العلوم الأصيلة علوم الشريعة واللغة والأدب ومن نبغ فى العلوم الدخيلة من طب وفلسفة ورياضيات وفلك .. الخ .

كانوا من العجم - ولاغرو - فقد استعربوا لساناً وديانة وصاروا يمثلون الحضارة الإسلامية السمحة التى لا تعرف التفرقة بين عربى وعجمى .

الباب الثاني

الشعر في العصر العباسي الثاني

(أ) ملامحه العامة وأعلامه :

١ - « رقيه وازدهاره » مضى الشعر فى طريق الرفعة والازدهار جاريا على سنن العصر الأول فى علو مكانته ، وقوة سطوته وارتفاع رايته ونفاق سوقه وذلك فى الجزء الأول من العصر الثانى ، أى فى خلال حكم « الدولة البويهية » إذ نبغ فيه أفذاذ مفلقون[1] من أمثال « المتنبى » م ٣٥٤هـ و « أبى فراس الحمدانى » م ٣٥٠هـ (والسرى الرفاء) م ٣٦٢هـ و (الشريف الرضى) م ٤٠٦هـ و ، أبى الحسن التهامى ، م٤١٦هـ و ، مهيار الديلمى ، م ٤٢٨هـ و ،أبى العلاء المعرى ، م ٤٤٩هـ وهؤلاء ساووا شعراء العصر الأول فى قوة شعرهم ، وسمو مكانتهم الأدبية ، بل منهم من كاد يفوق شعراء العصر الأول شهرة ومتانة نسج وعمقاً فى المعانى - كأبى الطيب المتنبى ، وأسباب ذلك الازدهار هى بوجه عام الأسباب التى ذكرناها قبلا فى عوامل النهضة الثقافية فى عصر الدويلات ونؤكد إلى ما أشرنا إليه وهو ان الشعر كان يحظى بمنزلة خاصة لدى الكثير من حكام هذه الأقاليم كما كان الحال لدى « سيف الدولة الحمدانى » فى العراق والشام ولدى « عضد الدولة البويهى » فى فارس ، ولدى ، كافور الإخشيدى ، فى مصر ولدى ، المعز لدين الله الفاطمى ، وخلفائه فى المغرب ثم فى مصر والشام .

٢ - (ضعفه قليلا عن العصر الأول) وذلك فى الجزء الأخير من العصر الثانى أى فى خلال عهد « الدولة السلجوقية » وإن احتفظ بالكثير من البهجة المعهودة فيه لاسيما فى شعر أعلامه من أمثال ، الطغرائى ، م ٥١٥ هـ والأبيوردى ، م ٥٠٧ هـ و ، الأرجانى ، م ٥٤٤ هـ وعمارة اليمنى ، م ٥٦٩ هـ و « البهاء زهير ، م ٦٥٦ هـ ، و ، ابن الفارض ، م ٦٣٢ هـ و ، ابن النبيه

---

(١) أفلق الشاعر : أتى بالمعجب فى شعره .

المصرى ، م ٦١٩ هـ .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن النهضة العلمية والثقافة فى العصر العباسى الثانى استمرت فى تقدمها طيلة مدتيه الرئيستين ، البويهية والسلجوقية ، أما الأدب — والشعر فقد نبهنا إلى ضعفها فى المدة السلجوقية عن سابقتها البويهية وإليك أسباب ذلك :

١ — ان البويهيين وأن كانوا عجما إلا أنهم من الفرس وهم أصحاب حضارة عريقة تقدر الآداب والفنون فكانوا يغدقون على الشعراء ويقدرونهم فازدهر الشعر فى أيامهم ، أما السلاجقة فكانوا من القبائل التركية التى تغلب عليها البداوة ، وهم لذلك كانوا أقل تذوقا للشعر والأدب من من أسلافهم البويهيين ، ومن ثم لم يكن للشعر العربى عندهم شأن كشأنه فى العصور السابقة .

٢ — أن اتصال البويهيين بالعرب والخلافة العباسية كان مباشراً فكانوا ينافسونهم ويتشبهون بهم فى اجتذاب الأدباء والشعراء والحفاوة بهم بينما كان اتصال السلاجقة بالعرب غير مباشر بل عن طريق الفرس حيث كانت قاعدة ملكهم فى ايران وجل موظفى الدولة من الفرس فكانوا إلى مجاملة العجم أقرب وإلى تشجيع آدابهم أميل .

٣ — أن اللغة العربيه وأن بقيت فى الدولة السلجوقية هى اللغة الرسمية إلا أن الفارسية فى فارس وخراسان وماوراء هما قد زاحمت العربية فنالة مراحة ونجحت بمساعى كبار موظفى الدوله من الفرس فى تجديد آدابهم ولغتهم الفارسية يكتبونها بحروف عربية .

٤ — كثرة الفتن والحروب الداخلية فى العهد السلجوقى ، وماترتب

على ذلك من نكبات ، ما أشاع الخوف والرهبة وأمات كثيراً من القرائح وأخرس كثيراً من الألسنة .

أمـــا ، مظاهر ضعف الأدب فى العهد السلجوقى ، عن العهد البويهى فتتمثل فيما يأتى :

تعلق الشعراء والكتاب بالبديع وإقبالهم على الصناعة اللفظية حساب المعنى ومغالاتهم فى المجاز تقليداً لأساليب الفرس ، وتقليد شعرائهم للسابقين ، وولوعهم بمعارضتهم (١) فى قصائدهم المشهورة وكثر فى الشعر التملق والرياء ، وظهرت فيه أساليب العلماء من فقهاء ونحاة وفلاسفة وأطباء وفلكيين ، فضعفت ديباجته ، كما ضعف فيه عنصر الخيال ، كذلك كثر فى شعر ذلك العصر الهزل والمجون وما يتصل بهما من المعانى السخيفة والألفاظ المبتذلة ، وافتقدت عند معظم شعرائه القوة وشدة الأسر والروعة التى كنا نجدها فى شعراء العصر السابق كالشريف ومهيار والمتنبى والمعرى وأبى الفتح البستى وابن نباته السعدى ؛

٣ (الثالث من ملامح الشعر فى العصر العباسى الثانى) ظهور اللون الاقليمى فيه نظراً لانقسام الدولة العباسية الكبرى إلى دويلات كما علمت ، فتمركز الشعر فى جهات متعددة ولم تعد « بغداد » وحدها قبلة الشعراء بل اجتذب حكام كل اقليم عدداً كبيراً من الشعراء انحازوا إليهم وعاشوا فى كنفهم ، وتأثر شعرهم بالبيئة المكانية وأحداثها .

أ — فكان هناك شعراء « المشرق الإسلامى » « العراق وفارس

---

(١) المعارضة فى الشعر هى أن يأتى شاعر متأخر بقصيدة يبارى بها قصيدة لشاعر متقدم موافقة لها فى الوزن والقافية .

وخراسان ، وهذه الأقطار لتجاورها واتصالها كانت ذات طابع شعرى خاص يمتاز بجمعه بين الرقة والجزالة فى أسلوبه وبين القوة والإبداع فى معانيه وبالفخامة فى الموسيقى وسمو الخيال فى التصوير ومن أشهر شعرائه « الشريف الرضى ومهيار الديلمى والأرجانى والأبيوردى ، والتنوخى والدينورى والضبى وابن المنجم والطغرائى وصردروا الأبجرى والسلامى والسرى الرفاء .

ب - وهناك (الشعر الشامى) ، ويتميز بشدة الأسر وقوة المعانى وعمقها والعناية بالحكمة والمثل مع جزالة اللفظ وجولة السبك ورصانة الأساليب ، ومن أشهر شعرائه : المتنبى - أبوفراس الحمدانى - أبو العلاء المعرى - كشاجم - أبو الفرج الببغاء - عبدالمحسن الصورى .

ح - وهناك « الشعر المصرى » ، ويتميز بطابع الرقة والسهولة ، ومن أشهر رجاله : تميم بن المعز - على بن النعمان - عمارة اليمنى - ابن الفارض - ابن النبيه - ابن مطروح - البهاء زهير - ابن سناء الملك .

د - هذا فضلا عن الشعر فى « بلاد المغرب وجزائر البحر الأبيض المتوسط » ومن أشهر شعرائه : ابن هانىء الأندلسى - ابن رشيق القيروانى - ابن شرف القيروانى - ابن حمديس الصقلى - أما الشعر فى بلاد الأندلس فله حديثه الخاص .

(ب) تطوره :

١ - من جهة الأغراض : خاض شعراء هذا العصر فى كل الأغراض الشعرية القديمة التى عرفت فى العصور السابقة بالإضافة إلى الأغراض التى

نشأت فى العصر العباسى الأول ، فقالوا فى المدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف ... إلى آخر هذه الأغراض القديمة ، وقالوا فى الخمر والمجون والغزل بالمذكر وقالوا فى الزهد وفى الحكمة والمثل و... استحدثه شعراء العصر الأول ، بالإضافة إلى ما استحدثوه هم فى العصر الثانى من أغراض كالشعر الفلسفى وشعر التصوف وشعر الكدية مما سنعرض له بالتفصيل إن شاء الله وإليك كلمة موجزة عن أهم تلك الأغراض :

(الأغراض القديمة) :

١ — (المدح) : بلغ الغاية من القوة والتفنن والرواج ، فأكثر فيه وأجاد من يجتدى بشعره ويتكسب كأبى الطيب المتنبى وإضرابه من أمثال ابن هانى ، الأندلسى الذى شبه به فقيل (متنبى المغرب) ، وأكثر وأجاد أيضاً من لا يتكسب بالشعر كالشريف الرضى وأبى العلاء المعرى ، ومدائح (المتنبى) فى (سيف الدولة) وفى غيره تعد مثالا رائعاً للمدح فى هذا العصر من حيث استقصاء صفات الممدوح ، وتحليل شخصيته واسناد كل مقومات العظمة إليه ، انظر إلى قوله من قصيدة فى مدح سيف الدولة :

قلد الله دولة سيفها أنـــ	ـت حساما بالمكرمات محلى
فبه أغنت المـــوالى بذلا	وبه أفنت الأعادى قتلا
وإذا الأرض أظلمت كان شمسا	وإذا الأرض أمحلت كان وبلا
أيها الباهر العقول فما تد	رك وصفا . أتعبت فكرى فمهلا ؟
من تعاطى تشبها بك أعيا	ه ، ومن دل فى طريقك ضلا !!!
وإذا ما اشتهى خلودك داع	قال : لازلت أو ترى لك مثلا !!

وساعد على المدح هذا العصر أمران (أولهما) :

أن (الغلو الشديد) فى أوصاف الممدوح الذى كان قليلا فى العصر الأول أصبح كثيراً مألوفاً فى العصر الثانى ، فسيف الدولة فى نظر المتنبى فوق الأنام وهو وحده حامى الخلافة والذائد عن دولتها وهازم أعدائها ، استمع إليه يقول :

وما الفرق ما بين الأنام وبينه ... إذا حذر المحذور واستصحب الصعبا ؟
لأمر أعدته الخلافة للعدا ... وسمته دون العالم الصارم العضبا
إذا الدولة استكفت به فى مهملة ... كفاها فكان السيف والكف والقلبا

بل هو ملك الأنام جميعاً ، وليس يفرق فيهم الأموال فحسب وإنما يفرق كذلك الحياة والموت والعز والذل :

يا مليك الورى المفرق محيا . . ومماتا فيهم ، وعزا وذلا

وحتى (كافور الأخشيدى) الذى كان المتنبى يمدحه لا عن اقتناع وإنما رغبه فى ولايه يوليها إياه يقول فيه :

قضى الله يا كافور أنك أول ... وليس بقاض أن يرى لك ثان
لو الفلك الدوار أبغضت سعيه ... لعوقه شىء عن الدوران !!

أما الشاعر (ابن هانىء الأندلسى) فيأتى فى مدحه للمعز لدين الله الفاطمى بما هو أصرح فى هذا الباب وأجرأ حين يقول مخاطباً إياه :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار !

فيسند إليه صفات الخالق سبحانه وتعالى فى مبالغة شاذة ، وحين يقول فيه :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلة ما كانت الأشياء !
ليست سماء الله ما ترونها ... لكن أرضا تحتويه سماء !

و (ثانى الأمرين) ظهور نغمة (الاعتداد بالنفس) فى كلام المادح ، فالشاعر يمزج بين مدحه لغيره ، وبين فخره بنفسه ، وفخره هذا إما بمكانته وشرف منزلته ، وعزة نفسه ، وإما بعظمة شعره ، وسمو أدبه ، وقد يكون فخره بالأمرين جميعاً وهو يواجه ممدوحه بذلك ، ولا يرهبه ولا يجد فى هذا الفخر غضاضة ، هذا هو (الشريف الرضى) يمدح أمير المؤمنين (القادر بالله) الخليفة العباسى بقصيدته القافية الرائعة التى مطلعها :

لمن الحدوج تهزهن الأينق ... والركب يطفو فى السراب ويغرق؟[1]

والتى يقول فيها مخاطباً الخليفة :

لله يوم أطلعتك به العلا ... علماً يزاول بالعيون ويرشق
لما سمت بك غرة موموقة ... كالشمس تبهر بالضياء وتومق
وبرزت فى برد النبى والمهدى ... نور على أطرار وجهك مشرق
فى موقف تغضى العيون جلالة ... فيه ويعثر بالكلام المنطق
وكأنما فوق السرير وقد سما ... أسد على نشرات غاب مطرق
والناس إما راجع متهيب ... مما رأى أو طامح متشوق
مالوا إليك محبة فتجمعوا ... ورأوا عليك مهابة فتفرقوا

لا ينسى فى آخر القصيدة نفسه ومنزلته فيقول :

وأنا القريب إليك فيه ودونه ... لِيَدَى عدوك طود عز أعنق
عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا فى المعالى معرق
إلا الخلافة ميزتك فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

---

(١) راجع ديوان الشريف الرضي ج ٢ ط بيروت ص ٥٤١ .

وهذا (أبو الطيب المتنبي) تعلو عنده هذه النغمة حتى لا نكاد نجد قصيدة مدح عنده منها ، يقول في قصيدة (يمدح بها أبا سهل سعيد بن عبد الله الأنطاكي[1] عن عزة نفسه وفضله :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... ولا أعاتبه صفحا وإهوانا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... إن إن النفيس غريب أينما كانا

محسد الفضل مكذوب على أثري ... ألقى الكمي ويلقاني إذا حانا

لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعاً ... ولا أبيت على ما فات حسرانا

ولا أسر بما غيري الحميد به ... ولو حملت إلى الدهر ملآنا !!

ويقول من قصيدة له في مدح سيف الدولة معتزاً بنفسه وبشعره ومنزلته الأدبية :

وما أنا إلا سمهري حملته ... فزين معروضاً وراع مسدداً

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنى به من لا يغني مغرداً

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردداً

ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الصائح المحكي والآخر الصدى !!

ويقول أيضاً في نغمة أشد يفتخر بأدبه ، وبفروسيته وشجاعته ، ويلوم سيف الدولة على النظر إليه كواحد من الشعراء :

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

---

(١) راجع ديوان المتنبي بشرح عبد الرحمن البرقوقي ج ٢ ط المطبعة الرحمانية بمصر عام ١٣٤٨ هـ.

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

وجاهل مده فى جهله ضحكى ... حتى أتته يد فراسة وفم

إذا نظرت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم

• • •

ومهجة مهجتى من هم صاحبها ... أدركتها بجواد ظهره حرم

ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت يلتطم

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صحبت فى الفلوات الوحش منفرداً ... حتى تعجب منى الغور والأكم

وهذا (مؤيد الدين الطغرائى) يبدأ مدحة له فى سيد الرؤساء أبى المحاسن (معين الملك) بهذا الفخر بالنفس مقدماً له على المدح فيقول[1] :

فؤاد على كر الحوادث مارد ... وعزم على جور النوائب قاصد

أو الى بنى الأيام نظرة راحم ... وإن ظنت الجهال أنى حاسد

لهم فى تضاعيف الرجاء مخاوف ... ولى فى تصاريف الزمان مواعد

لك الله من هم به يسعد العلا ... وتشقى المبارى والدجا والفراقد

يزعزع كيران المطى يسام ... عليه شحوب الجد ، والمجد جاهد .

٢ - (الهجاء) : دخله الغلو الشديد كذلك ، فصار أكثر لذعا ، وأمر سخرية وأقوى إيلاماً وتنكيلا وهدما لشخصية المهجو ، ودخله عنصر الإقذاع ، واستعمل فيه اللفظ الفاحش والقول المسف الخادش وربما ذكرت فيه العورات مكشوفة مما ينبو عنه السمع ، وتنفر من قبحه النفس .

---

(١) راجع ديوان الطغرائى طبع القسطنطينية (أسلامبول) عام ١٣٠٠ هـ .

لهم ترفع عن الأقذاع فريق من شعراء ذلك العصر كالشريف الرضى وأبى العلاء المعرى والطغرائى بل كادوا يترفعون عن الخوض فى الهجاء جملة لظروف خاصة تتعلق بفلسفتهم فى الحياة وبرفيع منزلتهم فى المجتمع فهجاء هذا الفريق قليل خال من الاقحاش والإيغال فى الذم ومن أمثلته قول الشريف الرضى يخاطب عدوا لآل البيت وله بدأه بالإساءة :

لعل الدهر أمضى منك غربا	وأقوى فى الأمور يدا وقلبا
ومقلته إذا لحظت حسامى	تغيض مهابة وتفيض رعبا
فكيف وأنت أعمى عن مقالى	ولو عاينته لرأيت شهبا ؟ !
عذرتك أنت أردى الناس أصلا	وأخبث منصباً وأذل جنبا
وأنت أقل فى عينى من أن	أروعك أو أشن عليك حربا
أأعجب من خصامك لى وجدى	رسول الله يوسع منك سبا ؟ !
ومن رجم السماء فلا عجيب	يقال : حثا بوجه الأرض تربا
فإنك أن هجوت هجوت ليثا	وإنى إن هجوت هجوت كلبا ! !

وقول الطغرائى يهجو أحد الحاقدين عليه من الأثرياء :

وحان على الشحناء عوج ضلوعه	يسدد نحو شاردات المشاقص
يكاثر فضلى بالثراء ترقحا	وفى المال للجهال خير النقائص
فقلت له لما اشرأب لغايتى	ومد إليها نظرة المتخاوص

لقد فات قرن الشمس راحة لامس
وأعيا مناط النسر كفة قانص

أما الهجاء الغالب فى هذا العصر فكان كما وصفنا لك أولا ـ متميزا بالغلو والاقحاش وحسبك أن تعلم أن قصيدة هجاء من هذا النوع المسف كانت سبباً فى مصرع شاعر العربية المعظم (أبى الطيب المتنبى) وفجيعة

الأدب الفادحة بفقـــده ، وهى القصيدة التى قالها — على كراهة — فى هجاء (ضبة بن يزيد العتبى) ويتناول فيها أمه بالسوء والتى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبه   وأمه الطرطبــــه[1]

والتى ثار خال ضبة حين سمعها ، فما زال يتربص للمتنبى حتى ظفر به وقتله . أما هجاء المتنبى (لـكافور الإخشيدى) فهو من هذا اللون أيضاً ، وإن كان أقل إفحاشاً ، لقد تجاوز فيه الحد ، وقسى على كافور قسوة ليس لها مايبررها إلا أطماع نفسه ، ولجاجة طموحه إلى منصب رفيع ، لم يرض بأن يحرمه منه ، أو لم يصبر حتى يمنحه كافور إياه ، فصب عليه جام غضبه فى القصيدة الدالية المشهورة التى قالها فى إبان فراره من مصر والتى مطلعها :

عيد بأية حال عدت ياعيد ؟   بما مضى؟ أم بأمر فيك تجديد؟

انظر معى كيف يقول فيها :

إنى نزلت بكذا بين ضيفهمو   عن القرى وعن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدى وجودهمو   من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهمو   إلا وفى يده من نتنها عود

من كل رخو وكاء البطن منفتق   لا فى الرجال ولا النسوان معدود

---

(١) الطرطبة : القصيرة الضخمة وراجع ديوان المتنبى جـ ١ ص ١٠١ فى الطبعة المشار إليها سابقاً .

أكلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله فى مصر تمهيد؟!
صار الخصى إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود !!
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وماتفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنـــه فى ثياب الحر مولود
لاتشتر العبد الا والعصا معه ... أن العبيد لأنجاس مناكيد

* * *

ما كنت أحسب أن أحيا إلى زمن ... يسىء بى فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت أن الناس فقدوا ... وأن مثل (أبى البيضاء) موجود
وأن ذا الأسود المثقوب مشفره
تطيعه ذى العضاريط الرعاديد[1]

* * *

من علم الأسود المخصى مكرمة ؟ ... أقومه البيض أم آباؤه الصيد؟
أم أذنه فى يد النخاس دامية ؟ ... أم قدره وهو بالفلسين مردود؟
أولى اللئام (كويفير) بمعذرة ... فى كل يوم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة
عن الجميل، فكيف الخصية السود؟!

بهذا الهجاء المر ختم (المتنبى) علاقته بالأمير كافور الإخشيدى الذى رحب به وآواه بعد رحيله عن (سيف الدولة) وأكرمه وأغدق عليه العطايا ولم يسىء إليه ! !

وعدم إسناده ولاية للمتنبى - على الرغم من إلحاحه - ليس ذنبا لكافور ولاعيبا فيه ، إذ المفروض أنه يختار مافيه مصلحة الأمة لا مصلحة الأفراد .

---

(١) العضاريط : أقل الخدم شأنا ، والرعاديد : الجبناء .

وقد رأينا المتنبي يركز في هجائه كافورا على أمور مرفوضة في مقياس الدين ومقياس الإنسانية الفاضلة انه يركز على لونه الاسود ، وكونه كان فيما مضى عبداً مملوكا ، وعلى بعض الصفات الجسمية التي – إن صحت – فإنه لم يكن لكافور فيها يد ولا حيلة ، وليست داخلة في وزن أقدار الرجال وتركيز المتنبي على هذه الأمور دليل على إفلاسه في اقتناص عيب حقيقي في كافور ، ويكفي كافور شرفا أنه مع هذه الظروف سما بخلقه وعقله حتى وصل إلى ماوصل اليه من مجد ، ولعلك بعدهذا ترى معي كم كان المتنبي ظالما لكافور بهذا الهجاء ، وإلى أي حد كان مقذعا ومتجنيا عليه .

٣ – (الوصف) :

اتسعت دائرة الوصف باتساع الحضارة في ذلك العصر ، فوصف شعراؤه كل ماوقعت عليه أعينهم من المشاهد والمرئيات صغيرها وكبيرها فصوروا مظاهر الطبيعة على كثرتها أجمل تصوير ، وتناولوا أدوات الحضارة وآلاتها بالوصف البديع ، كذلك وصفوا الحروب والجيوش والأسلحة والأساطيل ، ووصفوا أنواع الطعام والشراب كما وصفوا كثيرا مما يعترى الإنسان من أحوال كالمرض وغيره .

وقد برع شعراء هذا العصر في الوصف أيما براعة ، وتفننوا فيه أيما تفنن لرقة أحاسيسهم وصفاء طباعهم واتقاد قرائحهم ، وامتازت أوصافهم بالدقة والشمول ، واستقصاء ملامح الموصوف وروعة التصوير وجماله .

واليك بعض النماذج للوصف :

قال (الطغرائي) يصف الغدير :

هجبنا إلى الجزع الذى مد فى ... أرجائه الغيم بساط الزهر [1]
حول غـدير ماؤه المنتمى ... إلى بنات المزن يشكو الخصر [2]
لو لاذت الريح سموما به ... لا نقلبت وهى نسيم السحر [3]
حصباؤه در ورضراضـــه ... سحالة العسجد حول الدرر [4]
وقد كسته الريح من نسجها ... درعـا به يلقى نبال المطر [5]
وألبسته الشمس من صبغها ... نورا بـــه يخطف نور البصر
كـأنه المـرآة مجـــلوة ... عـــلى بساط أخضر قد نشر

وقال (السرى الرفاء) يصف الروض والجو وقوس قزح :

وصاحب يقدح لى ... نار السرور بالقدح [6]
فى روضة قد لبست ... من لؤلؤ الطل سبح [7]

---

(١) هجنا : ملنا ، الجزع : الوادى المتسع المنبت.
(٢) المزن : السحاب نباته : المطر ، الخصر : برودة الماء.
(٣) الريح السموم : الحارة .
(٤) الحصباء : الحصى ، الرضراض : صغار الحصى ، العسجد : الذهب وسحالته : برادته .
(٥) النبال : السهام .
(٦) القدح : اناء للشرب.
(٧) سبح : جمع سبحة وهى خرزات يسبح بها.

بالغنا هامســا	مغتبقا ومصطبح [١]
أوقظه بالعزف أو	يوقظنى إذا صدح [٢]
والجـو فى ممسك	طرازه قوس قزح [٣]
يبكى بلا حزن كما	يضحك من غير فرح

وقال أبو العلاء المعرى يصف ديكا :

أيا ديك عدت من أياديك صيحة
بعثت بها ميت الكرى وهو نائم [٤]
هتفت فقال الناس (أوس بن معير)
أو (ابن رباح) بالمحلة قائم [٥]
وفيك إذا ماضيع النكس غيرة
تصان بها المستصحبات الكرائم [٦]

---

(١) الاغتباق : شرب الخمر مساء ، والاصطباح : شربها صباحا .

(٢) صدح : غنى ، ممسك : مطيب بالمسك ، طرازة : وشيه قوس قزح : هو قوس من الخطوط الملونة يظهر فى السماء بعد المطر .

(٣) أياديك : نعمك ، الكرى : النوم .

(٤) أوس بن معير مؤذن الرسول بمكة بعد الفتح ، ابن رباح : هو سيدنا بلال مؤذن رسول الله بالمدينة وهو أول مؤذن فى الإسلام .

(٥) النكس : الضعيف الدنىء ، الغيرة : الحمية والشجاعة ، ويريد بالمستصحبات الكرائم .

(٦) أناث الدجاج .

يوان لديك الطعن فى حومة الوغى

إذا زينت للعاجزين الهزائم

عليك ثياب خاطها الله قادرا

بها دمثتك العاطفات الروائم

وقال (ابن هانئ الأندلسى) يصف أسطول المعز لدين الله الفاطمى :

أما والجوارى المنشآت التى سرت — لقد ظاهرتها عدة وعديد

قباب كما تزجى القباب على المها — ولكن من ضمت عليه أسود

ولله مما لا يرون كتائب — مسومة تحدو بها وجنود

أطاع لها أن الملائك خلفها — كما وقفت خلف الصفوف ردود

وأن الرياح الذاريات كتائب — وأن النجوم الطالعات سعود

وماراع ملك الروم ألا اطلاعها — تنشر أعلام لها وبنود

مواخر فى طامى العباب كأنها — لعزمك بأس أو لكفك جود

وقال (المتنبى) يصف (الحمى) وقد مرض بها :

وزائرتى كأن بها حياء — فليس تزور الا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا — فعافتها وباتت فى عظامى

يضيق الجلد عن نفسى وعنها — فتوسعه بأنواع السقام

كأن الصبح يطردها فتجرى — مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق — مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر — إذا ألقاك فى الكرب الجسام

أبنت الدهر عندى كل بنت — فكيف وصلت أنت من الزحام ؟!

٤ - (الرثاء) :

أجاد شعراء هذا العصر فى الرثاء أجادة كبيرة فهو أكرم دافعا من المدح وأصدق عاطفة وتصويرا لوجدان الشاعر وتحت تأثير ثقافة العصر الواسعة اتجه كثير منهم فى الرثاء اتجاها فلسفيا ولا يكتفى بتعداد مآثر المرثى والبكاء عليه بل يحمل من الرثاء منطلقا لنظرات فلسفية عميقة تمتاز بالتأمل الدقيق وتحاول استجلاء سر الموت والحياة فترتبط بينهما برباط محكم وتكاد تمحو الفروق بينهما ثم لاتكتفى بالنظر إلى الإنسان ونهايته بل تنظر إلى الكون كله أرضه وسمائه وإلى مصيره المترقب المحتوم نظرة فيها شمول وحكمة واستبصار ومن خلال ذلك تسوق العبر والعظات فى إقناع هادىء وتحاول تغيير السلوك البشرى الغافل عن حقائق الأشياء، ونسوق لك مثالين لهذا الاتجاه من شعر (أبى العلاء المعرى و (أبى الحسن التهامى) وأولهما أدخل فى هذا الاتجاه وأروع فى فلسفته وعمق غوره وبعد مرماه:

١ - يقول أبو العلاء فى رثاء فقيه حنفى من أصدقائه :

غير مجد فى ملتى واعتقادى	نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى إذا قيـ	س بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ	ت على فرع غصنها المياد؟
صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ	ب فأين القبور من عهد عاد؟
خفف الوطء ما أظن أديم الـ	أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وأن قدم العهـ	ـد هو ان الآباء والأجداد
سر إن استطعت فى الهواء رويداً	لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً	ضاحك من تزاحم الأضداد!

ودفين على بقايا دفين ... فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين عمن أظلا ... من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار ... وأنار المدلج فى سواد
تعب كلها الحياة فما أعـ ... جب إلا من راغب فى ازدياد !!
ان حزنا فى ساعة الموت أضعا ... ف سرور فى ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ... جسم فيها، والعيش مثل السهاد

هذه هى مقدمة القصيدة) ستة عشر بيتا) كلها تأملات ونظرات فلسفية كما ترى أتبعها بستة أبيات فى مناجاة فلسفية كذلك لبنات الهديل (الحمام) باعتبار صوتها أقرب الأصوات إلى الحزن ، وبعد أن قام بحق صديقه (أبى حمزة الفقيه) من الرثاء عاد إلى تأملاته فى أبيات حكيمة ختم بها القصيدة ويقول فيها :

(زحل) أشرف الكواكب دارا ... من لقاء الردى على ميعاد
ولنار (المريخ من حدثان الد ... هر مطف وأن علت فى اتقاد
و (الثريا) رهينة بافتراق الشـ ... مل حتى تعد فى الأفراد

***

كل بيت للهدم ، ماتبتنى الور ... قاء والسيد الرفيع العماد
والفتى ظاعن ويكفيه ظل السـ ... در ضرب الأطناب والأوتاد

بان أمر الإله واختلف النا   س فداع إلى ضلال وهاد
والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد
واللبيب اللبيب من ليس يغتر   بكون مصيره للفساد

ويقول أبو الحسن التهامى [١] فى رثاء ولد له مات صغيرا :

حكم المنية فى البرية جار   ماهذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبرا   حتى يرى خبرا من الأخبار
طبعت على كدر وأنت تريدها   صفوا من الأقذاء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار
فإذا رجوت المستحيل فإنما   تبنى الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم ، والمنية يقظة   والمرء بينهما خيال سار
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت   منقادة بأزمة المقدار

• • •

فاقضوا مآربكم عجالا إنما   أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وحاذروا   أن تسترد فإنهن عوار
فالدهر يخدع بالمنى ويغص إن   هنى ، ويهدم مابنى ببوار
ليس الزمان وإن حرصت مسالما   خلق الزمان عداوة الأحرار

مقدمة للرثاء فى أحد عشر بيتاً ، فيها تأمل وفيها حكمة وفيها فلسفة تتعلق بالموت والحياة والأيام والقدر لكنها دون فلسفة أبى العلاء فى العمق ، أتبعها

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامى شاعر عربى من (تهامة) هاجر إلى الشام ومدح رؤساءها وأقام بها مدة ، وكانت له رحلة إلى مصر قتل فيها لأسباب سياسية وذلك فى عام ٤١٦ هـ.

برثاء صغيره رثاء مؤثراً كان سبباً فى ذيوع هذه القصيدة واشتهار صاحبها :

يا وكبا ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأسحار
وهلال أيام مضى لم يستدر ... بدرا ، ولم يمهل لوقت سرار
عجل الخسوف عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مظنة الابدار
واستدل من أترابه ولداته ... كالمقلة استلت من الأشفار
فكأن قلبي قبره ، وكأنه ... فى طيه سر من الأسرار

وفى سائر القصيدة يمزج الرثاء بالتأملات ومنها :

ولد المعزى بعضه ، فإذا انقضى ... بعض الفتى فالكل فى الآثار
أبكيه ثم أقول معتذراً له ... وفقت حين تركت ألأم دار !!
جاورت أعدائى وجاور ربه ... شتان بين جواره وجوارى !

* * *

ولقد جريت كما جريت لغاية ... فبلغتها ، وأبوك فى المضمار .. الخ

وهناك ظاهرة أخرى وجدت فى هذا العصر وهى تكرار الرثاء للمرثى الواحد وهذه الظاهرة لم تعهد فى الأدب العربى كله الا عند (الخنساء) صاحبة المراثى الكثيرة فى أخويها (معاوية) و (صخر) - ولاسيما فى ثانيهما فى العصر الجاهلى وهذه هى تعود فى العصر العباسى الثانى على يد شاعر الوفاء (مؤيد الدين الطغرائى) فى رثاء زوجته التى كان يحبها أعظم الحب ويحمل لها أكرم المودة والاخلاص والتى فجع بوفاتها وهى فى ريعان الشباب فكان حزنه عليها كبيرا وأخذ ينظم الشعر الباكى فى رثائها وظلم فى ذلك أكثر من عشر مرثيات مابين قصائد ومقطوعات مما لم يعهد مثله فيمن قبله من شعراء العربية الذين مرت بهم مثل هذه الكارثة ومن هذه المراثى قوله :

أقول وقد غال الردى من أحبه ومن ذا يعدى على نوب الدهر

أأبق حطاما باليا فوق ظهرها
ومن تحتها خرعوبة[1] الغصن النضر

أعيني جودا بالدماء فأسعدا فقد جل قدر الرزء عن عبرى تجرى

وما كنت أخشى أن يكون أجتماعنا
قصير المدى ثم البعاد مدى العمر

فيـا لـكما يامقلتى لـلكرى ونور كما قد غاب فى ظلمة القبر

ويا صبر زل عنى ذميما وخلنى ولوعة وجدى والدموع التى تجرى

ويا موت ألحقنى بها غير غادر فإن بقائى بعدها غاية الغدر ! !

وقوله فى مرثية أخرى :

ولم أنسها والموت يقبض كفها ويبسطها والعين ترنو وتطرق

وقد دمعت أجفانها فوق خدها جنى نرجس فيه الندى يترقرق

وحل من المقدور ما كنت أتقى وحم من المحذور ما كنت أفرق

وقيل فراق لا تلاقى بعده ولا زاد إلا حسرة وتحرق

فلو أن نفسا قبل محتوم يومها
قضت حسرات كادت الروح تزهق

وراجع ديوان الطغرائى لتقرأ بقية هذه المراثى العشر الخالدة [2] .

ومما هو جدير بالذكران اتجاه (الطغرائى) رحمه الله هذا الاتجاه فى

---

(١) الخرعوبة: الشابة الحسنة الخلق .

(٢) وراجع أيضا (مختارات البارودى) لأعلام الشعراء ج ١ ص ٨٣

الاكثار من رثاء الزوجه والوفاء لها وذكراها، كان له صداه فى أدب (العصر الحديث) فنحا نحوه فى ذلك الشاعر (عبد الرحمن شكرى) فى ديوانه (من وحى المرأة) وكذلك الشاعر (عزيز أباظة) فى ديوانه (أنات حائرة) وأخيرا الأديب والشاعر المعاصر الدكتور (محمد رجب البيومى) فى قصائد نشرها فى بعض المجلات الأدبية.

٥ - (الحكمة والمثل):

وقد بلغا الغاية فى العمق والنضج والروعة والذيوع وبلوغ القصد إذ هما ثمرة التجارب العميقة والثقافة الواسعة، وكلاهما متحقق لشعراء ذلك العصر فإذا انضم إلى ذلكم ذهن صاف، وتمكن من ناحية اللغـــة لدى صفوة من هؤلاء الشعراء ألفينا لهم حكما وأمثالا تتميز بالنظرة الصائبة والصياغة الجيدة وبقوة التأثير والأخذ بمجامع القلوب،فيها للعقول رى وغذاء وللنفوس متعة وشفاء،وكانا يأتيان غالبا فى خلال الأغراض الشعرية الأخرى ولا سيما فى خلال المدح والرثاء،ومن فرسانهما المجلين (أبو الطيب المتنبى) و (أبو العلاء المعرى) اللذان يعدان بين شعراء هذا العصر حكيمين أكثر منهما شاعرين فى نظر النقاد و (الشريف الرضى) و (الطغرائى) وحكم المتنبى وأمثاله المنثورة فى ديوان شعره من الكثرة بمكان عظيم ومنها فى قصيدة له فى مدح سيف الدولة البيت المشهور:

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

ومنها مقدمة القصيدة الميمية التى يمدح فيها (على بن أحمد الخراسانى) وتتضمن العديد من الحكم والأمثال وهى:

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام

ليس عزما ماموض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وفى القصيدة التى يمدح بها (فاتكا أبا شجاع) :

لولا المشقة ساد الناس كلهمو الجود يفقر والاقدام قتال
وإنما يبلغ الإنسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال
ذكر الفتى عمره الثانى ، وحاجته ماقاته ، وفضول العيش أشغال

ونكتفى بهذا القدر ، ونحيلك إلى المتنبى الذى لاتكاد تخلو قصيدة فيه من هذين الغرضين لتروى غلتك من هذا النسق العالى فى الحكمة والمثل كما نحيلك إلى دواوين كل من (الشريف الرضى) و (أبى العلاء المعرى) و (القطرانى) لتطلع فيها على ما يقارب المتنبى فى سمو الحكمة وأحكام المثل ، ولم يمنعنا من إيراد بعضها إلا ضيق المقام والخوف عليك من الأطالة .

٦ - (الغزل) :

الغزل أقرب الأغراض إلى نفس الشاعر، وأدلها على رقة أحساسه ورفاهة مشاعره ، واشتمال وجدانه ، وقد برع فيه شعراء ذلك العصر براعة فائقة لتوافر دواعيه من غوان حسان، وجوار ذوات دل وافتتان ، ومغنيات أوتين الابداع والاحسان، ولقد تناوله الشعراء وأكثروا فيه جريا على عادة من سبقهم من الشعراء القدامى والمحدثين ، فنظموه خالصا للغزل ، وتعبيرا عن

عاطفة صادقة ، وقالوه صناعيا يمهدون به لأغراضهم المختلفة لاسيما المدح وتهالك عليه الصغير والكبير ، ولم يصن نفسه عند فقيه ولا أمير فهو عندهم من أقوى علامات الأدب واكتمال الظرف ورقة الحاشية وقد امتاز غزلهم بالرقة الشديدة والافتتان البالغ ومحاولة الاتيان فيه بمعان جديدة يتنافسون في ابداعها ويتطارحونها في مجالس سمرهم وأنسهم ، ومجامع أدبهم ، واليك بعض النماذج لهذا الفن الرفيع :

للشريف الرضي :

ياظبية البان ترعى في خمائله	ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه	وليس يرويك إلا مدمعي الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة	بعد الرقاد عرفناها برياك [1]
ثم أنثنينا إذا ماهزنا طرب	على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلم	من بالعراق، لقد أبعدت مرماك [2]

حكت لحاظك مافي الريم من ملح
يوم اللقاء وكان الفضل للحاكي

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا
بما طوى عنك من أسماء قتلاك [3]

---

(١) الغور : البلاد المنخفضة عن نجد وعن جبال الحجاز ، الريا : الرائحة الطيبة .

(٢) ، (٣) ذو سلم موضع بالحجاز قرب مكة ، والجزع موضع به قرب الطائف .

أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك في قلبي وأحلاك !
عندي رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وللطغرائي :

ظلوم ليس ينصفني يواعدني ويخلفني
يضمن بما أكلفه وأبذل ما يكلفني
يقول وقد شكوت اليه ما ألقى : أتعرفني ؟!
فقلت له : أأنكر من يعذبني ، ويتلفني ؟!

ولابن النبيه المصري :

أفديه أن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا؟!

• • •

يأيها الوجه الجميل تدارك الصبر
الجميل فقد عفا وتضعضعا !
هل في فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤادا موجعا ؟
هل من سبيل أن أبث صبابتي أو اشتكي بلواي أو أتوجعا ؟
اني لأستحيي كما عودتني بسوى رضاك اليك أن أتشفعا

وللسري الرفاء :

قسمت قلبي بين الهم والكمد ومقلتي بين فيض الدمع والسهد
ورحت في الحسن أشكالا مقسمة بين الهلال وبين الغصن والعقد

أريتنى مطرا ينهل ساكبه من الجفون وبرقا لاح من برد
ووجنة لا يروى ماؤها ظمئ نخلا وقد لذعت نيرانها كبدى!
فكيف أبقى على ماء الشئون وما أبقى الغرام على صبرى ولا جلدى؟

وله أيضا :

بلانى الحب منك بما بلانى فشأنى أن تفيض غروب شانى
أبيت الليل مرتقبا أناجى بصدق الوجد كاذبة الأمانى!
فتشهد لى على الأرق الثريا ويعلم ما أجن الفرقدان!
إذا دنت الخيام به فأهلا بذاك الخيم والخيم الدوان
فبين سجوفها أقمار تم وبين عمادها أغصان بان
ومذهبة الخدود بجلنار مفضضة الثغور بأقحوان[1]
سقانا الله من رياك ريا وحيانا بأوجهك الحسان
ستصرف طاعتى عمن نهانى دموع فيك تلحى من لحانى[2]
ولم أجهل نصيحته ولكن جنون الحب أحلى فى جنانى[3]
فيا ولع العواذل : خل عنى ويا كف الغرام : خذى عنانى!!

٧ - (الحماسة وشعر الجهاد) :

١ - مر بنا فى العصر الأول بأصراع المسلمين مع دولة الروم

---

(١) الأقحوان : زهر معروف ، والجلنار : زهر الرمان

(٢) لحانى : لامنى .

(٣) الجنان : العقل .

الحاقدة المتربصة على حدود الدولة الإسلامية ، وكان العصر عصر قوة الخلافة العباسية فرأينا الخليفة (هارون الرشيد) ومن جاء بعده من الخلفاء يلقنون الروم دروسا قاسية ، ويذيقونهم الهزائم المرة ، ولهذا كان الروم على وجل من قوة المسلمين يدفعون لهم الجزية ولايجرؤن على مهاجمة حدود المسلمين إلا فى فترات متباعدة ، فلما جاء العصر الثانى وهو عصر ضعف الخلافة وإنقسام الدولة ، طمع الروم وتشجعوا وانتهزوا هذه الفرصة للهجوم المتواصل على حدود المسلمين ، فانتدب لهم الأمير العربى المجاهد الهمام (سيف الدولة الحمدانى) أمير (حلب) وجاهدهم أربعين سنة متواصلة يصد هجومهم ، ويشتت شمل جيوشهم ومع أنه كان وحده فى الميدان فقد كان له النصر فى معظم الوقائع ، وقد خلد جهاده هذا وسجل انتصاراته شعراء دولته وفى مقدمتهم ابن عمه الشاعر الفارس الأمير (أبو فراس الحمدانى) والشاعر الكبير (أبو الطيب المتنبى) .

٢ — ثم تلت ذلك مأساة (الحروب الصليبية) التى مربك ذكرها والتى تفجر فيها الصراع بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى وانتدب لها من قادة المسلمين أبطال تصدوا لهذا العدوان الأوربى الغادر ، وخاضوا حروبا ضارية من أجل تحرير الوطن الإسلامى من هؤلاء الغاصبين ، وفى مقدمتهم الأمير (عماد الدين زنكى) أحد رجال الدولة السلجوقية وواليهم على الموصل وابنه المجاهد الكبير السلطان (نور الدين محمود) وتلميذه العظيم (صلاح الدين الأيوبى) وخلفاؤه ، وكان شعراء هذه الحقبة ألسنة صدق فى تحميس المجاهدين ، واذكاء روح الحمية والغيرة على الدين والوطن وتسجيل الانتصارات والإشادة بالأبطال ومن هؤلاء

الشعراء (أسامة بن منقذ) و (الحسن الجوينى) و (القاضى الفاضل) وغيرهم واليك نماذج من هذا اللون من الشعر .

يقول (المتنبى) مسجلا انتصار (سيف الدولة) على الروم عند بلدة (مرعش) مشيدا ببطولته :

هنيئا لأهل الثغر رأيك فيهمو
وأنك - حزب الله - صرت لهم حزبا
فيوما بخيل : تطرد الروم عنهمو ويوما بجود : تطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى و(المستق [1]) هارب
واصحابه به قتلى وأمواله نهبى
أتى مرعشا يستقرب البعد مقبلا
وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
مضى بعدما التف الرماحان ساعة
كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكنه وولى للطعن سورة
إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
وخلى العذارى والبطاريق والقرى
وشعث النصارى والقرابين والصلبا

• • •

وجيش يثنى كل طود كأنه خريق رياح واجهت غصنا رطبا
كأن نجوم الليل خافت مغاره فمدت عليها من عجاجته حجبا

---

(١) المستق : قائد الروم فى تلك الموقعه.

لمن كان يرضى اللؤم والكفر ملكه

فهذا الذى يرضى المكارم والربا

ويقول أسامة بن منقذ) أحد شعراء الحروب الصليبية وفرسانها من قصيدة طويلة تناهز التسعين بيتا على لسان البطل (نور الدين محمود) يسجل مآثره فى حروبه ضد الصليبيين .

أبى الله الا أن يكون لنا الأمر وتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

• • •

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يلهنا عنه سماع ولاخمر

وثير حشايانا السروج وقصنا الد روع ومنصوب الخيام لنا قصر

ترى الأرض مثل الأفق وهى نجومه

وأن حسدتها عزها الانجم الزهر

نسير إلى الاعداء والطير فوقنا

لها القوت من أعدائنا ولنا النصر

ترى كل شهم فى الورى مثل سهمه

نفوذا فما يثنيه خوف ولاكثر

إذا استغلقت شم الحصون فعندنا

مفاتحها : بيض مضاربها حمر ! !

بنا استرجع الله البلاد ، وأمن ال

عباد فلا خوف عليهم ولاقهر

ويقول الشاعر (الحسن الجوينى) يذكر استرجاع (صلاح الدين الأيوبى) بيت المقدس من الصليبيين بعد أن هزمهم هزيمة ماحقة فى موقعة (حطين)[1] ويشيد بجهاد هذا البطل العظيم :

---

(١) عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م .

جند السماء لهذا الملك أعوان | من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه فى زمن | وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما | لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

* * *

أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده
صيدا وما ضعفوا يوما ولا هانوا
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والإ | سلام أنصاره صم وعميان
للناصر ادخرت تلك الفتوح وما | سمت لهم هم الأملاك مذكانوا
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد | تنزلت فيه آيات وقرآن
فالله يبقيك للاسلام تحرسه | من أن يضام ويلفى وهو حيران
إذا طوى الله ديوان العباد فما | يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وفى المناسبة نفسها يقول : الأديب الشاعر (العماد الأصفهانى)

رأيت (صلاح) الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
سجيته الحسنى ، وشيمته الرضا | وبطشته الكبرى ، وعزمته القعسا
جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض فى الفتك لا الانسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى
فأنت الذى من دونهم فتح (القدسا)

(الاغراض الجديدة) :
(الشعر الفلسفى) فتن مثقفو هذا العصر بالفلسفة لتوددراستها وانتشار

نظرياتها واشتغال الناس بما ترجم من كتبها ، وظهور فلاسفة الإسلام العظام في ذلك العصر (الفارابي) و (ابن سينا) و (الرازى) وتأثر الشعراء بالثقافة الفلسفية فدخلت أشعارهم بعض كلماتها وطرقها في الاستدلال المنطقى والبرهنة وفوق ذلك نظم شعر فلسفي خالص من أشهره قصيدة الشيخ الرئيس (ابن سينا) في النفس ، وهذه أبيات منها :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما سكنت فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت
بين المعالم والطلول الخضع . . الخ

ومن الشعر الفلسفي كذلك قول (ابن الشبل) .

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذى نغتذى نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
ما لقينا من غدر دنيا فلا كا نت ولا كان أخذها والعطاء
قبـــح الله لذة لشقانا نالهـا الأمهات والآباء !!
نحن لولا الوجود لم تألم الفقـ ـد فإيجادنا علينا بلاء !

ونجد مثل هــذه الأفــكار في شعر الحكيم الفيلسوف (أبى العلاء المعرى)

وبخاصة فى ديوانه المسمى (باللزوميات) أو (لزوم مالا يلزم)[1]

(التصوّف) :

تطور عن شعر (الزهد والوعظ) فى العصر السابق فن جديد فى العصر الثانى هو شعر التصوّف ، بعد أن اكتسب الزهد أفكارا جديدة من أثر تفاعل الثقافات ، وكثرة الخوض فى الفلسفة والالهيات ، وأغلب هذا الشعر غزلىّ رمزىّ أو خمرىّ رمزى كذلك ، يرمز بالمحبوبة إلى الذات العالية ذات الله سبحانه ، ويرمز بالخمر إلى محبة الله تعالى وإلى معرفته ، وكان من المتصوفين شعراء ، منهم المقـــل ومنهم المكثر فمن من مقليهم (الرفاعىّ)[2] و(السهروردى)[3] ومن مكثريهم (ابن الفارض)[4] الملقب بـ (سلطان العاشقين) وله ديوان مشهور كله فى الغزل الصوفى ، والشعر الصوفى فى الغالب عذبٌ رقيق يملك شغاف القلوب ، ويتميز بالإغراق فى الرمز وقوة العاطفة والمبالغة فى الوجْد ، وقد لبس فى آخر العصر حلة ضافية من البديع

---

(١) وهى قصائد ضمنها من جهة المعانى خواطره وآراءه الفلسفية ومن جهة الموسيقى الشعرية ألزم نفسه فيها بقيود فى القافية لاتلزم الشاعر ولكنه التزمها مختارا اظهارا لبراعته اللغوية والشعرية .

(٢) هو أبو العباس أحمد الرفاعى الذى تنسب إليه الطريقة الصوفية الرفاعية والمتوفى بالعراق عام ٥٧٨ هـ .

(٣) هو شهاب الدين عمر السهروردى المتوفى بحلب الشام عام ٥٨٦ هـ.

(٤) هو أبو حفص (عمر بن على بن مرشد) أبلغ شعراء الصوفية وأكثرهم ايرادا للبديع فى شعره أصل آبائه من الشام وولد هو بالقاهرة وبها توفى عام ٦٣٢ هـ ومدفنه بها مشهور فى سفح جبل المقطم .

والمحسنات جنحتْ به مع الرمزية إلى لونٍ من الغموض أحيانا ، وإليك بعض أمثلته :

(السَّهْرَوَرْدِيّ) وهو يجودُ بنفسه :

قل لأصحابٍ رأوْنى ميِّتاً ... فبكوْنى إذْ رأونى حزنا
لاتظنونى بأنى ميِّتٌ ... ليس ذا الميتُ والله أنا !
أنا عصفورٌ وهذا قفصى ... طِرْتُ عنه فتخلَّى رَهَنا !
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها ... فترون الله حقا بيِّنا !
لاتَرُعْكمْ سكرةُ الموتِ فما ... هِىَ إلَّا بانتقالٍ مِنْ هُنا !

(والرفاعىّ) فى الغَزَلِ الصُّوفىّ :

إذا جَنَّ ليلى هام قلبى بذكرِكُم ... أنوحُ كما ناح الحمامُ المطوَّقُ
وفوقى سحابٌ يمطر الهمَّ والأسَى ... وتحتى بحارٌ بالجَوَى تتدفَّقُ
سَلُوا أمَّ عمرٍو كيف بات أسيرُها ... تَفُكُّ الأُسارَى دونَهُ وهو مُوثَقُ
فلا هو مقتولٌ ففى القتلِ راحةٌ ... ولا هو ممنونٌ عليهِ فيُطْلَقُ !!

(ولابن الفارض) من قصيدة طويلة :

شَرِبْنَا على ذكرِ الحبيبِ مُدَامَةً ... سَكِرْنَا بها من قبلِ أن يُخلق الكَرْمُ
لها البدر كأْسٌ وهى شمسٌ يديرها ... هِلالٌ وكمْ يبدو إذا مُزِجَتْ نجْمُ
ولولا شذاها ما اهتديتُ لِحانِها ... ولولا سناها ما تصوَّرَها الوهْمُ
ولم يُبْقِ منها الدهرُ غيرَ حُشَاشَةٍ ... كأنَّ خفاها فى صدورِ النُّهى كَتْمُ
فإنْ ذُكِرَتْ فى الحىِّ أصبح أهلُهُ ... نشَاوَى ولا عارٌ عليهمْ ولا إثْمُ

وَمِنْ بين أحشاء الدِّنان تصاعدتْ ولم يبقَ منها فى الحقيقة إلَّا اسْمُ

(الهزل والسخف) :

هـذا النوع من الشعر كانت له بذور فى (العصر الأول) فى مجونيّات أبى نواس ومن جرى مجراه ، فلما جاء العصر الثانى زاد هـذا اللون وطم وسلك به بَعْضُ الشعراء طرقاً بغيضة من السخف والبذاءة وطرح الاحتشام فذكروا فيه الأمور المستقبحة عقلا وطبعا وعادة كالمقاذر والعورات طلبا للشهرة والتّفرد .. مافى الشعر (وإن كان بئس الغرض) وكان على رأس شعراء هذا اللون (ابن سكرة الهاشمى) و (ابن الحجاج) وفى كتاب (يتيمة الدهر للثعالبى) قدر كبير من شعر هذين الشاعرين فى هذا الغرض المقوت ، يقول (ابن الحجاج) مفتخرا بزعامته هذا اللون :

رجلٌ يدَّعى النبوة فى السُّخْـ ـفِ ومَنْ ذا يشكُّ فى الأنبياء ؟!
جاءَ بالمعجزات يدعو إليها فأجيبوا يامعشرَ السخفاء !

وربما كان أقوى دواعى رواجه أنه كان وسيلة إلى كسب الرزق عن طريق سهل فى وقت شح فيه الرزق على كثير من الجادين الملتزمين ، إذ كان شعر السخف سيفا مصلتا يُتهدد به الكبراء والرؤساء ، فيغدقون على شعرائهم العطايا ويتلقونهم - بالهبات اتقاء لمعرته وخشية أن يصيبهم منه شيء - وهو بطبيعته سريعُ الذيوع قويّ الانتشار - فتكون فضيحة الدهر وشَيْنَ الأبد ، وفى ذلك يصرح (ابن الحجاج) فى قوله :

لو جُدْتَ شِعرى رأيتَ فيه كواكبَ الليلِ كيفَ تسرى
وإنما هَزْلُهُ مُجُونٌ يمشى به فى المعاشِ أمْرِى !!

وأحياناً يدّعي زعماء هذا اللون أنه ضروريٌّ وأنهم إنما طرقوه لأنه لابدّ منه ولا يمكن الاستغناء عنه !! ومن ذلك قول ابن الحجاج أيضاً .

وشعري سخفُهُ لابدّ منهُ . فقد طِبْنا وزال الإحْتِشامُ
وهل دارٌ تكونُ بلا (كَنيفٍ)
فيمكنُ عاقلاً فيها مقامُ !! ؟

ويقول :

وشِعْرِي لابدَّ مِنْ سُخْفِهِ   ولابدَّ للدارِ مِنْ (مُسْتَراحِ)!!

وإذا استمرأه هذان الشاعران وأضرابهما فقد كثر فيه القول لاسيما وأنَّ نظمه كان سهلا عليهم إذا كانوا غالبا يصوغون فيه البيتين والثلاثة وما دون العشرة من الابيات حتى لقد قيل أن ديوان (ابن سكرة) كان يُرْبي على خمسين ألف بيت معظمها هزل وسخف ومنها زهاء عشرة آلاف بيت في مغنيةٍ سوداء اسمها (خمرة) تعرّضَ لهجائها والتندر بها. ويتميز هذا هذا الغرض الذى هو خليط من الغزلِ الفاحش والهجاء المسِفّ والخمريات الهابطة بسهولةِ الألفاظ وخفةِ الأوزان ؛ واطّراح(*) الحياء فيما يورده من من المعاني والصور ، واليك أمثلة من أخفه ، وأبعده عن البذاءة نسبيا :

يقول (ابن سكرة) في (خمرة) المغنية وقد كبرت :

لاتسمعوا (خمرةً) فقد هَرِمَتْ   وانكسرتْ تلكم القواريرُ
وكل بازٍ (١) يمسُّهُ هَرَمٌ   تخرَى على ريشِهِ العصافيرُ !!

---

(١) البازي : نوع من الصقور .
(*) اطراح : ترك .

وقال إنها كانت (بخراء)(١) فقال يعابثها ويتندر عليها :

هل لك ياخرة فى تجرةٍ* مربحةٍ ما مثلها تجربةْ
صيرى إلى (البصرة) واستوفى
ربحك بالشكهة فى البصرةْ
فلو عرضت الريق فى سوقها لابتعتْ التفلةُ بالبدرةْ (٢)
تزكو بها النخل وتحمرُّ فى غير أوان الحرة البصرةْ

وقال فى بخلاء ذبحوا خروفا وحرموه الأكل منه:

أطمعنى فى خروفكم خرفى جئت مستعجلاً ولم أقفِ
غدوتُ أرجو طرائه فغدت
فى طرفٍ والسماكُ فى (٣) طرفِ !!

ومن شعر (ابن الحجاج) فى رجل فارسى وشى به لدى أحد ممدوحيه :

قل الذى جهز فى السعي بى بضاعةً عادتْ بخسرانهِ
لاتغترْ أنك من فارس فى معدن الملك وأوطانهِ
لو حدثتْ (كسرى) بذا نفسهُ صفعتهُ فى وسْطِ أيوانهِ!!

وفى قوله فى رجلٍ دعاه وبعض أصحابه وأخر عنهم الطعام :

ياصاحبَ البيتِ الذى أضيافهُ ماتوا جيعا !!

---

(١) البخر بفتح الخاء : الرائحه الكريهة فى الفم . * تجْرَة : تجارة .
(٢) البدرة : كيس به ألف درهم أو عشرة الاف ، وابتعتْ ؟ بِعتْ
(٣) السماك : نجم ينير السماء وهما سماكان . والطراف : ما يُستطرف ويستطاب من الشىء ، وهو هنا : (لحم الخروف) .

ياصاحبَ البيت الذى أضيافه ماتوا جميعاً
وحصلتنا حتى نمو تَ بدائنا عطشا وجوعا
مالى أرى فَلَكَ الرغيـ فِ لديك مشْرقا رفيعا
كالبدرِ لانرجو إلى وقتِ المساءِ له طلوعا!!

ونظر اليه يذهب ويجيء فى داره من غير شيء فقال :

ياذاهبا فى داره جائيا بغير معنى وبلا فائده
قد جُنَّ أضيافُك من جوعهم فاقرأ عليهم سُورةَ المائده!!

(شعرُ الكُدْيةِ أو الشعرُ السَّاسانيّ) :

ومما هو قريب من اللون السابق لون خاص يذكر الكدية (التسول) بالشعر مع الفخر بذلك وعدم الاستحياء منه. والكدية فى الأصل: شدة الدهر، فكأن هذا الشعر قد نشأ من قسوة الزمن على بعض الشعراء فى فى أواخر العصر العباسى فاضطروا إلى الاستجداء الصريح بشعرهم، واتخذوا من ذلك حرفة يسترزقون بها، ولم يكن هذا مألوفا عند الفرس، ولذلك فسبب هذا النوع من الشعر اليهم فقيل (الشعر الساسانى) مع أن (ساسان) هذا أبو الأكاسرة (ملوك الفرس) فكانت نسبة هذا الشعر إليه فى رأينا من باب تشريف الوضيع بالحاقه بمن هو رفيع القدر ولو من باب التندر.

وأشهر شعراء هذا اللون شاعران عاشا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وهما (الأَحْنَفُ العُكْبَرِيُّ) [1] و (أبو دُلَفٍ الخَزْرَجِيُّ)

---

(١) هو أبو الحسن عقيل بن محمد وتجد أخباره فى يتيمة الدهر للثعالبى ج٢ ص ١١٧ ومابعدها

البَبْغاءُ) (١) وكانا من أصدقاء الوزير الأديب (الصاحب بن عبّاد) (٢)
ومن شعر الأول الدال على سبب توجهه إلى هذه المهنة فى رأينا :

عِشْتُ فى ذِلّةٍ وقلةِ مالِ   واغْترابٍ فى معشرٍ أنذالِ!
بالأمانى أعيشُ لا بالمعانى   فيغذانى حلاوةُ الآمالِ!

وقوله وفيه وصف لحاله من الفقر وبيان لرأيه فى الناس (ممن يملكون الدنيا والمال)

رأيتُ فى النوم دنيانا مزخرفةً
مثل العروس تراءت فى المقاصيرِ
فقلت : جودى ، فقالت لى على عجلٍ:
إذا تخلصتُ من أيدى الخنازيرِ!!

وقوله فى هذا الباب وهو غاية فى وصف سوء الحال :

العنكبوت بنت بيتا على وهنٍ   تأوى اليه ومالى مثلهُ وطنُ!
والخنفساءُ لها من جنسها سكنٌ   وليس لى مثلها إلفٌ ولا سَكَن!!

ومثل ذلك قوله :

---

(١) هو معسر بن مهلهل ونجد أخباره فى يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٢٥٢ ومابعدها .
(٢) هو أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى عام ٣٨٥ هـ .
راجع القاموس المحيط باب ونصل السين ، وراجع أيضا (المقامة الساسانية) فى مقامات الحريرى .

ترى العقيان كالذهب المصفّى تُركّبُ فوق أشفار الدوابِ
وكيسي منه خلو مثل كفي أما هذا من العجب العُجابِ؟!

وأخيراً يرضى بحرفة الكدية ويسيح من أجلها في البلاد فيقول :

قد قسّم الله رزقي في البلاد فما يكاد يدرك إلا بالتفاريقِ
ولست مكتسباً رزقاً بفلسفةٍ ولا بشعرٍ ولكن بالمخاريقِ[1]

أما بل يفتخر بها وباخوانه فيها ويعدد مناقبهم بقوله :

على أني بحمد الله في بيتٍ من المجدِ !
بإخواني بني ساسا نَ أهلِ الجدِّ والحدِّ !
لهم أرضُ (خراسانَ) (فقاشان) إلى (الهند) !
إلى (الروم) إلى (الزنج) إلى (البلغار) و(السند) !
إذا ما أعوز الطرق على الطراق والجند
خفنا رامن أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد !
ومن خاف أعاديه بناقي الروع يستعدي !

وهذه الأبيات جزء من قصيدة طويلة له في ذكر المكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع وسائلهم ،[2] وذكر فيها أيضاً ألفاظاً من لغتهم

---

(١) الألاعيب والأكاذيب والحيل .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٥٣ .

الخاصة وتسمى المناكاة ، وكانوا يتفاهمون بها فيما بينهم إذا كانوا بين الناس ولا يفهمها سواهم .

وأما ثانى الشاعرين المشهورين فى هذا الغرض وهو (أبو دلف الخزرجىّ الينبوعىّ) فكان أديبا شاعرا ظريفا سائحا جوّالا وعمّر حتى جاوز التسعين من عمره وهو على هذه الحال وعرفه الناس فى كل مكان وصار له فى كل بلد معارف وأصدقاء . وفى ذلك يقول :

وقد صارتْ بلادُ الـــلـه فى ظعْنى وفى حِلِّى
تَغايرنَ بلُبْثى وَ تحاسدْنَ على رَحْلى
فــما أنزلها . إلاّ على أُنْسٍ من الأهْلِ

وقد تأثر (أبو دلف) بـ (الأحنف العكبرى) وقلده فى شعره وفى اتجاهاته نحو الكدية ومن ذلك أنه عارض قصيدة الأحنف الدالية فى الكدية التى أشرنا إليها آنفا بقصيدة رائعة من وزنها لكنها رائية سماها (القصيدة الساسانية) أربى فيها على صاحبه وتفنن فيها ماشاء . وأهداها إلى (الصاحب بن عباد) بعد أن شرح له خفاياها وألغازها ، فطرب لها الصاحب إيما طرب وأعجب بها كل الاعجاب حتى إنه حفظها !! وأجزل صلته عليها وكان ذلك سببا فى شهرتها ، وسيرها فى الآفاق ، ويقول فى أولها مشيرا إلى فلسفته فى الغربة ومداومة الأسفار .

جفونٌ دمعُها يجرى لطولِ الصدِّ والهجْرِ
وقلبٌ ترك الوجْدُ بهِ جمْراً عــلى جمْرِ
لقد ذقتُ الهوى طعْمـــيْنِ منْ حُلْوٍ ومن مُرِّ
ومَنْ كان من الأحْرا رِ يَسْلوُ سَلْوةَ الحُرِّ

ولاسيما وفى الغربـ ... ـة أودى أكثر العمر
تعريت كغصن البا ... ن بين الورق والخضر
وشاهدت أعاجيباً ... وألوانا مـن الدهر
فطابت بالنوى نفسى ... على الإمساك والفطر

ويقول عن انتسابه إلى جماعة المكدين :

على أنى من القوم الـ ... ـحى فى سالف العصر
بنى ساسان والحامى الـ ... بهاليل بنى الغر
تغربنا إلى أنا ... تناهينا إلى شهر
فظل البين يرمينا ... نوى بطنا إلى ظهر
كما قد تفعل الريح ... بكثب الرمل فى البر
فطبنا نأخذ الأوقا ... ت فى العسر وفى اليسر

ثم يفتخر بهم قائلا :

فنحن الناس كل النا ... س فى البر وفى البحر
أخذنا جزية الخلق ... من (الصين) إلى (مصر)
إلى (طنجة) بل فى كل ... أرض خيلنا تسرى
إذا ضاق بنا قطر ... نزل عنه إلى قطر
لنا الدنيا بما فيها ... من الإسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ... ونشتو بلد التمر

وبعد أن يعدد أصناف المكدين فى إطناب (١) يقول فى آخرها

---

(١) تتبعها فى المرجع السابق من صفحة ٣٥٦ إلى صـ ٣٧٤ مع : شرح لمصطلحاتها للمؤلف .

أَلا إِنى حلبْتُ الدهـ   رَ من شطر إلى شطرِ
وَجُبْتُ الأرضَ حتى صر   تُ في التطوافِ كالخِضْرِ
وللغربةِ في الحُـرِّ   فِعالُ النارِ في التِّبْرْ
وما عيشُ الفتى إلاَّ   كحالِ المدِّ والجَزْرِ
فبعضٌ منـه للخير   وبعضٌ منه للشرِّ
فإِنْ لمتَ على الغُرْبَـــةِ مثلى فاسْتمِعَنْ عذرى
أمالى أسوة في غر   بتى بالسادةِ الطُّهْرِ
همـو آلُ رسولِ اللـ   ـه آلُ الفضلِ والفخرِ
و (سلْمانُ) و (عمارٌ)   غريبٌ و (أبـو ذرّ)
قبورٌ في الأقاليم   كمثلِ الأنجمِ الزُّهْرِ
فإِنْ أظفرْ بـآمالى   شفيتُ غـلةَ الصدرِ
وألممتُ بأوطانى   قوىَّ النهى والأمرِ
وإِمّا تكنِ الأخرى   وعزٌّ جائزُ الكسرِ
فلا أُبتُ مع السَّفْرِ   غداةَ أَوْبةِ السَّفْرِ
ولا عدتُ متى عدتُ   بـلا عزةٍ ولا وفْرِ
وَحَسْبِي القَصَبُ المظهرُ   نُ فيه ورقُ السِّدْرِ
وأثوابٌ تُوارينى   مِنَ الإيذاءِ والأزر

وقد أثر الشعر الساسانى فى (فن المقامة) الذى نشأ فى هذا العصر وربما كان هو الذى أوحى إلى أصحاب المقامات صياغتها على النهج الذى صاغوه من جعلهم بطلها أحد المكدين البارعين الذى له فى كل موقف حيلة جديدة لاصطياد المال ، وربما يَدْعَمُ ماذهبنا إليه فى ذلك ماسجله (الثعالبى)

من أخذ (البديع الهمذاني) بعض شعر (أبي دلف الخزرجي) وإيراده على لسان بطل مقاماته ، يقول صاحب (يتيمة الدهر)[١] : « أنشدني بديع الزمان لأبي دلف ، ونسبه في بعض المقامات[٢] إلى (أبي الفتح الإسكندري) من مخلع البسيط :

وَيحكَ هذا الزمانُ زورُ — فلا يغرنَّكَ الغرورُ

زوِّقْ ، ومخرقْ ، وكُلْ وأطبقْ — واسرقْ وطبِّقْ لمن يزورُ

لا تلتزمْ حالةً ولكن — درْ بالليالي كما تدورُ .

وليس أدل على الصلة القوية بين الشعر الساساني وبين المقامات من تلك المقامة التي أنشأها (البديع) ضمن مقاماته وسماها (الساسانية) وصاغ معظمها شعراً من هذا اللون فاشتملت هذه المقامة على قطعتين شعريتين من نظم (البديع) على لسان البطل تمثلان الشعر الساساني أصدق تمثيل وكل منهما موجه إلى رجل كريم طلبا لعطائه يقول في أولاهما :

أريد منك رغيفاً — يعلو خِواناً نظيفا

أريد لحماً غريضا — أريد خلا ثقيفا

أريد جَدْياً رضيعا — أريد سَخْلاً خروفا

أريد ماء بثلج — يغشى إناء طريفا

أريد منك قميصا — وجُبَّةً ونَصيفَا

---

(١) ج ٢ ص ٤٠٣

(٢) المقامة القريضية .

أريد نعلا كثيفا ... بها أزود الكثيفا !
أريد مُشطا وموسى ... أريد سَطلا وليفا !
ياحبذا أنا ضيفا ... لكم وأنت مضيفا !! (؟)

ويقول فى الثانية :

يافاضلا قد تبــدّى ... كأنه الحسن قدّا
قد اشتهى اللحمَ ضِرسى ... فاجلده بالخبز جلدا
وآمِنْ علـى بشىء ... وأجمله للوقت نقدا
أطلـق مـن اليـد خصرا ... وأحلل من الكيس عَقدا
وأضمم يديك لأجلى ... إلى جناحك عمدا !!

وفى مقامات (الجريرى) كذلك من هذا القبيل كثير فراجعه إن شئت [١].

(الشعر القصصى) :

وفى أواخر العصر العباسى كذلك ظهر الشعر القصصى بصورة واضحة على يد الأديب الشاعر (ابن الهبارية) [٢] المتوفى عام ٥٠٩ هـ وكان قد سبق له أن نظم أقاصيص كتاب كلية ودمنة فى كتاب له سماه (نتائج الفطنة

---

(١) كما فى المقامة (المكية) على سبيل المثال من مقامات الحريرى (القاسم بن محمد البصرى الحرامى) المتوفى فى عام ٥١٦ هـ.

(٢) هو (محمد بن محمد بن صالح العباسى الهاشمى) السيد الشريف نظام الدين أبو يعلى :

فى نظم كليلة ودمنة) ثم رأى نفسه قادرا على ابتكار قصص شعرية على نفس الأسلوب . فألف كتابه الفريد (ديوان الصادح والباغم)[١] وقد ضمنه عشرين قصة ، كل واحدة منها فى أرجوزة (قصيدة من بحر الرجز) مستقلة ما بين قصيرة وطويلة فقد تقصر حتى تكون فى حدود عشرة أبيات وقد تطول حتى تجاوز المائتين ، وربط بين كل قصة والقصة التى تليها برباط لطيف كما هو الحال فى قصص كليلة ودمنة والهدف من قصصه هو نفس الهدف من كليلة ودمنة : العظة والاعتبار وإفادة الحكمة وقد أهداه إلى أحد أمراء عصره وهو صدقة بن منصور بن دبيس الأسدى) أمير (الحلة) فأجزل مكافأته وأسنى جائزته ، وقد عرف (ابن الهبارية) بكتابه فى مقدمته كما أشاد به فى خاتمه وهاك قوله فى المقدمة :

هذا كتاب فيه علم وأدب　　يفوق أنواع القريض والخطب

عمله لسيد الملوك　　وموئل الملهوف والصعلوك

فجاء مثل الذهب المسبوك　　سلكت نهجاً ليس بالمسلوك

فى نظمه وسبكه ووضعه　　لامن كلام غيرى فى جمعه

بل ابتداعا لصنوف الحكمه　　جمة فى العلم أى جمه

ويقول فى خاتمه وفى قوله إشارة إلى عدد أبيات الديوان والمدة التى قضاها فى تأليفه :

هذا كتاب حسن　　فيه ثمار الفطن

---

(٣) الصدح والصداح : رفع الصوت بالغناء من الطائر أو الإنسان ، والبغام الصوت الرخيم من الحيوان كصياح الظبية إلى ولدها .

أنفقت فيه مده   عشر سنين عده
ولم أزل أهذبه   منقحاً وأحسبه
في كل يوم كله   إن اختراع الحكمه
صعب على الرجال   في القول والفعال
رصعته ترصيعا   حتى أتى بديعا

• • •

بيوته ألفان   جميعها معان [1] .. الخ

وإليك نموذجا من قصصه : (قصة الذئب والغزالة)

قال . سمعت أن ذئبا أبصرا   غزالة توضع خشفاً أحورا
لكنها مريضة هزيلة   وساقها مكسورة عليله
قد مسها الضر فعادت نضونا   يحسبها الراءون منها شلوا
فقال : أن أكلتها لم أشبع   وليس لحم مثلها بمقنع
والرأى أن أعلفها أياما   فانها لاتجد الطعاما
لعلها تسمن ثم أحمد   يومئذ لها وذاك أرشد
فجاءها مسلما فقالا   والذئب لايصادق الغزالا
إلا لكيد كامن ومكر   جز قصير أنفه لأمر
يا أخت ماحالك ؟ قالت شر   وغرها والشهم لايغتر

---

(١) راجع ديوان الصادح والباغم بشرح عزت العطار المطبوع فى القاهره عام ١٣٥٥ هـ ، ١٩٣٦ م ص ٤ ، ١١٩ .

وأظهر اللطف لهما والرفقا   فقد رأته للشقاء حقا
وشكت الجوع إليه نبكى   وأظهر الخشوع والتنسكا .. الخ

ويبدو أن هذا اللون من الشعر القصص قد راج عند عدد من الشعراء المعاصرين لابن الهبارية فقد رأينا (الطغرائى) المتوفى عام ٥١٦ هـ شعرا قصصيا رمزيا وعظيا كذلك ولكنه قليل ومنه قصة تحت عنوان (شؤم الوشاية[1]) وهذه هى :

لقد جاء فى أمثالهم أن ثعلبا   وذئبا أصابا عند ليث تقدما
أضر به جوع شديد فشفه   وأبقى له جلدا رقيقا وأعظما
ففاز لديه الذئب يوما بخلوة   فقال كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكله وأطعمه فما هو شكلنا   ولست أرى فى أكله اليوم مأثما
فلما أحس الثعلبان بكيده   تطبب عند الليث واحتال مقدما
وقال أرى بالملك داء مماطلا   تهدم منه جسمه وتحطما
وفى كبد الذئب الشفاء لدائه   فإن نال منها ينج منه مسلما
فصادف منه ذا قبولا فعندها   أحال على الذئب الخبيث فصمما
فأفلت مسلوخ الإهاب مرملا   فلما رآه الثعلبان تبسما
وصاح به : يالابس الثوب قانئا   متى تخل بالسلطان فاسكت لتسلما.

وعلى أية حال نسجل لهذا العصر سبقه إلى الشعر القصص المقصود لذاته وهو سبق جدير بالتقدير وبمزيد من البحث والتعليق .

---

(١) راجع ديوان (الطغرائى) المطبوع فى القسطنطينية (إسلامبول) عام ١٣٠٠ هـ ص ١٢

ألفاظ الشعر وأساليبه

أختص لفظ الشعر وأسلوبه فى ذلك العصر بأشياء منها :

١ - قوة الألفاظ وجزالتها وجزالة الأساليب وجودة انتقاء الكلمات والعبارات ووضعها فى موضعها المناسب مما يعبر عنه بحسن السبك وجمال النظم ولا سيما فى العصر البويهى وتجد ذلك واضحا فى شعر المتنبى وأبى فراس والشريف الرضى ومهيار الديلمى وبخاصة فى الأغراض الجليلة ونحيلك على ماسبق عرضه عليك من مختاراتهم فى الأغراض الشعرية .

وقد نجـــد إلى جانب ذلك رقة اللفظ وعذوبة الأسلوب ولا سيما فى الأغراض الرقيقة كالغزل ، ومن ذلك قول (ابن النبيه المصرى) .

أفدية أن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا؟!

وقوله :

أمانا أيها القمر المطل فمن جفنيك أسياف تسل

٢ - كثرة الألفاظ اللغوية التى تحتاج فى فهم معناها إلى الرجوع إلى المعاجم فى شعر مثل المتنبى والشريف والمعرى ، وذلك لوفرة محصولهم من كلام العرب وقرب عهدهم من عصور العربية الأولى حيث كان معظم هـذه الألفاظ مألوفا غير غريب .

٣ - كثرة استعمال الألفاظ الأجنبية المعربة وبخاصة الفارسية لعظم امتزاج الأمتين العربية والفارسية وكثرة من اشتغل بعلوم العرب من الفرس بعد أن أسلموا ومضت على دخولهم فى الإسلام قرون ، كما جاء فى قول الشاعر :

من آلة (الدست)[1] ما عند الوزير سوى تحريك لحيته فى حال إيماء !

وقول عبد الصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد :

أيا (شاهنشاه)[2] صل الأماني بتجديد البشائر والتهاني
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت (المهرجان)[3]

٤ كثرة استخدام ألفاظ العلوم . ومصطلحاتها من لغوية وشرعية وفلكية ورياضية نظرا لازدهار العلوم وانتشار الثقافة وتأثر الشعراء بذلك .

كقول أحمد بن يوسف فى وصف غلام طويل القامة: (من علم الهندسة)

ولى غلام طال فى دقه كخط إقليس لاعرض له
وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لاجزء له

وقول المتنبى فى مدح سيف الدولة (النحو) :

إذا كان ماتنويه (فعلا مضارعا)
(مضى) قبل أن تلقى عليه (الجوازم)

وقول المعرى فى الرثاء : (من الفلك) :

(زحل) أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار (المريخ) من حدثان الدهر مطف وإن علت فى اتقاد
و (الثريا) رهينة بافتراق الشمل حتى تعد فى الأفراد .

---

(١) الدست : كلمة فارسية معناها مجلس الوزير فى صدر الديوان بوضع فيه من آلات مناسبة .

(٢) كلمة فارسية معناها ملك الملوك .

(٣) عيد من أعياد الفرس .

٥ – التسامح فى إيراد ألفاظ الفحش وأسماء العورات كما أشرنا إلى ذلك فى الحديث عن أغراض الشعر عند غرضى (الهجاء) و (الهزل والسخف).

٦ – الإكثار من استعمال المحسنات البديعية على اختلاف أنواعها من لفظية ومعنوية والولع بإيرادها فى الشعر قصداً عمـا دعاهم إلى التكلف وتسبب فى ضعف ديباجة الشعر ولا سيما فى أواخر العصر (كالجناس) فى قول المعرى:

لم تلق غيرك إنساناً تلوذ به فلا برحت لعين الدهر إنسانا

وقول البستى:

فهمت كتابك ياسيدى فهمت ولا عجب أن أهيما!

(والاقتباس) فى قول ابن سناء الملك:

رحلوا فلست مسائلا عن دارهم أنا (باخع نفسي على آثارهم)

وقول الصاحب بن عباد:

أقول وقد رأيت له سحابا من الهجران مقبلة إلينـا
وقد سحت غواديها بهطل «حوالينا الصدود ولا علينا»

و (التورية) فى قول البهاء زهير:

بلاد متى ماجئتها جئت جنة لعينيك منها كل ماشئت (رضوان)

وقول المعرى:

وفقيها أفكاره شدن (النعمان) مالم يشـده شعر (زياد)

و (الطباق والمقابلة) فى قول المعرى:

غير مجـد فى ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد

و (حسن التعليل) فى قول ابن نباته السعدى فى فرس أغر محجل :

وأدهم يستمد الليل منه   وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهواً   ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه   تشبث بالقوائم والمحيا !

وقول (الأرجانى) :

أبدى صنيعك تقصير الزمان، فنى
وقت الربيع طلوع الورد من خجل !

« معانى الشعر وأخيلته »

١ - إذا كان شعراء العصر العباسى الأول - كما وصفناهم - فرسان المعانى فى الشعر العربى بما انتفعوا به من معانى الأقدمين، وبما اكتسبوه من حياة الحضارة ومن النهضة العلمية المتوثبة، فإن شعراء العصر الثانى ساووهم فى هذه الميزات بل زاد حظهم منها عنهم إذا نضم إلى شعر الأقدمين شعر أسلافهم فى العصر الأول، وأما الحضارة فقد زاد أزدهارها، واتسعت آفاقها، وأما النهضة العلمية فقد مضت فى تقدمها ونضجت وآتت ثمارها وكما ظهر فى العصر الأول من شعراء المعانى من استحقوا لقب الحكماء (كأبى تمام) و (ابن الرومى) فقد ظهر فى شعراء العصر الثانى بإزائهم حكماء أكثر عدداً، وأوفى تجربة من أمثال (المتنبى) و (الشريف الرضى) و (المعرى) و (الطغرائى).

٢ - لما كان لابد من وجود ظاهرة الاحتكاك الأدبى والتقاء الفكرى بين شعراء عصرنا الثانى وشعراء ما سبقه من عصور ولا سيما العصر الأقرب،

إليهم وهو القصر العباسي الأول ، ولقد نتج عن هذا الانتقاد ما يمكن أن نسميه بعملية تلقيح بين الافكار وتزاوج فى عالم المعانى وامتحان القدرات وكان لابد من ظهور شخصية العصر الثانى فى هذه المبادأة الحتمية وهنا نراهم.

٣ — حين يلمون بمعانى الأقدمين — ولابد من أن يلموا بها لأنها إنسانية عامة — مرة يحرزون قصب السبق وينالون شرف التقدم عليهم وجائزة التفوق ومرة أخرى يقصرون عنهم ، ولا يسامونهم ، فيبقى السابق على إحسانه وتفوقه .

٤ — أما ما استقلوا هم بأبداعه وإبتكاره من المعانى الجديدة فكثير بالغ حد الروعة جدير بالاعجاب مستحق للخلود . وينسحب هذا الحكم على تفننهم فى الأخيلة الجميلة من تشبيهات عجيبة ، واستعارات بديعة ، وخيال خلاق خلاب ، وقد أعانهم على الإجادة والإبداع فى ذلك تلك الحضارة الباهرة التى كانت تحيط بهم فى كل مرافق حياتهم .

٥ — ولكن شاب المعانى والأخيلة عند كثير منهم عنصر المبالغة الزائدة عن الحد و فى استعمال الخيال الوهمى الذى لايتصور تحققه فى الخارج أو فى الذهن مما يستدعيه الغلو فى المدح أو التشبيه[1] وهذا أمر جاءهم من أمرين أولهما : جانب حياتهم التى سادها الغلو والاسراف فى كل مظاهرها ، وثانيهما : من جانب الثقافة الفارسية التى استفحلت فى عصرهم والتى كان التغالى فيها أمراً مألوفاً وعلى سبيل المثال ، كان الفرس يرفعون ملوكهم وأمراءهم إلى درجة التقديس ، فكل ما ينسب إليهم جائز ولو كان مخالفاً للعقل .

---

(١) راجع الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للشيخين أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى ص ٢٩٦ ط القاهرة ١٩٢٨م .

٦ — ولما تميزت معانى الشعراء فى عصرنا الثانى بأنها أقرب إلى الاستدلال وأحسن ترتيبا وأقرب إلى المنطق وذلك بحكم ما اكتسبوه من ملكات علمية سيطرت عليهم وكانت أثرا من آثار ثقافة عصرهم الواسعة ، لهذا جاءت قصائدهم أشد أحكاما وأبعد عن التفكك والاضطراب وأقرب إلى (الوحدة الموضوعية) .

٧ — كما دخلت معانيهم أفكار فلسفية ، وأقيسة منطقية ، وقضايا علمية للعلة التى ذكرناها آنفا .

وإليك أمثلة مفصلة لكل ما أجملناه وبالله التوفيق :

(أ) فيما أخذوه من معانى السابقين فأحسنوا فيه :

١ — ما أخذه (الوأواء الدمشقى) من (أبى نواس) حين قال أبو نواس فى جميل يبكى :

يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

فقال الوأواء :

وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

فأجاد عن أبى نواس لأنه زاد فى المعنى استعمال الدموع فى سقى ورد الخدود وذكر جمال الثنايا[1] مع تجنب كلمة (اللطم) المستقبحة فى بيت أبى نواس .

٢ — وقول (أبى تمام) فى جميلة أرخت على شعرها خمارا ، ووضعت على وجهها نقابا لئلا تعرف :

---

(١) مقدم الأسنان .

أرخت خمارا على الفرعين وانتقبت ... الناظرين بقدليس بتنقب

أخذه (السرى الرفاء) فقال :

وأبت - وقد أخفى الخمار جمالها ... حركات غصن البان أن تتنقبا

والمعنى المشترك بين الشاعرين أن مماكسة بين نقابها الذى يخفى جمالها وبين قدها الذى يظهر هذا الجمال لفرط حسنه فكأن النقاب غير موجود، وبيت السرى أفضل من بيت أبى تمام لأنه زاد عنه بأن استعار غصن البان للقد مع حركاته الرشيقة فكان أبدع فى تصوير المعنى المراد.

٣ — وقول (جرير) فى هجاء قوم :

فلا يمنعك من أرب لحاهم[1] ... سواء ذو العمامة والخمار !

أخذه (المتنبى) فقال :

ومن فى كفه منهم قناة ... كمن فى كفه منهم خضاب

والمعنى المشترك بين الشاعرين أن المهجوين جبناء فهم والنساء سواء ولكن بيت المتنبى أجود لأن جريرا سوى بين مطلق رجل وبين النساء وقد يكون . . فى الرجل ضعف عارض لمرض أو لشيخوخة بينما المتنبى لم يدع المساواة إلا بين رجالهم الأشداء المسلحين وبين النساء فكان أدق وأوجع فى الهجاء .

٤ - وربما ساوى المتأخر المتقدم فى الإجادة من غير سبق ولا تقصير فى مثل قول (أشجع السلمى) فى وصف أثر مهابة الممدح فى نفس عدوه يقظة ومناما :

---

(١) جمع لحية .

فاذا تنبه رعته ، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام!

حين أخذه (السرى الرفاء) فقال :

لايشرب الماء إلا غص من حذر ولا يهوم إلا راعه الحذر

أجاد (أشجع) حين ذكر علة ترويع العدو فى حالة النوم بسبب مايرى من سيوف الممدوح المسلولة عليه ، ولم يذكر شيئا عن سبب ترويعه فى حالة اليقظة ، وأجاد السرى الرفاء حين صور ارتياع العدو فى حالة اليقظة فى صورة من لا يسيغ شرب الماء – وهو أسوغ شىء فى الحلق – بل يغص به من شدة الخوف . ولكنه لم يأت بشىء يصور حالة ارتياعه فى حالة النوم ، فتساويا عند الموازنة .

٥ – ومما قصروا فيه عن السابقين قول المتنبى فى المدح :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

فقد أخذه من قول أبى تمام حين قال فى بائيته المشهورة فى مدح المعتصم :

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

وقد أبدع أبو تمام بينما أساء المتنبى بتكرار لفظ (النهب) وذكر (القماش) وهو من ألفاظ العامة ، على أن المعنى عند الشاعرين مأخوذ من قول الشاعر الجاهلى (عمرو بن كلثوم) :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا!!

٦ – وقول أبى سعيد (الرستمى) فى المدح :

قل لباغى الندى: خف الله لا تسـ ـأله عمراً فإنه موهوب

وقد أخذه من قول (أبى تمام) :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها ، فليتق الله سائله!!

وكان أبو تمام فى قة إحسانه بينما قصر عنه الرستمى تقصيرا ظاهرا حين وضع (العمر) مكان (الروح) وحين أطال فى شأن السائل بينما جاء قول أبى تمام فى شأنه موجزا رائعا .

(ب) أما ما استقلوا بإبداعه من المعانى الجديدة المبتكرة فيصعب إحصاؤه لكثرته ومنه :

١ - ما ساقه (المتنبى) فى شأن الدموع - دموع المحبين - حين علل لكثرتها هذا التعليل العجيب :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة فى المآقى ؟!

٢ - وما أورده (الطغرائى) فى معنى تمنى المحب طول الليل حين يلقى محبوبه وخوفه من طلوع الصبح :

وموقف من وراء الرمل آنسنى فيه الدجى وأراد الصبح إيحاشى
لو أن تشرى الليل من صب فدام له لكان يبذل فيه روحه الراشى !!

٣ - وقول (الطغرائى) أيضا معللا لاستدامته طيف محبوبته فى أثناء نومه تعليلا طريفا رائعا بديعا ، إلى جانب ما يصوره من ضن الحبيبة عليه حتى بطيفها :

بعثت إلى تلومنى فى هجعة أهــدت إلى خيالها المذعورا
وتقول : ما للطيف أبطأ بعدما كنا اشترطنا أن يقيم يسيرا
فأجبتها بالعذر وهو مبين لو كان ينصف لائم معذورا
أطبقت أجفانى عليه وضمته خوض الدموع فما أطاق عبورا !!

٤ - وما ابتكروه من معان جيلة فى (رثاء المصلوب) مما لم يعهد قبلهم كقول (أبى بكر الأنبارى) فى رثاء (محمد بن بقية) من وزراء البويهيين حين قتل وصلب ،

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهمو قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم إحتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة

ركبت مطية من قبل (زيد) ... علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعا ... تمكن من عناق المكرمات!
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيل ثار النائبات!
وصيرد هرك الاحسان فيه ... إلينا من عظيم السيئات
ومالك تربة فأقول تسقى ... لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى ... برحمات غواد رائحات

هذه القصيدة — وقد روينا لك معظمها[1] قد اشتملت على أكثر من عشرة معان كلها جديد مبتكر، وقد قلب الشاعر كل معنى سوء قصد من صلب (ابن بقية) وإهانته إلى معنى جميل فيه رفعة له وتعظيم لشأنه وبلغ فى ذلك غاية الإحسان والتوفيق حتى رووا أن (عضد الدولة) قاتل الوزير وصالبه حين قرأ هذه القصيدة تمنى أن يكون هو المقتول والمصلوب وأن يكون هذا الشعر قد قيل فيه . .

---

(١) وتجدها كاملة فى (يتيمة الدهر للثعالبى) ج ٢ ص ٣٧٣.

(ب) و(للسرى الرفاء) أيضاً قصيدة فى مصلوب من أصدقائه ، ألم فيها ببعض المعانى الجديدة الجيدة ، ولكنها دون القصيدة السابقة ، ومما قوله :

أبدر دجى غالته إحدى الغوائل ... فأصبح مفقوداً وليس بآفل ؟!

أتته المنايا وهو أعزل حاسر ... خفى غرار السيف بادى المقاتل

وعرى من برديه كالسيف منتضى ... فلم يعر من بردى عفاف ونائل

هو القدر المحتوم ، والسيف لم يكن
ليخضب إلا من دماء الأفاضل

أحلك من أعلى الهواء محلة
نأت بك عن ضنك الثرى والجنادل

(جـ) وأما ما تفننوا فيه من الصور البيانية من روائع التشبيهات وبديع الاستعارات ولطيف الكنايات فبحر زاخر ، وفيض غامر يعوزك الوقت والجهد لو أردت استقصاءه عند واحد من شعرائهم فما بالك بالمئين الكثيرة ، منهم ؟ فلنجتزىء بالقليل وندعوك إلى مراجعة ما مر بك من نماذج وتأملها فى هذا الجانب ثم ندعوك إلى مطالعة ما استطعت من دواوين شعراء هذا العصر ففيهما ما يروى الغلة بإذن الله . فمن بدائع التشبيه قول المتنبى فى مدحة (لعلى بن منصور الحاجب) :

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدى إلى عينيك نوراً ثاقباً

كالبحر يقذف للقريب جواهراً ... جوداً ، ويبعث للبعيد سحائباً

كالشمس فى كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

وقول السرى الرفاء فى وصف شمعة :

مفتولة مجدولة ... تحكى لنا قد الأسل

كأنها عمر الفتى والنار فيها كالأجل !

وقول (المعرى) فى وصف ليلة :

فكأنى ماقلت والليل طفل وشباب الظلماء فى عنفوان
ليلتى هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان
هرب النوم من جفونى فيها هرب الأمن من فؤاد الجبان !!

ومن جميل الاستعارات قول ابن العميد :

قامت تظللنى من الشمس نفس أعز على من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس !!

وقول ابن سنان الخفاجى فى حمامة :

وهاتفة فى البان تملى غرامها وتتلو علينا من صبابتها صحفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسى لما لبست طوقا وما خضبت كفا !!

وقول (الشريف الرضى) فى الشيب :

ضوء تشعشع فى سواد ذوائبى لا أستضىء به ولا أستصبح
بعت الشباب به على مقة له[1] بيع العليم بأنه لا يربح

(ولمهيار الديلمى) فى الشيب أيضاً :

ما لسارى الهو فى ليل الصبا ضل فى فجر برأسى وضحا ؟ !

---

(١) مقة : محبة .

وقول (الشريف) فى موقف الوداع:

تسرق الدمع فى الجيوب حياء وبنا ما بنا من الأشواق!

ومن لطيف الكنايات ما كنى به (المتنبى) عن سيف الدولة بعد أن ودعه عاتباً عليه:

فلو كان ما بى من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معمم!

رمى واتقى رميى ومن دون ما اتقى
هوى كاسر كفى وقوسى وأسهمى!

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم!

وما ألطف كناياته عن الرجل وعن المرأة فى القصيدة كلها:

رحلت فكم باك بأجفان شادن[1]
على وكم باك بأجفان ضيغم[2]

(د) وأما مبالغاتهم فى معانى الشعر فمنها المقبول ومنها الممقوت ويوسعك التفرقة بينها بحسك الأدبى:

يقول (الأرجانى) فى السهر ومراعاة النجوم:

يخيل لى أن سمر الشهب فى الدجى وشدت بأهدابى اليهن أجفانى

ويقول فى المدح،

ياسائلى عنه لما جئت أمدحه هذا هو الرجل العارى من العار
لقيته فرأيت الناس فى رجل والدهر فى ساعة والأرض فى دار

---

(١) الشادن: ولد الغزال. (٢) الضيغم: الأسد.

ويقول المعرى فى المدح :

تكاد قسيه من غير رام   تمكن فى قلوبهم النبالا
تكاد سيوفه من غير سل   تجد إلى رقابهم انسلالا
يذيب الرعب منه كل عضب   فلولا الغمد يمسكه لسالا

ويقول ابن نباتة السعدى فى مدح سيف الدولة :

قد جدت لى باللهى حتى ضجرت بها   وكدت من ضجرى أثنى على البخل!
لم يبق جودك لى شيئا أؤمله   تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل!

وللشاعر (السلامى) فى المدح أيضا :

فنى جيشه خمسون ألفا كعنتر   وأمضى، وفى خزانه ألف حاتم!

و (للوأواء الدمشقى) فى دموع الحب :

متى أرعى رياض الحسن منه   وعينى قد تضمنها غدير
ولو نصبت رحى بإزاء دمعى   لكانت من تحدره تدور !

وللمتنبى فى (النحول) :

روح تردد فى مثل الخلال إذا   أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أنى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى !

وله فى (غبار الحرب الذى تثيره الخيل) :

أقبلت تبسم والجياد عوابس   يخببن بالحلق المضاعف والقنا
عقدت سنابكها عليها عثيرا   لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا[1]

---

(١) السنابك للخيل : أطراف حوافرها ، العثير : التراب ، العنق : نوع من سير الدواب .

(ﻫ) وأما ما دخل فى معانى أشعارهم من القضايا الفلسفية والمسائل العلمية فكثير ومنه قول (الباخرزى) يجعل من حمل العصا لمن شاب شعره دليلا على قرب الموت ويصوغ ذلك فى قضية قياسية منطقية .

حمل العصا للمبتلى بالشيب عنوان البلى
وصف المسافر أنه ألقى العصا كى ينزلا
فعلى القياس سبيل من حمل العصا أن يرحلا !

وقول (أبى العلاء) فى قضية مشابهة أجرى فيها جدلا بينه وبين محبوبته أدلى فيه كل بحجته ودليله .

هى قالت لما رأت شيب رأسى ‌ وأرادت تنكرا وازورارا
أنا بدر وقد بدا الصبح فى رأ ‌ سك والصبح يطرد الأقمارا !
لست بدرا وإنما أنت شمس ‌ لا ترى فى الدجى وتبدو نهارا

ومن فلسفيات (أبى العلاء المعرى) وهى كثيرة قوله فى بعض آرائه الخاصة .

غدوت مريض العقل والدين فالقنى ‌ لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما
ولا تبغ قوتا من غريض[1] الذبائح !
ولا تفجعن الطير وهى غوافل ‌ بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب[2] النحل الذى بكرت له ‌ كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها ‌ ولا جمعته للندى والمنائح !!

(١) الغريض : اللحم الطرى . ‌ (٢) الضرب : العسل .

مسحت يدى من كل هذا فلمتنى ... لهت لهاتى قبل شيب المسائح[1]

وقوله جانحا إلى التشاؤم :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا

يحطمنا ريب الزمان كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك !!

وقوله فى الناس : —

يحسن مرأى لبنى آدم ... وكلهم فى الذوق لا يعذب

ما فيهمو بر ولا ناسك ... إلا إلى نفع له يجذب

أفضل من أفضلهم صخرة ... لا تظلم الناس ولا تكذب !!

ومن هذا القبيل للمتنبى :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنـ ... ـفس أن الحمام مر المذاق

والأسى قبل فرقة الروح عجز ... والأسى لا يكون قبل الفراق !

وقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ... ولا تأمل كرى تحت الرجام[2]

فإن لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام !

ومن مسائل علم النحو قول (أبى الفتح البستى) يشكو إلى الوزير عزله من منصبه :

عزلت ولم أذنب ولم أك جانيا ... وهذا لإنصاف الوزير خلاف

حذفت وغيرى مثبت فى مكانه ... كأنى نون الجمع حين تضاف !!

---

(١) المسائح : ذوائب الشعر . (٢) الرجام : الحجارة توضع فوق القبر .

الباب الثالث
النثر فى العصر العباسى الثانى

« النثر في العصر العباسي الثاني »

ونعني به النثر الفني ، وهو قرين الشعر وعديله ، وهما جناحا الأدب ، عليهما يعتمد ، وبهما يحلق،وفيهما تكتمل صورته الفنية ،ويتم مظهره الجميل.

والنثر الفني قسمان . خطابة وكتابة .

أما الخطابة فكانت ناهضة في العصر الأول ،لكنها تخلف وضعفت في هذا العصر لضعف دواعي نهضتها السابقة ، فقد بعد العهد عن بداية العصر وماكان فيه من موجبات نهضة الخطابة ، كتثبيت قواعد الدولة ، والرد على خصومها ولم يعد للخلفاء العباسيين المتأخرين من القوة والنخوة والعزة والسلطة ماكان لإسلافهم في العصر الأول فعجزوا عن الارتجال ، وناب عنهم غيرهم في المناسبات الخطابية وآل أمر الحكم الفعلي وتصريف الشئون السياسية والمهام الكبرى إلى العناصر الأعجمية من تركية وفارسية ، وهؤلاء لا يهتمون بالخطابة العربية ، ولا يحسنونها فانحازت الخطابة إلى المساجد وانحصرت في خطب الجمع والعيدين غالبا. أماالفن النثرى الجدير بالدراسة في العصر الثاني فهو (الكتابة) التي استمر نهوضها وازدهارها وتطورها بعد العصر الأول لأسباب سنذكر لك بعون الله تعالى.

(أ) أنواع الكتابة في العصر الثاني :

أشتملت الكتابة في هذا العصر على الأنواع الآتية : —

١ — الرسائل الديوانية .   ٢ — الرسائل الإخوانية .

٣ — المقامات .   ٤ — النثر التأليفي (العلمي والأدبي) .

أما الرسائل الديوانية فهي الرسائل الرسمية التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء باسم الخليفة أو السلطان أو أحد الولاة أو الوزراء في الشئون السياسية وغيرها مما يهم الراعي والرعية .

وأما الرسائل الإخوانية فهي التي كان يتبادلها الأصدقاء والإخوان من أهل الأدب والعلم والفضل في شتى المناسبات من تهنئة أو تعزية أو استزادة أو عتاب أو شكر . . . الخ ، وأما المقامات فسيأتي التعريف بها في إفاضة لمكانتها الخاصة في نثر هذا العصر ، وأما النثر التأليفي فهو لغة التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة ، وسيأتي التمثيل لكل ذلك إن شاء الله .

(ب) أسباب نهضتها :

لنهضة الكتابة وازدهارها في العصر الثاني أسباب كثيرة أهمها :

١ - نجاح اللغة العربية في أن تظل اللغة الرسمية في الدويلات الأعجمية التي استقلت عن الدولة العباسية كالدولة البويهية في فارس وخراسان والدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر ثم في الدولة السلجوقية ، وأمانها على تلك الرتبة السامية ، أنها لغة الدين والعلم والسياسة العامة للأمة الإسلامية المتمثلة في (الخلافة) فبقي للعربية سلطانها وتمكنها ومهابتها ، وبقيت لها الصدارة لدى الحكام ولدى عامة الناس فتوافرت الدواعي لتعلمها وإتقانها أن لم يكن من أجل الدنيا فلأجل الدين وليس أدل على قوة تمكن اللغة العربية وتغلغلها في النفوس حتى في قلب بلاد العجم من وصف أحد الشعراء وهو (أبو عبد الله الحسين) لأسلوب تربية النشء في مدينة (أصفهان) إحدى العواصم الكبرى في إبان حكم السلاجقة :

ترى ابن ثمان بها يستفيد حديث الرسول ويتلو الكتابا
ومن فوقه حافظا كاتبا أديبا نحويا يبارى النحابا

وهذا القول يصور سطوة العربية ورواجها فى هذه الأقطار الأعجمية فما بالك بالعربية ؟

٢ - حاجة كل دولة من هذه الدويلات إلى كتاب مجيدين لينهضوا بأمورها وتتفاخر بهم وتنافس غيرها .

٣ - وجود (ديوان الإنشاء)(١) فى كل دولة من هذه الدول وهو الديوان الذى تطور عن (ديوان الرسائل) الذى كان موجودا فى العصر الأول ، وديوان الإنشاء هذا كان من أكبر عوامل نهضة الكتابة وازدهارها وترقيها فقد كان موئلا للكتاب ، ومدرسة لتخريجهم وتدريبهم على مراحل وكان له رئيس يشرف عليه من كبار الكتاب وبلغائهم عظيم المنزلة كبير الخطر فى الدولة مرتبته كرتبة الوزير فى عصرنا ، وكان الراغبون فى تجويد الكتابة يدخلونه صغارا ويتخرجون منه كبارا ويترقون فى مراتبه حتى يصل المتفوق فيهم إلى رئاسة الديوان أو نيابته على الأقل .

٤ - تشجيع كل دولة من هذه الدول لنوابغ الكتاب ، بإغداق العطايا عليهم وإسناد المناصب الكبرى إليهم ولا سيما منصب (الوزير) أى رئيس الوزراء بلغة عصرنا ، إذ كان هذا المنصب يكاد يكون وقفا على بلغاء الكتاب (كابن العميد) و (الصاحب بن عباد) فى الدولة البويهية ، و (نظام الملك) و (الطغرائى) فى الدولة السلجوقية و (القاضى الفاضل) فى الدولتين الفاطمية والأيوبية .

---

(١) وكان يسمى فى بعض الأحيان (ديوان الرسائل) .

٥ ـ انتفاع الكتاب بتراث سلفهم في العصر العباسي الأول من النثر خاصة والأدب بصفة عامة ، واستفادتهم كذلك بالثقافة العلمية التي بلغت في عصرهم الذروة في سعتها وتعدد فنونها ، وكثرة المؤلفات والمترجمات فيها مع وصولهم إلى مرحلة النضج فيما نشأ في العصر الأول ، وهضم ماترجم من علوم وثقافات ومشاركة الكتاب في تلك النهضة الشاملة فكان منهم فلاسفة وعلماء في شتى العلوم ، (كابن العميد) الذي وصف بأنه كان غاية في علوم الدنيا والدين (وكالطغرائي) الذي كان فيلسوفاً حكيماً كما كان كيميائياً .

(ح) طابعها وملامحها العامة :

إذا كان الطابع العام للعصر العباسي الأول أنه عصر الطبع والترسل في الكتابة وعدم التكلف ، وتجنب القصد إلى البديعيات أو الاحتفال بها إلا ماجاء عفو الخاطر وأنه عصر الاهتمام بالمعنى والمضمون أولا وباللفظ والشكل بعد ذلك فإن الطابع العام للعصر الثاني أنه عصر الإعجاب بالزينة والزخرف اللفظي ، وقصد المحسنات البديعية وتكلفها . وفي مقدمتها السجع ـ والعناية بتوشية الأسلوب ، (فالشكل) عند كتاب هذا العصر في المرتبة الأولى من الاهتمام و (المضمون) يأتي بعده في المرتبة الثانية .

(د) مراحل تطور الكتابة في العصر العباسي الثاني وأشهر أعلامها :

وقد تم هذا الانتقال على مرحلتين هما :

١ ـ (مرحلة العصر البويهي) ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ : وفي هذه المرحلة تم ما أشرنا إليه من الاهتمام بتوشية الأسلوب وبالزخرف البديعي بالتدرج وفي شيء من الاعتدال والتوسط مع كثير من القدرة الفنية والتمكن الأدبي ومن أشهر كتاب هذه المرحلة ابن العميد / والصاحب بن عباد / وأبو منصور الثعالبي .

٢ (مرحلة مابعد العصر البويهى) ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ: وفى هذه المرحلة اندفع الكتاب إلى الإكثار من الزخرف والزينة والتزام أنواع البديع وتكلفه مما نزل برتبتهم عن رتبة كتاب العهـــد البويهى، وأضعف أساليبهم بعض الضعف، ومن أشهر كتاب هذه المرحلة: الطغرائى/والحريرى ورشيد الدين الوطواط / وأبو الفرج الجوزى / والحريرى / والقاضى الفاضل / والعماد الأصفهانى / وضياء الدين بن الأثير.

ولعل من أقوى أسباب التطور فى الكتابة العباسية من الطبع إلى الصنعة، ومن الترسل إلى البديع، أن الحياة نفسها فى العصر الثانى كانت قد وصلت بفعل التمدن والحضارة إلى درجة قصوى من الترف والتجمل والتفنن فى الزينة وبخاصة لدى طبقة الحكام والأثرياء ومن يلوذ بهم من زخرفة للمبانى والأثاث والرياش وتوشية للثياب، وإبداع فى صنع آلات الحضارة وأدوات المعيشة، وتفنن فى ألوان الطعام والشراب فجاء أدبهم صورة لهذه الحياة الناعمة المترفة ولما فشا فى هذا المجتمع من بهجة وزينة وزخرف، ولقد وجدوا فى البديع طلبتهم فى تجميل الكلام وأشباعاً لرغبتهم فى التأنق وفى صناعة الجمال فى كل شىء.

(هـ) الخصائص الفنية للكتابة:

ارتبطت الكتابة الفنية فى مرحلتى العصر العباسى الثانى بعلمين كبيرين (هما ابن العميد) للمرحلة الأولى و (القاضى الفاضل) للمرحلة الثانية وذلك لأن كلا منهما كان مبتكراً لطريقة فى الكتابة عرفت باسمه ونسبت إليه، وقد جاراه فيها كتاب عصره ومن جاء بعدهم، فصار بها إماماً متبعاً وزعيماً مشتهراً، وإليك الخصائص الفنية لطريقة كل منهما بعد أن نترجم له:

١ - (طريقة ابن العميد) : - ترجمته - هو الوزير الجليل الأستاذ الرئيس (أبو الفضل محمد بن الحسين) المولود عام ٣٠٠ هـ فى أسرة فارسية كريمة من مدينة (قم) لأب من رجال العلم والأدب والفضل هو الشيخ (أبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد) ، وكان هذا الوالد الكريم فى أول أمره كاتباً لأمير (قم) المسمى : (ماكان بن كاكى) ولما زالت دولة هذا الأمير على يد السامانيين ملوك (بخارى)[1] قبض على أعوانه ومنهم (الحسين بن محمد) وحملوا إلى (بخارى) ولكن لم يلبث أن شفع له فضله فأفرج عنه السلطان (نوح بن نصر السامانى) وولاه رئاسة ديوان الرسائل (الإنشاء) فنهض به على خير وجه ، وكانت رسائله غاية فى البلاغة والإحكام وقد دونت لنفاستها ولقب صاحبها بالشيخ و (وبالعميد)[2] ولم يزل فى منصبه الجليل فى (بخارى) حتى وافته منيته .

نشأ (ابن العميد) فى كنف هذا الأب العظيم ، فتربى على طريقته ، ونهل من معينه ، وتأدب بأدبه ، وتأثر بأسلوبه واقتبس من نبوغه ، ولما شب عن الطوق فى حياة أبيه وحذق العلوم والفنون واضطلع فى الأدب وأحاط بثقافة عصره آثر أن يبدأ حياته العملية فى موطنه الأصلى ببلاد فارس فالتحق بخدمة آل (بويه) كاتباً فى دواوينهم ثم لم يزل يترقى لعلمه وأدبه ونبوغه حتى صار الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) للسلطان (ركن الدولة البويهى) فى فارس والجبل عام ٣٢٨ هـ ، ولقد كان رحمه الله آية من

---

(١) إحدى عواصم بلاد التركستان الإسلامية التى كان لها شأنها العظيم فى تلك العصور والتى غزاها الروس الشيوعيون فى مطلع العصر الحديث وضموها إلى بلادهم قسراً وحسبك أنها منجبة (الإمام البخارى) جامع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من جلة العلماء .

(٢) أى رئيس الكتاب .

آيات الله فيما اجتمع له من الفضائل كان عالماً متبحراً فى علوم الدين وعلوم الدنيا ، وسياسياً ماهراً وأديباً بليغاً وأول أهل زمانه فى صناعة الكتابة وكان أحفظ الناس للغة وغريبها وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام ، حاد الذكاء ، واسع الاطلاع موسوعة معارف حتى لقب (بالجاحظ الأخير وضرب به المثل فى إتقان الكتابة وقال النقاد ، بدئت الكتابة بعبد الحميد[1] وختمت بابن العميد ، وكان إلى جانب هذا متفرقا فى العلوم الفلسفية والرياضية كالمنطق والهندسة والميكانيكا وعلى الجملة فهو عبقرى فذ ، ونابغة من نوابغ الدهر وحسنات ذلك العصر ولقد كان زينة الدولة البويهية ، وشرقت أخباره وغربت ، وقصده الأدباء والشعراء من كل الأقطار مادحين مؤملين ، بل مشوقين متلهفين من أجل أن يسعدوا بلقائه ويشرفوا بمعرفته وحسبك أن يكون من قصاده الشاعر الكبير (المتنبى) الذى يصور لنا هذا الشخصية العظيمة فى قوله .

من مبلغ الأعراب أنى بعدها	هدت (رسطاليس) و(الاسكندرا) ؟!
وسمعت (بطليموس) دارس كتبه	متملكا متبديا متحضراً
ولقيت كل الفاضلين كأنما	رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدماً	وأتى ، فذلك إذ أتيت مؤخراً
بأبى وأمى ناطق فى لفظه	ثمن تباع به القلوب وتشترى
قطف الرجال القول وقت نباته	وقطفت أنت القول لما نورا

(خصائص طريقته فى الكتابة) : يمكن تلخيص طريقة بن العميد فى كتابته فى الآتى :

١ — استعمال الفقرات القصار ، متأثراً فى ذلك (بالجاحظ) بيد أنه كان

---

(١) هو عبد الحميد بن يحيى آخر وأبلغ كتاب الدولة الأموية .

يلتزم غالباً بالسجع العذب فى أواخر الجمل ، مع احتفاظه برونق العبارة وسلامة الألفاظ ونفاسة المعنى .

٢ - تحلية الأسلوب بشىء من المحسنات البديعية - زيادة على السجع - كالجناس والمطابقة .

كثرة الاقتباس من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام فى أسلوبه .

٤ - تضمين الأسلوب الحكم والأمثال من أقوال الأقدمين ولاسيما الشعر الرائع .

٥ - كثرة الصور البيانية فى الأسلوب من تشبيهات جميلة واستعارات بديعة وكنايات لطيفة .

٦ - إيثار أسلوب الإطناب والإسهاب فى كتابته فهو يبسط الفكرة ويوضحها ويقسم الموضوع ويرتب أجزاءه ويستوفى كل جزء بالبيان ويستعين على ذلك بالمترادفات الكثيرة ، ويعاود المعنى بتنويع العبارات وسوق الأدلة وبالتفريع والتوليد حتى لايدع فيه زيادة لمستزيد .

وإليك مثالا من نثره وهو تلك الرسالة البليغة الرائعة التى كتبها إلى (بلكاين ونداد خورشيد) أحد ولاة (ركن الدولة) حين شق عصا الطاعة وخرج عليه ، يدعوه إلى ترك ذلك والعودة إلى طاعة السلطان ، وموضوعها يدلك على أنها من الرسائل الديوانية :

« كتابى إليك ، وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق كل ما يرعى

لك ، لاجرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمالك، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض الأمور فيك ، ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك وانصرافك ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد الدم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة إلى انجلاء ، (وهى طويلة ومنها) : «وزعمت أنك فى طرف من الطاعة ، بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك كيف وجدت مازلت عنه ؟ وكيف تجد ماصرت إليه . ألم تكن من الأول فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عذى[1] وماء روى ومهاد وطى ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت به بعد الذلة وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد العسرة ، وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ، ووطىء عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر ويكاثر بك ، وتشير ويشار إليك ، ويذكر على المنابر اسمك ، وفى المحاضر ذكرك ، ففيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ؟ وما استعضت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كمك ؟ وغمست فى خلافها يدك ؟ وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ، فهو والله أكثف ظلالك فى العاجلة ، وأروحها فى الآجلة ، إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود» .

(١) العذى هنا الهواء الخالص .

وفى آخرها يقول :

((وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ماصلح ، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن طمعا فى إنابتك ، وتحكيما لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهره من أعذر وأرادفه من إنذار احتجاجا عليك، واستدراجا لك ، فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك ، فإنه على كل شىء قدير ، وبالإجابه جدير)).

قال (الثعالبى) فى (اليتيمة) بلغنى عن (بلكا) أنه كان يقول : والله ماكانت لى حال عند قراءة هذا الفصل إلاكما أشار إليه الأستاذ الرئيس ، ولقد ناب كتابه عن الكتائب فى عرك أديمى واستصلاحى، وردى إلى طاعة صاحبه ..)

وكفاك هذا تعليقا على قيمه هذه الرسالة ، وموضعها من الإبداع والنفاسة .

٢ (طريقة القاضى الفاضل) - ترجمته - :

هو أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن البيسانى اللخمى العسقلانى ولد فى مدينة (عسقلان (إحدى مدن فلسطين) على ٢٩ه ، وكان أبوه قاضيا لعسقلان فتلقى على يديه وعلى أيدى علماء بلدته طرفا من علوم الدين واللغة والأدب ثم وفد إلى (مصر) فى صباه لتعلم فن الكتابة وكان ذلك فى أواخر الدولة الفاطمية ونزل الاسكندرية ولازم قاضيها الأديب (ابن حديد) وتخرج على يديه فى الأدب والكتابة ، ولما برع فيها انتقل إلى (القاهرة) وصار من كتاب الخليفة الفاطمى (ظافر) ثم الخليفة (العاضد) ونال عندهما أكرم مكانه وأسنى منزلة وذاع صيته وعرف فضله فى فنون الكتابة

وعالم الأدب والبلاغة ولما استولى (صلاح الدين الأيوبى) على مصر ، اختاره وزيرا له فكان اختيارا موفقا ، إذ نهض بأعباء وظيفته على أكمل صورة ، وكان خير معوان لصلاح الدين على جهاد الصليبيين من الفرنجة وعلى تثبيت قواعد الدولة الأيوبية ، وعاش بعد وفاة صلاح الدين وزيرا لأهل بيته فى مصر والشام معظما مبجلا إلى أن توفى فى عام ٥١٦ هـ فضله ومنزلته الأدبية) .

لانجد فى بيان ذلك خيرا مما كتبه عنه صديقه (العماد الأصفهانى) بعد وفاته يرثيه قال : ((واحد الزمان ، العظيم الشان ، رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ما سمع له بمماثل فى الأوائل ، ممن لو عاش لتعلق بغباره ، أو جرى فى مضماره فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ويبدع الأزهار . وهو ضابط الملك بآرائه ، ورابط السبل بآلائه . إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة مالو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة أين قس فى مقام حصافته ، وحاتم وعمرو فى سماحته وحماسته ، وفضله بالإفضال حال ، ونجم قبوله فى أفق الإقبال عال ، لا من فعله ، ولا مين فى قوله ، ولا خلف فى وعده ولا بطء فى رفده . الصادق الشيم ، السابق بالكرم ، ذو الوفاء والمروءة والصفاء والفتوة ، والتقى والصلاح ، والندى والسماح . منشر رفات العلم ، ناشر راياته ، وجالى غيابات الفضل وتالى آياته وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته ، وأخلصوا لولايته ، قد وفقه الله للخير كله ، وفضل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله . فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهماته المتفرقة فى العاجلة

لايغفل عن الآجلة ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلواته ، وحفظ أوراده ووظائفه وبث أصفاده [1] وعوارفه ويختم كل يوم القرآن المجيد ، ويضيف إليه ماشاء الله من المزيد)) .

(خصائص طريقته فى الكتابة) .

مما لاشك فيه أن القاضى الفاضل قد تأثر بطريقة) ابن العميد) فى الكتابة التى كانت قد ذاعت وتمكنت وشاع استعمالها لدى الكتاب فى شتى الأقطار من قبل مولد القاضى الفاضل بقرنين من الزمان ولعلك قد لاحظت وجه الشبه القريب بين الرجلين فى النشأة والنبوغ والكفاية ، وفيما بلغاه من مكانة رفيعة سواء فى عالم الأدب أو فى عالم السياسة والحكم ، وأساس طريقة القاضى الفاضل مبنى على طريقة ابن العميد إلا أنه زاد عليها أمورا جعلته زعيم طريقة فى الكتابة ، وتتلخص هذه الأمور فيما يأتى :

١ — المزيد من العناية والالتزام بالصناعة والمحسنات اللفظية من سجع وجناس واقتباس .

٢ — الإغراق فى المحسنات المعنوية من تورية وطباق ومقابلة ومراعاة النظير وحسن تعليل . . الخ .

٣ — شدة التكلف لإيراد الاستعارة والصور الخيالية :

٤ — طول الفقرات المسجوعة لأن التحايل على إيراد الأنواع السابقة كان يضطر الكاتب إلى التمهيد لها وتطويل الكلام حتى يظفر بمطلوبه منها ،

---

(١) جمع صفد وهو العطاء ، ومثلها العوارف .

وذاعت طريقة القاضى الفاضل فى مصر وأعجب بها الكتاب فقلدوها جهدهم، وكانت موهبة القاضى الفاضل القوية وسلامة فطرته، وشدة تمكنه من الناحيتين اللغوية والأدبية تخفى عيوب هذه الطريقة، فلما تناولها من هم دونه فى كل ذلك ظهرت هذه العيوب ومن أهمها :

١ - غموض المعانى واختفاؤها تحت أثقال الزخارف اللفظية حتى أصبحت كتابة معظمهم كالألغاز .

٢ - ثم ضعف هذه المعانى وتفاهة تلك الأفكار مادام كل الاهتمام موجها إلى بهارج اللفظ وأنواع المحسنات وما أشبه ذلك بحسناء ألقوا عليها من ألوان الثياب وأنواع الجواهر ماناءت بحمله وكادت تزهق روحها أو بعروس كالت لها الماشطة أنواع الأصباغ فى وجهها حتى طمست جمالها الطبيعى وذهبت بمعالم حسنها الفطرى، ومن أسف أن الكتاب ظلوا متعلقين بهذه الطريقة مولعين بهذه المظاهر حتى انحط شأن الكتابة وانحدر أسلوبها بالتدريج ووصلت إلى درك انحطاطها فى (العصر العثمانى) ومطلع العصر الحديث حتى إذن الله تعالى بانتشالها من هذه الوهدة على يد رائدى النهضة الحديثة فى النثر (الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى) والأستاذ الإمام الشيخ (محمد عبده) فتخلصت من أوضار البديع وأثقال الصناعة والمحسنات وعادت سيرتها الأولى إلى أسلوب الترسل والطبع أسلوب العصور الزاهرة للعربية التى تزعمها كتاب (عبد الحميد بن يحيى) و (الجاحظ) و (ابن المقفع) وأضرابهم . وإليك مثالا من نثر (القاضى الفاضل) (من الرسائل الديوانية):
كتب عن السلطان « صلاح الدين إلى صاحب (مكة) جوابا عن كتاب منه :
((وصلنا كتابك أيها الشريف معربا عن المشايعة الشائعة أنباؤها والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها، ومحاسن الخلال التى اقتسم طرق الحمد إعادتها وإبداؤها، ومكرمات الآل التى تساوى فى اقتناء المجد أبناؤها

وآباؤها ، وفضائل الأفضال التى لاتخف على غير أهل العباء - صلوات الله عليهم - أعباؤها ، ونشر كتابك من محاسنك ماانطوى ، ووردنا منه منهلا أروى وارده وارتوى ، ووقفنا منه على أثر فضل اشتمل على عين الكرم واحتوى ، ورفقنا وإياه من الحمد إلى مالايخالفه بحر ولاهو مكاناً سوى . فاقتضانا مزيداً من رفع قدره ، واختصاصه من الأنعام بكل غريب الموقع ندره ، وأصرنا كتابه إلى مستقر كاتبه من قلب الود وصدره وكيف لايكون ذلك وقد اشمخرت لبيته الأنساب ، وخرت الأنصاب ، وسجدت الرقاب وردت له بعد ماتوارت بالحجاب ، وشهدت بفضل نهارهم الحرب وبفضل ليلهم المحراب » . ولايخفى عليك فضل أسلوب ابن العميد على أسلوب القاضى الفاضل من ناحية الجمال والوضوح والاقتصاد فى المحسنات والإيجاز فى الجمل والعبارات .

وإليك نماذج لبعض كتاب المرحلتين ، سوى الزعيمين السابقين :

أولا : من (مرحلة العهد البويهى) :

كتب (الصاحب بن عباد[1] إلى صديقه القاضى (ابن بشر الجرجانى) عند وروده باب مدينة (الرى) وافداً عليه : متشوقاً ومرحباً : وهى (من الرسائل الإخوانية) :

تحدثت الركاب بسير أروى   إلى بلد حططت به خيامى
فكدت أطير من شوق اليها   بقادمة كقادمة الحمام

أفحق ماقيل أمر القادم ؟ أم ظن كأمانى الحالم ، لا والله ! بل هو درك العيان ، إنه ونيل المنى سيان ، فمرحباً أيها القاضى براحلتك ورحلك . بل أهلا بك وبكافة أهلك ، وياسرعة مافاح نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من رياك ، فحث المطى تزل على بسقياك ، وتزع على بلقياك ، ونص على

يوم الوصول لنجعله عيداً مشرفاً ونتخذه موسماً معرفاً ، ورد الغلام أسرع من رجع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصبا في عقال وأسر .

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوى يا زياد بن عامر
أصائل قرب أرتجى أن أنالها بلقياك قد زحزحن حر الهواجر

وكتب (بديع الزمان الهمذاني) من رقعة إلى أبي بكر الخوارزمي في المودة :

« إنا لقرب دار الأستاذ - أطال الله بقاءه - كما طرب النشوان مالت به الخمر .

ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر
ومن الامتزاج بولائه كما إلتقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

وكتب من رسالة إلى ابن أخته موصياً :

« أنت ولدي مادمت والعلم شانك ، والمدرسة مكانك ، والدفتر أليفك والمحبرة حليفك ، فإن قصرت ولا إخالك ، فغيري خالك ، والسلام » .

وكتب أبو بكر الخوارزمي يعزي قاضياً من أصدقائه نكبه أحد الولاة :

« ... وكانت محنة القاضي محنة شملت الانام ، وخصت الكرام ، ووجب على كل من أشتم روائح العقل ، وميز بين النقصان والفضل ، أن ينفطر لها ألما وأن يبكي عندها دماً ، وخلص إلى من ذاك ما أضحك مني الأعداء ، وأبكى لي الأصدقاء حتى رحمني من كان يحسدني ، وحتى عجب من جزعي من كان يصبرني وحتى غضضت طرفاً طالما رفعته وقبضت بناناً طالما بسطته . وحتى عزيت كما يعزى الثكلان ، وسليت كما يسلى اللهفان) .

ثانياً : (مرحلة ما بعد العصر البويهي حتى آخر العصر العباسي :

كتب (مؤيد الدين الطغرائي) إلى صديقه (القاسم بن علي الحريري) جواباً على تهنئته له بتولي رئاسة ديوان الإنشاء بأصفهان :

((وصلني كتاب ابتسم بالمكرمة الغراء ، وابتسم عن التكرمة العذراء ، فخلته كتاب الأمان من الزمان ، وتلقيته كما يتلقى الإنسان صحيفة الإحسان وقابلت ما أودع من البر ، والطول المبر ، بالشكر الذي هو جهد المقل ، ونسك المستقل ، ووجدت ما ألحف عن التجميل ، وأتحف من الجميل ، ما كانت أطماعي تتوق إليه ، وآمالي تحوم حواليه ... الخ)) .

وكتب (العماد الأصفهاني) منشوراً على لسان الملك العادل (نور الدين) لاتخاذ الحمام الزاجل لنقل الرسائل :

(.. هي رائد الأنباء ، المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء . والسابقات الهوج في الاهتداء ، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدة إلى أبعد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي[1] ، والنافذات بنجح المرام إلى المرامي ، وهي تطوي الفراسخ البعيدة ، والأشواط في ساعة ، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة ، وقد عم بها نفع المرابطين والغزاة والمجاهدين في سبيل الله في إهداء أخبار الكفرة إليهم في أماكنها ، دالة على مكايدها ومكامنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ، وإنها الميمونة المطار ، مأمونة المثار ، سالمة على الأخطار ، مهدية في الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوطار من الأقطار . الخ) .

---

(١) جمع مومات وهي المفازة التي لا ماء فيها (الفلاة : الصحراء) .

وكتب فى فتح السلطان) صلاح الدين الأيوبى) لبيت المقدس واستعادته من الصليبيين :

((ثم رحل من (عسقلان) للقدس طالبا ، وبالعزم غالبا ، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا ، قد أصحب بيض مناه ، وأخصب روض غناه ، وأصبح رائج الرجاء أرج الأرجاء ، سيب العرف طيب العرف ظاهر اليد ، قاهر الأيد ، سما عسكره قد فاض بالفضاء ، وملأ الملأ فأفاض اللألاء ، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق ، فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل والسماء حاظية بإسقاط القساطل ، وسار سارا بالأحوال الحوالى ، مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى ، مطوية مدارج مناجحه على ماتنشر الآمال والأمالى : وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه المجانى والمجالى .

والإسلام يخطب من (القدس) عروسا ، ويبذل لها فى المهر نفوسا ويحمل اليها نعمى ليحمل عنها بوسا ، ويهدى بشرا ليذهب عبوسا ، ويسمع صرخة الصخرة المستعدية لإعدائها على أعدائها ، وإجابة دعائها وتلبية ندائها .. الخ) .

وإليك أمثلة للنثر التأليفى :

أ - أسلوب التأليف العلمى :

١ - فى التاريخ - من مقدمة كتاب (التنبيه والإشراف) للمسعودى[1] .

---

(١) العالم المؤرخ الرحالة (أبو الحسن على بن الحسين المسعودى) نسبته إلى الصحابى (عبدالله بن مسعود) وهو صاحب كتاب مروج الذهب المشهور فى التاريخ وكانت وفاته عام ٣٤٦ هـ .

((وقد ذكرنا فى كتابنا هذا ـ وما سلف قبله من كتبنا التى هذا سابعها أخبار العالم وعجائبه ، ولم نخله من دلائل تعضدها ، وبراهين تؤيدها عقلا وخبرا ، وغير ذلك مما استفاض واشتهر ، وشاهد من الشعر على حسب الشىء المذكور وحاجته إلى ذلك . ونحن وإن كان عصرنا متأخرا عن عصر من كان قبلنا من المؤلفين ، وأيامنا بعيدة عن أيامهم ، فنرجو ألا نقصر عنهم فى تصنيف نقصده ، وغرض نؤمه ، وأن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء ، وقد تشترك الخواطر ، وتتفق الضمائر ، وربما كان الآخر أحسن تأليفا ، وأتقن تصنيفا ، لحنكة التجارب ، وخشية التتبع والاحتراس من مواقع الخطأ ، ومن هنا صارت العلوم نامية غير متناهية ، لوجود الآخر ما لا يجده الأول ، وذلك إلى غير غاية محصورة ، ولا نهاية محدودة ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك فقال : « وفوق كل ذى علم عليم » .... الخ))

٢ — فى النحو واللغة : من كتاب (الخصائص) لابن جنى [1] .

باب القول على اللغة ...... وما هى ؟

((أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، هـذا حده . وأما اختلافها . فلما سنذكره فى باب القول عليها . أمواضعة هى أم إلهام ؟ وأما تصريفها ومعرفة حروفها . فإنها (فعلة) من لغوت أى تكلمت ، وأصلها لغة كـكرة ، وقلة ، وثبة ، كلها لاماتها واوات . لقولهم . كروت بالكرة وقلوت بالقلة ، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب ، وقد دللت على ذلك وغيره من نحوه فى كتابى (سر الصناعة) .

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جنى الموصلى من أعلام اللغة والنحو توفى عام ٣٩٢ هـ .

وقالوا لها : لغات ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها : لغى إذا هذى قال الشاعر :

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا . ورفث التكلم

وكذلك اللغو ، قال الله سبحانه وتعالى ((وإذا مروا باللغو مروا كراما أى : بالباطل ، وفى الحديث : من قال فى الجمعة : صه فقد لغا ، أى تكلم وفى هذا كاف))

٣ - فى علوم البلاغة : فصل من كتاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجانى (١) الكلام على الفصل والوصل بين الجمل :

((وإذ قد عرفت هذه الأصول والقوانين فى شأن فصل الجمل ووصلها ، فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب : جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها العطف ألبتة ، لشبه العطف فيها - لو عطفت - بعطف الشىء على نفسه .

وجملة حالها مع التى قبلها حال الاسم يكون غير الذى قبله إلا أنه يشاركه فى حكم ، ويدخل معه فى معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه ، فيكون حقها العطف .

وجملة ليست فى شىء من الحالين ، بل سبيلها مع التى قبلها سبيل الاسم

(١) أبو بكر عبد القاهر الجرجانى الإمام المشهور فى علوم البلاغة توفى عام ٤٧١ هـ .

مع الأسم لا يكون منه فى شىء، فلا يكون أياه، ولا مشاركا فى معنى بل هو شىء أن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به، ويكون ذكر الذى قبله وترك الذكر سواء فى حاله، لعدم التعلق بينه وبينه رأسا، وحق هذا ترك العطف البته - فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين فاعرفه.))

ب - أسلوب التأليف فى الأدب:

من كتاب (يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر) للثعالبى [1].

الباب الثالث فى ذكر أبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وأخباره وغرر أشعاره:

هو ابن عم (سيف الدولة) كان فرد دهره، وشمس عصره، أدبا وفضلا، وكرما ونبلا، ومجدا وبلاغة وبراعة، وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة ومعه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا فى شعر (عبدالله بن المعتز) - الخليفة العباسى - وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام، وكان (الصاحب ابن عباد) يقول: بدىء الشعر بملك، وختم بملك، يعنى امرأ القيس وأبا فراس، وكان المتنبى يشهد له بالتقدم والتبريز، ويتحامى جانبه،

---

(1) هو أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (الثعالبى النيسابورى) المتوفى عام ٤٢٩ هـ.

فلا يبرى لمباراته ، ولا يجترىء على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ، ومدح من دونه من آل حمدان : تهيباً له وإجلالا ، لا إغفالا وإخلالا ، وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام عن سائر قومه . ويصطنعه لنفسه ، ويصطحبه فى غزواته ، ويستخلفه على أعماله ، وأبو فراس ينثر الدر الثمين فى مكاتباته إياه ويوفيه حسن سؤدده ، ويجمع بين السيف والقلم فى خدمته ..

وعزم سيف الدولة على الغزو واستخلف أبا فراس على الشام فقال يتأسف على عدم صحبته فى الحرب والجهاد .

دع العبرات تنهمر انهمارا   ونار الشوق تستعر استعارا
أتطفأ حسرتى وتقر عينى   ولم أوقد مع الغازين نارا ؟
أقمت على الأمير وكنت ممن   تعز على فرقته اختيـــارا
إذا سار الأمير فلا هدوا   لنفس ، أو يئوب ، ولا قرارا
ستذكرنى إذا طردت رجال   دققت الرمح بينهمو مرارا
وأرض كنت أملؤها صيالا   وجو كنت أرهجه غبارا
إذا بقى الأمير قرير عين   فديناه اختياراً واضطراراً
يمد على أكابرنا جناحاً   ويكفل عند حاجتها الصغارا
أرانى الله طلعته سريعاً   وأصحبه السلامة حيث سارا
وبلغه أمانيــه جميعـــاً   وكان له من الحدثان جارا . الخ

المقامات

فن جديد نثرى قصصى نشأ فى العصر العباسى الثانى ، وكانت له مكانة خاصة فى الأدب فى ذلك العصر وفيما بعده من العصور حتى العصر الحديث .

أولا : (تعريفها) :

والمقامة مفعلة من القيام يقال . قام قياماً ومقامة ، ثم سمى بها (المجلس ومكان الاجتماع ، ثم اتسع استعمالها حتى سمى بها (مايقال فى المجلس) من خطبة أو موعظة ، فقالوا مقامات الخطباء والوعاظ لأنهم كانوا يلقون خطبهم من قيام غالباً ثم شاع استعمالها بعد ذلك (على مايقصه أهل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغة فصيحة من قصص شائق لا يستغرق إلقاء القصة الواحدة منه أكثر من (مقامة) أى جلسة واحدة) ثم على (ماصاغه بعض الأدباء من قصص خيالية قصيرة ذات حوار محدود تصور حيل هؤلاء المكدين وفنونهم فى اقتناص المال من الناس ، مصوغة فى أسلوب يعتمد على الصنعة اللفظية والبيانية ويهدف إلى الإمتاع الأدبى والفائدة اللغوية والوعظية) .

ثانياً : (نشأتها) :

أول مقامات عرفت فى العربية هى مقامات (بديع الزمان الهمذانى) فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، فهو المبتكر لهذا الفن على أرجح الأقوال إذ صنع فيه أربعين مقامة ، وليس ذلك ببعيد عليه فقد كان عبقرياً حاد الذكاء مع براعته اللغوية ونبوغه الأدبى وقد أشرنا فيما سبق

عند الكلام على (شعر الكدية أو الشعر الساساني) إلى أنه قد يكون الدافع الذي نحن بصدده (البديع) على هذا النحو المتأثر بهذا الشعر الذي راج قبل ظهور هذه المقامات ، على يد شاعريه الكبيرين (الأحنف العكبري) و (أبي دلف الخزرجي الينبوعي) والذي ضمن (البديع) بعض مقاماته شيئاً منه وهو الشعر الذي كان أيضاً صورة لحياة بعض الأدباء المقلين الذين اضطروا للتكسب المكشوف بسحر بيانهم وبلاغة إنشائهم ومقدرتهم اللغوية الفائقة، ويرى بعض مؤرخي الأدب ومنهم (الحصري)[1] صاحب زهر الآداب أن (بديع الزمان) قد احتذى بمقاماته حذو عمل مشابه سابق للعالم اللغوي الأديب (محمد بن الحسين بن دريد) المتوفى عام ٣٢١ هـ ، حيث أثر عنه أنه أغرب بأربعين حديثاً في معارض أعجمية، وألفاظ حوشية فلم تحظ بالإقبال، وأن (الهمذاني) حين وقف على هذه الأحاديث أعجبته فكرتها فعارضها بمقاماته ، ولما كانت أحاديث ابن دريد التي أشار إليها الحصري مفقودة ومن ثم تتعذر المقارنة بينها وبين مقامات البديع ، فلا يستطاع الجزم بمحاكاة البديع لابن دريد ، ويبقى هذا الرأي دون دليل ثابت .

ويرى بعض المتأخرين وهو (جورجي زيدان) في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) أن البديع الهمذاني إنما احتذى بمقاماته صنع أستاذه (ابن فارس) الذي كتب رسائل على نسق المقامات ، وهو رأي ضعيف كذلك ، لعدم وجود ما يؤيده ولعدم وجود هذه الرسائل المشار إليها ، ويبقى الرأي الغالب والأقوى وهو أن (بديع الزمان الهمذاني) هو مبتكر هذا الفن[2] من

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني صاحب كتاب (زهر الآداب وثمر الألباب) والمتوفى بالقيروان عام ٤١٣ هـ .

(٢) ويؤيد هذا الرأي (الحريري) في مقدمة مقاماته : راجع مقامات الحريري ط القاهرة ١٩٢٥ م .

المقامات وأول من ألف فيه، على ما رجحناه وعللنا له فى أول الحديث عن نشأة هذا الفن الأدبى،

ثالثاً : خصائص فن المقامة : عناصرها الأساسية :

تقوم المقامة من جهة فنها الأدبى على أقصوصة طريفة ذات عناصر رئيسية هى :

١ - شخصية (الراوى). وهى شخصية خيالية ويفترض فى الراوى أنه شهد أحداث هذه القصة وربما شارك فى بعضها، ثم يحدث بها ويرويها.

٢ - شخصية (البطل) : أهم عناصر المقامة وهى شخصية خيالية كذلك تدور حولها أحداث القصة وأحياناً يكون معه بعض أولاده أو زوجته كشخصيات مساعدة (رئيسية أو ثانوية).

٣ - (الجمهور) : وهو الذى يتفاعل مع البطل ويكون له شأن فى الأحداث.

٤ - (القصة) : وهى حكاية خيالية يخترعها (البطل) من نفسه، ويجعل منها حيلة يستدر بها عطف الجمهور وينال رفده وعطاءه.

رابعاً : (الملامح الفنية لعناصر المقامة :

١ - (الراوى) : محب للأدب والأدباء معجب بالبطل لبلاغته ويعتبره شيخاً له، ميال للرحلة والتجوال لاكتساب الأدب والعلم والحكمة غالباً ما يحاور البطل دون أن يعرفه فى أول الأمر نظراً لتنكره وفى آخر القصة يكتشف شخصيته وحياته ويحاول لومه وتقريعه على خديعته للناس، وحين يبسط له البطل عذره بكلام معسول يبدو وكأنه اقتنع.

٢ — (البطل) : أديب بليغ شاعر ناثر ملم بكثير من العلوم جوأب آفاق شديد الذكاء ، حاضر البديهة . بارع الحيلة له فى كل بلد موقف مغاير وفى كل ناد حيلة جديدة يصطاد بها المال من الجيوب ، يسهل عليه ذلك فصاحة لسانه ، وحلاوة منطقه ، وجودة تمثيله لما يخترعه من أحوال ومواقف ، يسحر بكل ذلك سامعيه ويستولى على مشاعرهم ، ثم نقودهم !!

٣ — (الجمهور) : ميال للأدب ، محب للموعظة ، عطوف على المحتاج ساذج ينخدع دائماً بحيل البطل .

٤ — (القصة) : قليلة الحوادث ، محدودة الحوار ، منقحة الأسلوب وافرة المحصول من مفردات اللغة .

خامساً : عناصر التجانس فى المقامات :

تمثل المقامات لدى كل أديب صاغها ، مجموعة متجانسة من الأقاصيص وإليك عناصر هذا التجانس :

١ — تشابهها فى الأحداث ـ التى هى أحداث احتيال غالباً ـ وكل مقامة تشتمل على حيلة منها .

٢ — اتحادها فى (الراوى) .

٣ — اتحادها فى البطل .

٤ — تشابهها فى المغزى الوعظى والأدبى واللغوى والفكاهى .

سادساً : زعيما فن المقامة فى الأدب العربى :

ينتمى زعيما هذا الفن فى الأدب العربى إلى عصرنا المدروس :

العباسى الثانى وهما (بديع الزمان الهمذانى) و (القاسم بن على الحريرى)

وصاحبا الفضل فى الإبداع بهذا الفن هما اثنان أولهما — كما سبق أن قدمنا — وهو من أدباء (العهد البويهى) ، أما ثانيهما فمن أدباء (العهد السلجوقى) وهو أشهر من ألف فى المقامات بعد زميله الأول ، وإليك ترجمة لكل منهما وتعريفا بمقاماته .

١ — بديع الزمان الهمذانى ومقاماته

هو أبو الفضل بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى الملقب ببديع الزمان ، المولود فى مدينة (همذان) إحدى مدن فارس ، حوالى عام ٣٥٦ هـ فى أسرة كريمة عربية الأصل ، ونشأ فى ذلك العصر الزاهر الذى راجت فيه العربية وآدابها حتى فى بلاد العجم ، وتلقى دروسه الأولى على علماء همذان وأدبائها ومنهم (ابن فارس) ، وكان البديع شغوفا بالعلم محبا للأدب ، عظيم الفطنة سريع الحفظ ، آية من آيات الله فى حدة الذكاء مع طبع صاف ، وخلق رضى ، ثم تاقت نفسه للاستزادة من الأدب والعلم ، فرحل إلى (الصاحب بن عباد) الوزير الأديب فى مدينة (أصفهان) واقتبس من أدبه وفضله ، ثم كانت له رحلة إلى مدينة (جرجان) وأخرى إلى مدينة (نيسابور) فى عام ٣٨٢ هـ وفى ذلك الوقت كان قد نضج واستكمل آلات الأدب ، فقال الشعر الرقيق ، وكتب النثر الأنيق ، وظهرت هناك عبقريته فأملى مقاماته المشهورة التى كان بها رائدا لهذا الفن فى الأدب ، وكانت نيسابور فى ذلك الوقت تحوى إماما من أئمة الأدب والكتابة هو (أبو بكر الخوارزمى) وهو أكبر من بديع الزمان سنا ومكانة ، فاتصلت بينهما أواصر المودة ، وتبادلا المكاتبات الأدبية البديعة ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا فسرعان ما انقلبت المودة إلى خصومة ، وتنافسا — كأبناء مهنة واحدة — منافسة فيها عنف ، وتحدى كل منهما الآخر فى ميادين الأدب ومجالاته ، وساعدت الظروف بديع الزمان فرجحت كفته فى هذه المباريات

وتغلب على الخوارزمى فى بعض المحاورات والمساجلات فطارصيت (بديع الزمان) وعظمت شهرته ، ونال مكانة كبيرة فى عالم الأدب إذ لم يكن يظن ظان أن أحدا يقدر على الوقوف أمام الخوارزمى فضلا عن أن يهزمه ، ولم يلبث أن توفى (الخوارزمى) فخلا الجو للبديع ، وابتسم له الزمن وتنقل فى حواضر فارس مكرما مبجلا ، بيد أن المنية وافته فجأة فى سن الأربعين ، فلقى ربه عام ٣٩٨ ﻫ وكان رحمه الله – إلى جانب ذكائه الخارق ، وبراعته الفائقة فى الأدبين العربى والفارسى – كما وصفه معاصره (أبو منصور الثعالبى) فى اليتيمة ، مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة ، إلا أنه لا يشمت بعدوه إن أصابه مكروه .

منزلته الأدبية) : كان أديبا كبيرا فهو فى الطليعة من أدباء العصر العباسى الثانى عامة والعهد البويهى بخاصة ، يقرض الشعر ، ويدبج النثر إلا أنه كاتبا أبرع منه شاعرا وله فى الكتابة – سوى المقامات – الرسائل البليغة الطوال والقصار وهو إلى الطول أميل ، وأسلوبه يجمع بين جمال العبارة ورشاقة اللفظ ودقة المعنى وصفاء الطبع وحسن التخيل مع إلمام بالصنعة البديعية فى غير تكلف ولا مبالغة .

مقاماته (سبب إنشائها – عددها

سبق أن قلنا إن (البديع) هو مبتكر فن المقامات على الصورة الطريفة التى جاء بها وسبق أن عللنا لسبب إنشائه إياها (فراجعه) ، وقد جاء فى مصادر الأدب القديمة – كاليتيمة – بأنه صنع من هذا الفن أربعمائة مقامة).

ولكن الذى وصل الينا وطبع وتدوول بين الناس (خمسون فقط) ونرجح أن العدد الأساسى الصحيح لمقامات البديع أربعون ، وأن ماذكر فى تلك المصادر إنما هو من قبيل التصحيف والتحريف لأن الأربعمائه عدد مبالغ فيه إلى حد كبير ، أما الأربعون فعدد معقول لفن مبتكر ، ولو أنه وليد ولو كانت أربعمائه لوصل الينا ربعها على الأقل وهو (مائة) أو مايقاربها لشدة شغف الناس بهذا الفن وحرصهم على تدوينه ولكن وجود أربعين يدعم ماذهبنا اليه ، أما العشره الباقيه فلعله زادها بعد أن استحسن الناس منه هذا الصنيع وتلقوه بالقبول والتشجيع .

خصائصها الفنية) :

وقد بنى (البديع) مقاماته ، على الأسس والعناصر التى شرحناها لك من قبل ، والتى هى من وضعه وابتكاره :

١ - (فالراوى) عنده أسماه (عيسى بن هشام) وهو يبدأ به كل مقامة فيقول فى مفتتحها : ((حدثنا عيسى بن هشام قال : .....))

٢ - (البطل) عنده أسماه (أبا الفتح الإسكندرى) وقد نحلة الصفات التى أشرنا اليها من الأدب والفصاحة والذكاء والحيلة والتجوال فى البلاد.

٣ - (والحكاية) تدور غالبا حول الكدية واقتناص المال من (الجمهور) طواعية بوساطة سحر البيان وذرابة اللسان .

٤ أما أسلوبها) فقد التزم فيه السجع القصير الفقرات مما خف على السمع ولم يشنه التكلف ، وعنى بالصنعة البديعية إلى درجة مقبوله غير مرذولة ، واقتبس فيه كثيرا من الحكم والأمثال ، وضمنه مددا من الشعر

الرائع ومعظمه من نظمه ، وكان فى أسلوب مقاماته بوجه عام أقرب إلى الطبع المجيب والقريحة المساعدة وأبعد عن الافتعال والاستكراه ومن هنا توافر لأسلوب المقامات عنده حظ كبير من العذوبة والسهولة والامتاع الأدبى .

« نموذج من مقامات بديع الزمان الهمذانى »

« المقامة القريضية »

حدثنا عيسى بن هشام ، قال :

طرحتنى النوى مطارحها ، حتى إذا وطئت (جرجان) الأقصى ، استظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها يد العمارة ، وأموال وقفتها على التجارة ، وحانوت جعلته مثابة ، ورفقة اتخذتها صحابة ، وجعلت للدار حاشيتى النهار ، وللحانوت ما بينهما ، فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأهله وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ، ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم . حتى إذا مال الكلام بناميله ، وجر الجدال فيما ذيله ، قال . قد أصبتم عذيقة ، ووافقتم جذيله [١] ، ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت ، ولجلوت الحق فى معرض بيان يسمع الصم ، وينزل العصم [٢]

---

(١) العذيق . تصغير العذق (بكسر العين) وهو كباسة التمر من النخلة . والتصغير هنا للتعظيم وكذلك الجذيل تصغير الجذل (بكسر الجيم) وهو ماعظم من أصول الشجر بعد ذهاب الفروع ؛ وفى المثل « أنا جذيلها المحك ، وعذيقها المرجب » يضرب به لمن تباهى بكرمه واشتهار نفعه .

(٢) العصم . جمع أعصم وهو الوعل يكون ممتنعا فى رؤس الجبال .

فقلت يافاضل نذن فقد منيت ، وهات فقد أثنيت ، فدنا وقال سلونى أجبكم. فقلنا : ما تقول فى امرىء القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير فى وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ؛ ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه . قلنا : فما تقول فى النابغة ؟ قال يثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائباً ، قلنا : فما تقول فى زهير ؟ قال : يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه قلنا : فما تقول فى طرفة ؟ قال هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق[1] خزائنه ، قلنا : فما تقول فى جرير والفرزدق ؟ وأيهما أسبق قال : جرير أرق شعراً ، وأغزر غزراً[2] ، والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجواً وأشرف يوماً والفرزدق أكثر رويا[3] وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى[4] وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى[5] ، والفرزدق إذا افتخر أجزا[6] ، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى . قلنا : فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعانى حظاً ، والمتأخرون ألطف صنعاً ، وأرق نسجاً ، قلنا : فلو أريت من أشعارك ورويت لنا من أخبارك ، قال : خذهما فى معرض واحد :

---

(١) الأغلاق : جمع غلق وهو مايغلق به الباب (الـكالون) .

(٢) غزرا : مصدر غزر ، أى كثر .

(٣) أى أنه متنوع القوافى .

(٤) لغة فى شجا ، بمعنى أحزن .

(٥) أسنى : رفع ، أى الممدوح .

(٦) سهل أجزأ بالهمزة : بمعنى كفى وأغنى .

[illegible]
وقال [illegible]

أما تروني أتغشى طمرا⁽١⁾ ممتطياً في الضر أمراً إمرا⁽٢⁾
مضطبنا على الليالي غمــرا ملاقياً منها صروفا حمراً⁽٣⁾
أقصى أماني طلوع الشعرى فقد عنينا بالأمـانى دهــرا⁽٤⁾
وكان هـذا الحـر أعلى قـدرا وماء هذا الوجه أغلى سعرا
ضربت للسرا قبابا خضرا في دار (دارا) وإوان كسرى
فانقلب الدهــر لبطن ظهـرا وعاد عرف العيش عندي نكرا
لم يبق من وفري إلا ذكرى ثم إلى اليـوم هلم جـــرا
لولا عجوز لي (بسر من را) وأفرخ دون جبال (بصرى)⁽٥⁾
قد جلب الدهر عليهم ضرا قتلت يا سادات نفسي صبرا

قال (عيسى بن هشام): فأنلته ما تاح، وأعرض عنا فراح. فجعلت أنفيه وأثبته وأنكره وكأني أعرفه، ثم دلتني عليه ثناياه فقلت الاسكندري والله! لقد كان فارقنا خشفاً ووافانا جلفا. ونهضت على أثره ثم قبضت على

(١) الطمر: الثوب البالي.
(٢) أمراً إمراً: منكراً عجباً.
(٣) الحمر، جمع حمراء، يريد: صروفاً شديدة.
(٤) الشعرى: نجم يطلع في الصيف ولا يحتاج فيه الفقير العاري إلى دثار
(٥) يريد بالحر نفسه.
(٦) سر من را اسم المدينة (سر من رأى) التي بناها المعتصم العباسي شمالي بغداد و (بصرى) مدينة بالشام.

خصره وقلت : ألست أبا الفتح ؟ ، ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، ؟ فأى عجوز لك يسر من رأى ؟ ! فضحك إلى وقال :

ويحك هذا الزمان زور   فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة ولكن   در بالليالى كما تدور

• • •

٢ - الحريرى ومقاماته

هو أبو محمد القاسم بن على بن عثمان الحريرى الأديب الكاتب الشاعر والعالم اللغوى النحوى ، وهو عربى الأصل ينتسب فى (ربيعة الفرس) - بفتح الفاء والراء - وكان مولده عام ٤٤٦ هـ بمشان البصرة وهى بلدة صغيرة قرب البصرة كثيرة النخل ، وانتقل إلى مدينة البصرة لطلب العلم وسكن فى ناحية منها تسمى (محلة بنى حرام) ، وأقبل على تعلم اللغة والنحو والأدب فبرع فيها جميعاً ، وأغرم بصناعة الإنشاء البديعى ، وكانت هذه سمة عصره ، وصاغ على أسلوبها (مقاماته) التى حاكى بها مقامات (الهمذانى) فاشتهرت واشتهر بها وله غير المقامات كتب فى النحو واللغة منها كتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص) و (ملحة الإعراب) فى النحو وهو منظوم وله ديوان رسائل ، وشعر كثير غير شعره الذى فى المقامات ، وكان الحريرى قد تخرج علماً وأدباً على أيدى علماء زمانه فى البصرة وهى إحدى حواضر اللغة والأدب ثم صار من أعلامها وفضلائها ، وكانت له ببغداد صلات أدبية وله عند حكامها موضع التجلة والاحترام لعلمه وفضله ، وأسندت إليه وظيفة رسمية فى بلده تقديرا له هى : خطة الخبر بديوان البصرة ، وتوفى رحمه الله بالبصرة عام ٥١٦ هـ وخلف ولدين هما : نجم الدين عبد الله ، وضياء الدين عبد الله قاضى قضاة البصرة من بعد .

مقاماته (عددها وسبب إنشائها)

ألف الحريري خمسين مقامة على غرار مقامات (بديع الزمان) وقد ألفها على دفعتين أخرج في أولاهما أربعين مقامة ثم أتمها بعشر فتمت خمسين، ولانجد خيرا من الحريري نفسه يحدثنا عن سبب اتجاهه إلى إنشاء مقاماته حيث يقول في (المقدمة)[1] التي وضعها لهذه المقامات :

(.. وبعد ، فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب .. ذكر المقامات التي ابتدعها (بديع الزمان) وعلامة همذان رحمه الله تعالى . فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، إلى إلى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع وأن لم يدرك الظالع شأو الضليع ..) :

ثم يذكر أنه اعتذر عن ذلك فلم يقبل منه ثم يقول : فلما لم يسعف بالإقالة ، ولا أعفى من المقالة لبيت دعوته تلبية المطيع ، وبذلت في مطاوعته جهدا لمستطيع ، وأنشأت - على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ورؤية ناضبة وهموم ناصبة - خمسين مقامة ..) .

ونأخذ من كلام الحريري : أن مقامات بديع الزمان كانت تذكر في عصر الحريري في أندية الأدب ، ويتذاكرها الأدباء والفضلاء معجبين ، وأنه في إحدى هذه الندوات التي ضمت فيمن حضرها (الحريري) وأحد

---

(١) راجع مقدمة (مقامات الحريري) المطبوعة في المطبعة الحسينية المصرية عام ١٣٤٣ هـ ١٦٦٥ م من ص ٢ - ٦

كبار رجال الدولة ولعله الوزير (جلال الدين على بن صدقة) وزير الخليفة (المسترشد بالله العباسى).

كلف هذا الوزير الحريرى بوضع مقامات على نسق مقامات البديع، وأن الحريرى اعتذر لشعوره بثقل هذه المهمة وصعوبة هذا المسلك ولإجلاله لمكانة البديع الأدبية، وإحساسه بالتقصير عنها، ولكن الوزير لم يقبل عذره وألح عليه فى الطلب فلم يسع الحريرى إلا الامتثال فصنع هذه المقامات. ثم عاد بعد صنعها إلى تواضعه وحسن إنصافه لبديع الزمان فقال فى صراحة واضحة.

هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات، وصاحب آيات وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتى بلاغة (قدامة)، لا يغترف إلا من (نمجه فيها)، ولا نجد أفضل من الحريرى كذلك ليدلنا على نمجه فى هذه المقامات من حيث (المضمون والمغزى) ومن حيث (الأسلوب) حيث يقول فى المقدمة نفسها.

«... خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودوره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية، والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية مما أمليت جميعه على لسان (أبى زيد السروجى)، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى) ... الخ».

(خصائصها الفنية) :

بنى الحريرى مقاماته على نفس الأسس والعناصر التى ابتكرها بديع الزمان والتى سبق أن وضحناها ولم يخالفه الا فى اسمى (الراوى والبطل) على النحو التالى :

(فالراوى) هنا اسمه (الحارث بن همام) وهو يبتدى به كل مقامة فيقول فى أولها ((حدثنا الحارث بن همام قال :))

(والبطل) عنده اسمه (أبو زيد السروجى) وقد نحله نفس الصفات التى نحلها الهمذانى بطله .

(والحكاية) تدور كذلك حول الكدية والاحتيال لكسب المال بوساطة الكلام الساحر البليغ ولكنها أشد أحكاما من حكايات (الهمذانى) بحكم استفادة الحريرى من التجربة السابقة .

(وأما أسلوبها) فأكثر التزاما للبديع والمحسنات ، وأشد تكلفا لأنواعه وتعمقا فى فنونه ، وأكثر ايرادا للغريب من مفردات اللغة التى تجدها محشودة فيها حشدا ، وقد تعمد (الحريرى) هذا قصدا للافادة ، وخدمة العربية .

(منزلتها) وقد راجت مقامات الحريرى فى حياته وبعد وفاته ، وفتن بها الناس والمتأدبون حتى كادت تنسيهم مقامات الهمذانى ، وصارت على من القصود عما يدرس على الشيوخ للتخرج فى الأدب ، وشرحها كثير من العلماء وقلدها عديد من الأدباء منذ عصر الحريرى إلى العصر الحديث ، فمن قلدها من القدماء : الشاب الظريف ، وابن الوردى ، والبطوطى ، ومن المحدثين : الشيخ حسن العطار وأحمد فارس الشدياق ، وناصيف اليازجى ،

ومن تمام حظ مقامات الحريرى أنها ترجمت إلى لغات كثيرة ، منها الفارسية والتركية والعبرية ؛ وترجمها بعض المستشرقين إلى اللغات الأوربية فترجمت إلى اللاتينية وإلى الانجليزية .

« نموذج من مقامات الحريرى »

« المقامة المكية »

حكى الحرث بن همام قال : نهضت من مدينة السلام ، لحجة الإسلام فلما قضيت بعون الله التفث ، واستبحت الطيب والرفث ، صادف موسم الخيف ؛ معمعان الصيف فاستظهرت للضرورة ، بما يقى حر الظهيرة ، فبينما أنا تحت طراف ؛ مع رفقة ظراف ، وقد حمى وطيس الحصباء ؛ وأعشى الهجير عين الحرباء ؛ إذ هجم علينا شيخ متسعسع [1] ؛ يتلوه فتى مترعرع فسلم الشيخ تسليم أريب ؛ وحاور محاورة قريب لا غريب ؟ فأعجبنا بما نثر من سمطه وعجبنا من انبساطه قبل بسطه ؛ وقلنا له ما أنت ؛ وكيف ولجت وما استأذنت ؟! فقال أما أنا فعاف ؛ وطالب إسعاف ؛ وسر ضرى غير خاف ؛ والنظر إلى شفيع كاف ، وأما الانسياب الذى علق به الارتياب فما هو بعجاب ؛ إذ ما على الكرماء من حجاب ، فسألناه أنى اهتدى إلينا ؛ وبم استدل علينا ، فقال أن للكرم نشرا تنم به نفحاته ؛ وترشد إلى روضه فوحاته فاستدللت بتأرج عرفكم وبشرنى تضوع رندكم ، بحسن المنقلب من عندكم ؛ فاستخبرناه حينئذ عن لبانته لنتكفل بإعانته ؛ فقال : أن لى ماربا

---

(1) هرم .

ولفتاي طلياء، فقلنا له كلا الراحلين سيقضى وكلا كما سوف يرضى، ولكن الكبير الكبير فقال أجل ومن دحا السبع الغبر [1]، ثم وثب للمقال، كالنشط من العقال [2] وأنشد:

إنى امرؤ لم يزل بى … بعد الوجى والتعب

وشقـــة شاسعة … يقصر عنهـــا خببى

وما معى خردلة … مطبوعة مـــن ذهب

فحيلـــتى متعبة … وحـــيرتى تلعب بى

إن ارتحلت راجلا … خفت دواعى العطب

وإن تخلفت عن الـــر … فقة ضاق مـــذهبى

فزفرتى فى صعد … وعـــبرتى فى صبب

وأنتم منتجع الـ … ـراجى ومرمى الطلب

لهـــاكم منهـــلة … ولا انهلال السحب

وجاركم فى حرم … ووفـــركم فى حرب

ما لاذ مرتاع بكم … فخاف ناب النوب

ولا استدر آمل … حباكم فما حبى

فاستطلعوا فى قصتى … وأحسنوا منقلبى

فلو بلوتم عيشتى … فى مطعمى ومشربى

---

(١) الأرضين ودحاها: بسطها

(٢) العقال: حبل يعقل به البعير.

لسانكم ضرنى الذى ... أسلنى للكرب
ولو خبرتم حسبى ... ونسبى ومذهبى
وما حوت معرفتى ... من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهة ... فى أن دائى أدبى
فليت أنى لم أكن ... أرضعت ثدى الأدب
فقد دهانى شؤمه ... وعقنى فيه أبى

فقلنا له أما أنت فقد صرحت أبياتك بفاقتك، وعطب ناقتك، وسنعطيك مايوصلك إلى بلدك، فما مأربة ولدك؟ فقال له قم يابنى كما قام أبوك، وفه بما فى نفسك لا فض فوك، فنهض نهوض البطل البراز، وأصلت لسانا كالعضب الجراز وأنشد يقول:

ياسادة فى المعالى ... لهم مبان مشيده
ومن إذا ناب خطب ... قاموا بدفع المكيده
ومن يهون عليهم ... بذل الكنوز العتيده
أريد منكم شواء ... وجردقا[1] وعصيده
به توارى الشهيده[2] ... فإن غلا فرقاق
أو لم يكن ذا و لا ذا ... فشبعة من ثريده

---

(١) رغيفا معرب كرده عن الفارسية
(٢) المراد: الهريسة

فإن تساعدن طرًا فسرة ونجيده(1)

فاحضروا ما لدى ولو غطى من قديم

ورجــوه فنفسى لــه روح مريده

والزاد لا بد منــه لرحلة لى بعيــده

وأنتم خــير رهط تدعون عند الشديده

أياديــكم كل يوم لهــا أياد جديده

وراحــكم واصلات شمل الصلات المفيده

ويغتنى فى مطاوى ماترفــدون زهيــده

وفى أجــــر وعقبى تنفيس كربى حميده

ولى قــرائح فــكر يفضحن كل قصيده

قال الحرث بن همام فلما رأينا الشبل يشبه الأسد، أرحلنا الراحلة وزودنا الولد فقابلا الصنع بشكر نشرا أرديته، وأدياه دينه ولما عزمنا على الانطلاق، وعقدنا للرحلة حبك النطاق، قلت للشيخ هل ضاقت عدتنا عن غرض، أو هل بقيت حاجة فى نفس يعقوب. فقال حاشا لله وكلا. بل جل معروفكم وجل فقلت فدنا كما دناك، وأدنانا كما اقصاك، أين المدرة(2) فقد ملكتنا فيك الحيرة، فتنفس تنفس من ادكر أوطانه وأنشد والشهيق يلعثم لســانه:

(سروج(3)) دارى ولــكن كيف السبيــل إليهــا

---

(1) الزبدة التى لم يتم روب لبنها.

(2) أين بلدك ؟

(3) بلد بين العراق والشام كان الصليبيون قد استولوا عليها فى هجومهم الغادر على البلاد الإسلامية وقد عبر الحريري عنه الأحداث الأليمة.

وقد أناخ الأعادي بها وأخنوا عليها

فو التي سرت أبغي حط الذنوب لديها[1]

ما راق طرفي شيء منذ غبت عن طرفيها

ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وآذنت مدامعه الهموع[2]، فكره أن يستوكفها[3]، ولم يملك أن يكفكفها، فقطع إنشاده المستحلى وأوجز في الوداع وولى.

(أثر المقامات في الأدب) :

كان للمقامات في الأدب العربي آثار وبصمات بعضها حسن وبعضها سيء (فمن حسناتها) : أنها أضافت إلى الأدب فناً جديداً جذاباً يتنافس فيه الكتاب والمنشئون ويخرجون نماذج جميلة مشوقة يحتذيها الناشئون ويخرج عليها الراقصون ومجالا خصباً للشراح والنقاد يخدمون من خلاله الدراسات الأدبية واللغوية وأنها حفظت كثيرا من مفردات اللغة من الضياع وذلك بوضعها في عبارات توضح معناها وفي خلال أقصوصة تبعد السأم عن قارئها، ومن حسناتها بالنسبة لعصرنا الحديث أنها أسهمت في بعث النهضة لأنها كانت من أوائل ماقدم للطبعة العربية، فساعدت على تكوين الملكات الأدبية عند كثير من رجال الرعيل الأول من أدباء العصر الحديث.

وأوضح مثال على ذلك تأثر الأديب الكبير المرحوم (محمد المويلحي) بالمقامات في كتابه القيم (حديث عيسى بن هشام) وهو كتاب نقد اجتماعي لعصر الكاتب في أسلوب قصصي شيق، يشبه إلى حد كبير أسلوب المقامات في الحكاية وسوق النوادر الطريفة، ويشبهه أيضاً في التزام السجع على

(١) يقسم بالكعبة الشريفة. (٢) من همع أي سال وانسكب.
(٣) من وكف الماء إذا سال قليلا قليلا.

الرغم من ضخامة حجم الكتاب (أماسيناتها) : فأعمها أنها ثبتت ... د لصنعة البديعية فى الكتابة ورسخت أسسها فى مجالات الإنشاء الأدبى ، بحيث أصبح استعمال المحسنات بأنواعها كأنه مفروض على الكتاب ، وأمر مقدس لا يمكنهم الحيدة عنه . فأثقلت الكتابة بأوضار الزينة والزخارف اللفظية وعلى حساب المعنى والفكرة والمضمون مما جنى على الأدب جناية كبرى لقرون طويلة منذ عهد المقامات وحتى مطلع عصرنا الحديث .

« بين المقامة والقصة »

كان حظ أدبنا العربى من القصة (كفن أدبى موضوعى) محدوداً بما ترجم إلى العربية فى العصر العباسى كـكتاب (كليلة ودمنة) . وما وضع على غراره بعد ترجمته ، وما تفرق فى كتب الأدب الكبرى من قصص مختلفة غير مقصودة لذاتها باعتبارها فناً مستقلا ، فجاءت (المقامة) لتسد فراغاً كبيرا فى هذه الناحية المهمة ولتكون نواة للقصة العربية المقصودة لذاتها ، ففيها من ملامح القصة وعناصرها (الحكاية) و (شخصيات) الممثلة فى (الراوى) ومن معه من الجمهور و (البطل) ومن يتصل به من زوجة أو ابن . وفيها أيضاً (العقدة) و (الحل) ولكن يؤخذ عليها أن فنها القصصى لم يكن ناضجاً .

(فالحكاية) قليلة المواقف ، و (الشخصيات) غير عميقة الأبعاد والأغوار ، و (عقدة والحل) ضعيفان ، المغزى متشابه فى كل المقامات وفيه تكرار يقلل من الجذب والتشويق ، كذلك الموضوع فهو يدور حول (الكدية) كما علمت .

لهذا لا يمكن اعتبار المقامة قصة مكتملة من الناحية الفنية ولكن من

الإنصاف أن تعد نواة صالحة وباكورة طيبة للقصة العربية ولو أنها تطورت لأدت إلى فن قصصى تام فى الأدب العربى ، ولكن الأدباء اللاحقين للبديع والحريرى لم يطوروها واكتفوا بتقليدها فجمدت قوالبها ولم تتقدم خطوه إلى الأمام . حتى جاء العصر الحديث فنقلها (المويلحى) نقلة كبيرة نحو القصة الطويلة بعد أن كانت أقصوصـــة قصيرة ، ثم جاء الفن القصصى الأوربى بصورته المتطورة الكاملة فاحتذاه كتابنا وأدباؤنا على نهجه الجديد ، وبقيت المقامات تراثاً جميلا ، شاهدة عن عصرها وعلى أنه كانت لأدبنا فى العصر العباسى الزاهر محاولات رائعة لبناء الفن القصصى فى الأدب وربما كانت لنا عودة إلى هذا الموضوع فى مجال أرحب إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين الذى بنعمته تتم الصالحات ؟

مراجع الكتاب

١ — مهذب الأغاني : الشيخ محمد الخضري مطبعة مصر ١٩٢٥ م
٢ — معجم الأدباء لياقوت الحموي ط دار المأمون ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م
٣ — العقد الفريد لابن عبد ربه بتحقيق محمد سعيد العريان التجارية ١٣٥٩ هـ
٤ — البيان والتبيين للجاحظ تحقيق حسن السندوبي التجارية ١٣١٦ هـ
٥ — معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي تحقيق محيي الدين عبد الحميد التجارية ١٣١٧ هـ
٦ — صفوة تاريخ الخلفاء العباسيين : محمد طه محمود التجارية ب ت
٧ — الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن طباطبا العلوي
٨ — نور الدين محمود د . حسين مؤنس ط القاهرة ١٩٥٩ م
٩ — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي بمطبعة حجازي ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م
١٠ — تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي : السباعي بيومي مطبعة العلوم ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م
١١ × تاريخ الأدب في العصرين العباسي والأندلسي : الشيخ عبد العزيز عيسى ط الاستقامة ١٣٥٥ هـ
١٢ — المفصل في تاريخ الأدب العربي : الشيخ أحمد الاسكندري وآخرين ط مصر ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م
١٣ — الوسيط في الأدب العربي وتاريخه الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني ط ١٩٢٨ م

١٤ نظرات فى الأدب العباسى د. أحمد الشعراوى مطبعة الأزهر ١٣٧١هـ ١٩٠١م

١٥ — التوجيه الأدبى : د. طه حسين وآخرين (دار الكتاب العربى ١٩٥٤م

١٦ — المنتخب من آداب العرب د. طه حسين وآخرين .

١٧ — حضارة الإسلام فى دار السلام : جميل نخلة المدور المطبعة الاميرية ١٩٣٥م)

١٨ — ديوان أبى تمام ط بيروت ب ت

١٩ — ديوان البحترى ط بيروت ١٩١١م

٢٠ — ديوان ابن الرومى تحقيق كامل كيلانى حوالى ١٩٢٨

٢١ — ديوان الشريف الرضى ط بيروت ب ت

٢٢ — ديوان المتنبى بشرح البرقوقى ط مصر ١٢٤١هـ

٢٣ ديوان الطغرائى ط الآستانة ١٣٠هـ

٢٤ ديوان الصادح والباغم لابن الهباريه شرح عزت العطار - القاهرة ١١٠٥هـ ١٩٣٦م

٢٥ — ديوان سقط الزند لابى العلاء المعرى مصر ب ت

٢٦ — مختارات البارودى

٢٧ — أبو عبادة البحترى د. محمد صبرى

٢٨ — بشار بن برد بين الجد والمجون - حسين منصور التجارية ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م

٢٩ — الأصفهانى د. أحمد كمال زكى مطبعة مصر ٦٢ ١

٣٠ — أبو عثمان الجاحظ د. محمد عبد المنعم خفاجى ب ت

٣١ - ابن المعتز د. محمد عبد المنعم خفاجي ب ت

٣٢ - مقامات الحريري - المطبعة الحسينية ١٣٤٣

٣٣ - مقامات بديع الزمان الهمذاني - القاهرة ب ت

٣٤ - في قصور الخلفاء العباسيين د. أحمد شلبي - الانجلو ١٩٥٤ م

٣٥ - يوم وليلة في خلافة ابن المعتز: عبدالعزيز سيد الاهل - بيروت ١٩٤٩م

٣٦ - لامية العجم للطغرائي - د. محمد عبد المنعم محمد ١٩٧٢ م

٣٧ - المعتزلة: زهدي حسن جار الله - مصر ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م

٣٨ - إعجام الاعلام . محمود مصطفى ط القاهرة ١٩٢٥ م

موضوعات
فهرس/الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصويبات

هذا تنبيه إلى بعض الأخطاء المطبعية غير المقصودة التى وردت فى الكتاب ونكل إدراك سائرها إلى فطنة القارىء الكريم آملين فى تجاوزه وصفحه :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	٢	ادوله	الدولة
١٧	٤	إدتها	إجادتها
٢١	٩	الأمطار	الأمصار
٢٢	٤	السفاخ	السفاح
٢٢	٨	الخلاو	الخلال
٢٢	١٩	المقنع	المقفع
٢٣	١٠	ورائى	وراق
٢٤	٧	مصء	مصرع
٢٥	١٢	تبورلت	تبودلت
٢٥	١٣	دخص	دخض
٢٥	٢٠	بانفس	لنفس
٢٦	٣	شبث	شبث
٢٦	٤	الحرس	الخرس
٢٦	١٢	يصوعون	يصوغون
٢٧	٢	الخورج	الخوارج
٢٧	١٩	ذبطرة	زبطرة
٢٩	٣	وفرد	وغرد
٢٨	٦	وتغابه	وتغلبه
٢٨	٢٨	مذة	مدة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠	٨	ولمبرا	ولعبوا
٣٠	١٥	والحجات	والحجاب
٣١	١	لعناصر	المناصر
٢١	٨	وتنزهوا	وامتزجوا
٣١	١٢	والرياض	والرياش
٣١	١٥	كـ بدى	كعبدى
٦١	٦	الرشاء	الرثاء
٦٢	١١	وقبلوا	وقلبوا
٢٢٠	٢	التصرف	التصوف
٢٢٣	٣	طبا	طبنا

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية

١٩٨٣ / ٣٤٥٣